السودان بعيون غربية

الجزء السادس

بدر الدين حامد الهاشمي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب :السودان بعيون غربية

المؤلف :بدر الدين حامد الهاشمي

تصميم الغلاف: إياس عوض الهاشمي

رقم الايداع ٢٠١٦/١٥٠١٧

الطبعة الأولى٢٠١٦



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى والدي ... كما ربياني صغيرا

وإلى كل من علمني حرفا

وإلى وطني الكبير وعائلتي الصغيرة...

محتويات الكتاب

تقديم

الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب الأفندي

ظللت أتابع بكثير من الاهتمام الترجمات التي ظل الأخ بدر الدين حامد الهاشمي ينشرها بانتظام في مختلف الصحف والمواقع السودانية. ذلك أن تلك المواد كانت تتمتع بقيمة تاريخية وعلمية كبيرة، بل هي أشبه بالكنوز النادرة، دأب الكاتب على استخراجها من أعماق كل أرشيف، ثم استخراجها مرة أخرى من اللغة الإنجليزية وبذلها للقارئ السوداني والعربي في ثوب رصين. فهو أشبه بغواص لؤلؤ، يجوب أعماق الخزائن المغلقة، ويمتاح البحور، بحثاً عن النفائس يتخيرها. ولكنه بدلاً من أن يكنزها، يبذلها لكل عابر سبيل.

وقد وقر في ذهني أن الرجل مؤرخ ضليع، وهبه الله نعمة التمكن في اللغتين العربية والإنجليزية، وهمة لا تكل في البحث والتنقيب. فالملاحظ بالنسبة للمراقب العابر أن محور هذه المساهمات تاريخي في الأساس. إذ أن الكاتب دأب على تخير مادته مما كتبه قدامى الفرنجة وبعض محدثيهم عن السودان وأهله. وكنت أعجب بهذا السيل المضطرد من المساهمات القيمة، وأتعجب كذلك من قدرة الكاتب على مواصلة هذا الجهد، على ما يتطلبه من بحث شاق في الأضابير، وما يفرضه من معاناة الصبر على الترجمة والتجويد فيها، ومعالجة النشر ومتاعبه، حيث أن الرجل أصبح أشبه بمؤسسة للنشر والترجمة (ما شاء الله ولا قوة إلا بالله). وهذا يدفع إلى التساؤل، كيف يجد صاحبنا الوقت لكل هذا، خاصة وأنه (بحسب ظني) أستاذ جامعي في التاريخ، يكابد ما نكابده

جميعاً من مشاق التدريس، وعناء البحث، وربما المهام الإدارية. فلا شك إذن أن وراء الرجل مؤسسة كبرى تدعمه بالمال وتعين له المساعدين.

قبل فترة لم تطل، احتجت للتواصل مع هذا الكاتب المعطاء، فأخذني مني العجب كل مأخذ حين علمت أن صاحبنا ليس مؤرخاً ولا مترجماً محترفاً، وإنما أستاذ في علوم الأدوية في جامعة عربية مرموقة، وأنه أعد أو نشر عشرات، بل مئات الأوراق العلمية في مجال تخصصه الأساس، كما أنه يساهم بانتظام في المؤتمرات العلمية، ويشرف على الأبحاث، إضافة إلى أنه كان يتولى مهام إدارية في جامعته. وكانت هذه مناسبة للدعوة لكابتنا بتوفيق أكبر في كل مجهوداتنا العلمية. فهو يسير على خطى شخصيات رائدة في مجتمعنا السوداني، من أبرزها ابن بلدته د. التجاني الماحي، وهي شخصيات جسدت نموذج «رجل عصر النهضة» بالمصطلح الغربي، أي الشخص متعدد المواهب والتخصصات والاهتمامات.

نكثر الشكوى نحن معشر السودانيين من قلة الهمة في مجالات العلم والبحوث، ومن بؤس العطاء في هذه الساحات. ولا شك أن إبداعات وإنجازات بدر الدين وكثيرين غيره تجيب على التساؤل حول العلة في هذه الخلل، وهي علة مؤسسية. فهناك إشكاليات مؤسسية -سياسية-اجتماعية تخنق الإبداع وتعوق الإنجاز. ولا يمكن أن ننطلق كبلد ونلحق بركب الحضارة ما لم تتم معالجة هذه المعضلات المتجذرة.

بالعودة لكتابنا هذا موضوع هذا التقديم، فإنه يحتوي، مثل سابقاته ومساهمات الهاشمي عموماً، على درر ونفائس تم تجميعها من مصادر شتى، وهي لكتاب منهم الأمريكي (أو من يعمل هناك) ومنهم البريطاني، وتناولت مواضيع تراوحت بين معضلة معاش حكام السودان البريطانيين، التي كانت تدفعها الحكومة السودانية في ترتيب هو الأغرب من نوعه، وأزمة الهوية التي واجهها أولئك المعاشيون مع أزمتهم المالية. تناولت الترجمات كذلك نقداً لما وصفه كاتب بأنه برنامج نظام الفريق إبراهيم عبود لأسلمة وتعريب الجنوب، ومحاولة لتقصي

أصل الفونج، مؤسسي أول دولة إسلامية في السودان، كتبها الإداري البريطاني جيمس روبرتسون، الذي اشتهر بكونه أخر سكرتير إداري (بمثابة رئيس وزراء) في العهد الاستعماري. وكان روبرتسون كتب تلك المقالة في أول فترة عمله في السودان كإداري مبتدئ في ذلك الوقت (١٩٣٤).

هناك مقالة كتبتها باحثة أمريكية عن زرافة «سودانية» حازت شهرة واسعة هي وسائسيها النوبيين عندما أهداها محمد علي لملك فرنسا في عام ١٨٢٦، وجابت فرنسا وبقيت محور اهتمام شعبي بلغ حد الهوس، وبقيت تجتذب الاهتمام حتى موتها بعد حوالي عقدين من الزمان. وهناك مقالة أخرى نشرت في عام ٢٠٠١ حول جعفر باشا مظهر، حكمدار السودان بين عامي ١٨٦٥ - ١٨٧١، والذي وصفه الكاتب بأنه كان «أحد أهم حكمداري السودان في العهد التركي»، ومعالجة أخرى أحدث (عام ٢٠١٣) لجذور الصراع بين الرزيقات والدينكا في أيام الحكم الثنائي. ولكن المواد ذات القيمة التاريخية الأكبر هي المقتطفات من رسائل المبشرين الكاثوليك في الخرطوم كتبت وأرسلت في أعوام ١٨٤٣، ١٨٥٣، و١٨٨١، وهي تشكل مواد أولية ثمينة للمؤرخين. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن شهادة الرحالة النمساوي ريتشارد بوختا الذي زار الخرطوم عام ١٨٧٧، أي قبيل اندلاع الثورة المهدية، وكذلك عن رواية آرثر توود هولرويد عن زيارته لكردفان بين عامي ١٨٣٦ -١٨٣٧، والمنقولة عن مجلة الجمعية الملكية الجغرافية في عددها التاسع الصادر بلندن عام ١٨٣٩.

هناك أهمية لأسباب مختلفة للمقتطفات من مذكرات كينيث هندرسون، أحد أهم الإداريين البريطانيين في الحقبة الاستعمارية، ولسبب ثالث لمقال نشره طبيب بريطاني عام ١٩٣٨ عن ختان البنات في السودان. ولكن المؤلف طرح محقاً تساؤلات متشككة حول مقال نشر عام ١٨٨٤ في صحيفة أسترالية يحوي تقريراً كتبه التاجر النمساوي جودو ليفي عن زيارته لمعسكر الأمير عثمان دقنة، أحد كبار قادة الحركة المهدية السياسيين والعسكريين. وينتمي دقنة إلى قبائل

الهدندوة، وهم موضوع مقتطف آخر من كتاب الباحث النرويجي ليف مانقر، «طريقة عيش الهدندوة – بقاء تقاليد ثقافية». والرجل باحث رصين مشهود له، وعليه قد لا يحتاج لنقد سلفه النمساوي. ويستحق عرض مارتن ديلي لكتاب مفتشة مدارس البنات في السودان بين عام ١٩٣٩-١٩٤٩، السيدة إينا بيزلي كذلك بعض الاهتمام، رغم أن الرجل لا يطاق أحياناً. نفس الاهتمام تستحقه النبذة عن كتاب ديلي المشترك مع فرانسيس دينق حول الاستعمار البريطاني في الجنوب، واحتجاجه بلين الاستعمار هناك و «قيوده الحريرية»، رغم أن هذه الدعوى تثير الجدل لما هو معلوم عن معاناة أهل الجنوب أيام الاستعمار وما بعده.

بالطبع لا تعني القيمة التاريخية والتسجيلية لعديد من هذه المواد أنها متساوية من حيث القيمة والصدقية. فبعضها، خاصة المقالات الأحدث، مثل مقالة وليام آدمز بعنوان «عدم المساواة والديمقراطية بالسودان عبر التاريخ»، والمنشورة في دورية أمريكية عام ١٩٩٤، هي أقرب إلى الهراء، بسبب خلطها بين الحقب. ولكن مثل هذه الأمور لا تفوت على فطنة القارئ. وبالمقابل، هناك مقالات قيمة في حد ذاتها، لما تحتويه من إضافات، ومنها مقالة ماسيمو زكريا حول الدراسات السودانية في إيطاليا، وما حوته من تقييم وسير بعض السابقين من زوار السودان من الإيطاليين. كذلك فإن مقالة فلوريان كروب بعنوان «نمساويان في السودان» تمثل إضافة علمية بتناولها النقدي لسير أشهر نمساوي في السودان، سلاتين باشا، ومواطنه الأقل شهرة وحظاً، أرنست مارنو، الذي توفي في الخرطوم عام ١٨٨٣.

يمسك المؤلف في الغالب عن التعليق على ما ينقله من مواد، إلا في أضيق الحدود، خاصة حين يضيف المعلومات عن الكاتب والمصدر. وربما تكون هذه هي الطريقة المناسبة لمثل هذه المؤلفات. إلا أنني مع ذلك أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتصحيح، ولعل الأصح أن يقال توسيع وتأطير، معلومات وردت في مقالة لم يتضمنها هذا الكتاب، وهي ترجمة مقالة طلال أسد عن الكبابيش، والمنشورة على مواقع عدة في عام

٢٠١٣. فقد جاء في التعريف أن طلال أسد أحد أشهر علماء الانثروبولوجيا، وهو مولود لأم سعودية وأب يهودي اعتنق الإسلام في عشرينات القرن الماضي. وهذه المعلومات صحيحة من ناحية الشكل، ولكنها لا توفي الرجل ولا والده حقهما.

صحيح أن محمد أسد، والد طلال، ينحدر من أسرة يهودية الأصل، كانت تعده للحاخامية، ولكنه اختار الصحافة، وعبرها تعرف على العالم الإسلامي، حيث اعتنق الإسلام في شبابه في العشرينات، وعاش في السعودية حيث تزوج والدة طلال، ولكن الزواج لم يدم طويلاً بسبب الهوة الثقافية الواسعة بين النمساوي الشاب والفتاة السعودية. ولكن وصف محمد أسد بأنه «يهودي اعتنق الإسلام» أشبه بوصف خالد بن الوليد بأنه مشرك اعتنق الإسلام. والصحيح أن يذكر بلاء المسلم في إسلامه، خاصة إذا كان مثل محمد أسد، الذي كان عند وفاته في عام ١٩٩٢ قد قضى قرابة سبعين عاماً من عمره في الإسلام، وهو صاحب واحد من أفضل التراجم للقرآن الكريم. وقد ألهم كتابه «الإسلام في مفترق الطرق» الذي نشر في الثلاثينات العديد من المصلحين الإسلاميين في القرن الماضي. ولم تقف مساهماته عند هذا الحد، بل إنه نافح عن القضايا الإسلامية، مثل قضية القدس، بالقول والفعل طوال حياته، كما ساهم في النهضة الإسلامية في الهند قبل أن تعتقله السلطات البريطانية هناك إبان الحرب العالمية الثانية بتهمة مضحكة، وهي أنه نمساوي الجنسية، وأن دولته النمسا في حالة حرب مع بريطانيا! هذا بالرغم من أن البريطانيين يعرفون قبل غيرهم أن أصله اليهودي ودينه الإسلامي كلاهما يمنعانه من أن يكون من مناصري ألمانيا النازية التي أخذت كل أفراد أسرته إلى معسكرات الاعتقال، فلم ينج منهم أحد. وقد أدى اعتقاله إلى ضياع ترجمته لصحيح البخاري التي كان عكف عليها لسنوات.

بعد الحرب، التحق أسد بباكستان، وشارك في تأسيس الجمهورية الإسلامية هناك، وأصبح أول ممثل للدولة الوليدة في الأمم المتحدة. في فترات لاحقة، انتقل أسد إلى السعودية، حيث قضى ١٧ عاماً وهو يترجم القرآن الكريم، قبل أن ينتقل إلى اسبانيا حيث توفي. وقد سعدت بلقاءات عدة محمد أسد وحوارات ثرية

ممتعة. وقد خصصنا أحد أعداد مجلة أرابيا في عام ١٩٨٦ لحياته ومساهماته.

لم يسر طلال أسد على سيرة والده، لأنه كان يساري التوجه، علماني النظرة. هذا بالرغم من أنه ربما يكون أفضل وأعمق من تناول العلمانية المعاصرة وانتقدها. وآمل أن تتاح للهاشمي في وقت لاحق إن شاء الله أن يترجم المقابلة التي نشرت مع طلال أسد في عام ٢٠٠٥ ضمن كتاب «طلال الأسد ومحاوروه»، الذي احتفل فيه عدد من أبرز علماء الانثروبولوجيا بمساهمات أسد. واخص بذلك المقاطع التي تناول فيها الأسد دراسته لقبيلة الكبابيش، وأهم من ذلك ذكرياته عن جامعة الخرطوم التي حاضر فيها في النصف الثاني من الستينات. ولعلها مفارقة ذات مغزى، وذات علاقة بما ذهبنا إليه من الإشكالية المؤسسية في السودان، أن أسد لم يتحدث فقط بكثير من الإعجاب والتقدير عن تلك الفترة، بل كشف وقتها أنه انتقل إلى جامعة الخرطوم خصيصاً لأنها كانت تتيح فرصاً أفضل للبحث العلمي من أكسفورد التي كان يعد درجة الدكتوراه فيها!!

ربما أكون أسهبت أكثر من اللازم في هذه النقطة، ولكنها مهمة في رأيي. ولا نريد أن نكلف الأخ بدر الدين من أمره شططاً بالنظر إلى مساهماته القيمة التي أتاحت للقراء العرب مادة دسمه ما كانت لتتوفر لو لا جهوده التي نأمل أن تستمر وتدنو قطوفها.

عبدالوهاب الأفندي

أستاذ العلوم السياسية، رئيس برنامج العلوم السياسية والعلاقات الدولية

معهد الدوحة للدراسات العليا

الدوحة، قطر - أكتوبر ٢٠١٥

مقدمة بروفيسور أحمد الصافي

مشروع الهاشمي
إكمال سلسلة المعرفة بتوفير المتون

حكى البروفيسور التجاني الماحي (١٩١١-١٩٧٠)، أبو الطب النفسي في السودان وإفريقيا، قائلاً إنه أثناء محاضرة باللغة الإنجليزية سمع المحاضر يقول: (Bibliography is half scholarship) أي (الببليوجرافيا نصف المعرفة) أو نصف البحث أو ما معناه. قال أصابني ما يشبه الغشي فلم أعي ما قال المحاضر بعد ذلك لشدة ما أعجبت بضخامة وبلاغة تلك الكلمات الثلاثة. في حقيقة الأمر، أخذت بذلك البريق المفاجئ الذي ينفذ في البصيرة ليفتح لك آفاقاً ما كانت في الحسبان[١].

لا أود في هذه المقدمة التي شرفني بروفيسور بدر الدين حامد الهاشمي بكتابتها لمجموعته السادسة من كتابه (السودان بعيون غربية) أن أكرر ما قاله النقاد عن تفرد المواضيع التي اعتنى بها واختارها للترجمة، ولا تعدد أنواعها، ولا رفده المعرفة السودانية بترجماته، ولا مثابرته في جهده وتدقيقه وإتقانه في مجال الترجمة والتوثيق، ولا المتعة الجارفة التي توفرها هذه المقالات لشريحة كبيرة من القراء، أو إنارته لبعض الحقائق الغائبة عنا في تاريخنا القريب والبعيد، أو غير ذلك مما أشار إليه آخرون في مقدمات المجموعات السابقة أو في منابر الرأي الأخرى، بل أود أن أتلمس في هذه العجالة بعض الجوانب التي أراها تساعد في فهم

(١)أحمد الصافي. الحكيم. مطبعة العملة، الخرطوم.٢٠١٤ صفحة ١٧٢.

المشروع الذي يبنيه هذا العالم الجليل بهذه الترجمات، وهو مشروع أسميه (إكمال سلسلة المعرفة بتوفير المتون). ولأغراض هذا المشروع، أراجع العمل الببليوغرافي في السودان لدوره المفصلي في هذه السلسلة، ودور الدولة والمؤسسات الوطنية المعنية بالثقافة والفكر، ومن ثم دور الهاشمي. دعني، عزيزي القارئ، أوضح ما أقول.

إن الحصيلة الفكرية التي أنتجها السودانيون في كل ضروب المعرفة وتلك التي ساهم بها الأجانب عن السودان مثلها مثل أي حصيلة فكرية أخرى تنتظم (لأغراض هذه الورقة) في سلسلة ذات حلقات ثلاثة، وهذه السلسلة قوية ما قويت حلقاتها، وضعيفة تنفرط وتتشتت حلقاتها إذا ضعفت أي حلقة منها. الحلقة الأولى تمثل (المراجع) أو مواد المعرفة المنتجة المتعلقة بالسودان، والثانية تصف هذه (المراجع) وصفاً يجعلها مفهومة للقارئ أو الباحث وتصنفها وتضعها في قوائم ببليوغرافية وفق ما اتفق عليه الوراقون، والثالثة توفر متون المراجع التي احتوتها هذه القوائم.

تفترض هذه الكلمة، ولأغراضها فقط، أن الفضاء الفكري السوداني غني بالإنتاج لكنه إنتاج مشتت، فبعضه كتب بلغات أجنبية عصية على بعض القراء، وبعضه محفوظ في أضابير المؤسسات الأكاديمية خارج السودان ويصعب على الباحث الوصول إليه. فما تحويه مجموعة السودان في جامعة درم (Durham University Sudan Collection) وهي أغنى مجموعة خارج السودان، ومجموعة محمود صالح عثمان صالح بجامعة بيرقن (The Mahmoud Salih Collection in University of Bergen) التي تحتوي على قرابة الألفي كتاب عن السودان، والرسائل الجامعية التي أنتجها السودانيون في جامعات العالم المختلفة، والدراسات السودانية التي قام بها الأجانب عن السودان في جامعاتهم ومؤسساتهم، وما حوته كتالوجات مكتبات العالم الكبرى عن السودان، ما زالت

كلها غريبة لم يصل للسودان طرف منها، وبالتالي ظلت بعيدة عن متناول الباحث السوداني.

احتوت دار الوثائق القومية السودانية قرابة الثلاثين مليون وثيقة عن السودان، وحوت مكتبة السودان بجامعة الخرطوم حتى ١٩٨٥ حوالي ٣٠ ألف عنوان من الكتب والخرائط والتقارير وخلافها، وكان من المرجو والمتوقع أن تقوم هذه المكتبة مقام المكتبة الوطنية، لكنها تقاعست وكان آخر تحديث لفهارسها في ١٩٧٥. وهناك ما يقارب الثلاثين ألف رسالة فوق الجامعية في مكتبة السودان وأعداد مجهولة في كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم، والمجلس القومي للتخصصات الطبية، وباقي الجامعات والكليات والمعاهد التي تمنح درجات الماجستير والدكتوراه في العلوم الإنسانية والتطبيقية والبحتة.

يلزم (قانون إيداع المصنفات) كل طابع لمصنف ينشر في جمهورية السودان وكل مؤلف سوداني ينشر مصنفاً أو ينشر له مصنفاً خارج السودان أن يودع نسخة منه على نفقته خلال شهر واحد من طبعه لدى مكتبة جامعة الخرطوم ودار الوثائق القومية وسبعة جهات أخرى[1]. لم يطبق هذا القانون تطبيقاً كاملاً، ولم تهتم هذه المؤسسات بمتابعة تنفيذ هذا القانون ولم تعتني بنشر قوائم ورقية أو رقمية بما تحتويه من كتب أو رسائل جامعية أودعت لديها بحكم القانون أو مخطوطات جاءتها عن طريق الإيداع الشخصي. كما لم تنوه عن مقتنياتها الخاصة، ولم تقدم الآليات التي تربط الباحث بقوائم وفهارس المكتبات والمؤسسات الشبيهة خارج السودان عبر الشبكة الإلكترونية أو بشراء نسخ ورقية أو رقمية أو ممغنطة من الفهارس الأجنبية. لو نشرت هذه المراكز قوائم الإنتاج السوداني بانتظام وعممتها لما طلب منصور خالد، وهو العليم بكل شاردة وواردة في حقل الثقافة السودانية، لما طلب من الهاشمي في مقدمته للمجموعة الرابعة من هذه السلسلة أن يترجم

(١) وزارة العدل. قانون إيداع المصنفات. لسنة ١٩٦٦ تعديل ١٩٩٦. قوانين السودان (المجلد الثاني) (١٩٣٣-١٩٨١) الطبعة الثامنة. مراجعة حتى ٢٠٠٩.

(غروب الشمس في السودان) لمايكل وآن تبس الذي ترجمه باقتدار كبير الدكتور موسى عبد الله حامد في ٢٠٠٦.

تصف البيانات البيليوغرافية مصادر المعلومات وأوعيتها وقد تكون مشروحة (annotatedbibliography)، أي تشمل مستخلصات المواد المدرجة فيها، وهذه نادرة، وقد تكون سردية (analytical) وهي الأعم. ومهما كان نوعها، توفر الببليوجرافيات للدارسين والباحثين والقراء في مختلف فروع المعرفة مادة لا غنى عنها لأنها تدلهم على المصادر الخاصة بموضوعات بحوثهم عبر الأزمنة والأمكنة واللغات. وبالرجوع لهذه المصادر، يتمكنون من التحقق من صحة معلوماتهم والعمل على استكمالها أو تصحيحها، ويصلوا بذلك لحلول لما يبحثون فيه من مشكلات أو فيما يكتبون عنه. بالتالي، تساعد الدارسين في إنجاز بحوثهم بطرق أسرع وأشمل وأدق وأكثر كفاءة. ليس ذلك فحسب، بل لا يستطيع كاتب أن ينشر عملاً نشراً علمياً سليماً ما لم يستوف دراسة ما كتبه الآخرون من قبله في نفس الموضوع أو حوله أو في مجاله. حقيقة، الببليوجرافيا نصف البحث. والببليوجرافيات السودانية، بهذا الفهم، هي مفاتيح مصادر المعلومات التي تفتح مغاليق النصف الآخر من الأعمال الفكرية على وجه العموم.

ولأن الوراقين السودانيين قد أدركوا أهمية الببليوجرافيات، وأدركوا أيضاً أن لا فائدة من الكتاب الذي لا يقرأ، ولا فائدة من المعلومات التي لا تستخدم، ولا فائدة من المكتبة التي لا تساعد في الوصول إلى المراجع والحصول عليها، فقد قطعوا شوطاً معقولاً في توفير قوائم ببليوجرافية ورقية عديدة تهدف إلى التعريف بالإنتاج الفكري السوداني أو بالأعمال المتعلقة بالسودان بأقلام سودانية أو أجنبية.

يقول شيخ الوراقين السودانيين المحدثين، قاسم عثمان نور، إن السودان يعتبر في طليعة الدول العربية والأفريقية التي تمكنت من بناء هياكل ببليوغرافية في

مختلف التخصصات والموضوعات، وفي طليعة الدول النامية من حيث توفر عدد كبير من القوائم العامة والمتخصصة[١]. فقد بلغ عدد الببليوجرافيات التي صدرت بكل اللغات (العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، والروسية والإيطالية، والنرويجية) في جميع الموضوعات في الفترة من عام ١٨٨٥ إلى ١٩٨٥ حوالي ٣٢٧ قائمة منها ٦٠ باللغة العربية و٢٦٧ بلغات أجنبية[٢]. زاد عدد هذه الإصدارات على الأربعمائة قائمة في ٢٠٠٤[٣].

صدرت أغلب هذه الببليوغرافيات بجهود فردية، فكانت قائمة الأمير إبراهيم حلمي (ببليوجرافيا الدراسات السودانية والمصرية من أقدم العصور وحتى عام ١٨٨٥) أول ببليوجرافيا في السودان باللغة الإنجليزية[٤]، نشر رتشارد هل (RichardHill) بعدها (ببليوجرافيا السودان المصري الإنجليزي من أقدم العصور حتى عام ١٩٣٧م)[٥]. ومواصلة وتكملة لها، أصدر عبد الرحمن النصري (١٩٢٨-٢٠١٠)، أول أمين سوداني لمكتبة جامعة الخرطوم، (ببليوجرافيا السودان) وغطت الفترة من ١٩٣٨ إلى ١٩٥٨[٦]، واصلت بعد ذلك أسماء إبراهيم وعبد الرحمن النصري بإصدارة بنفس العنوان غطت الفترة ١٩٥٨-

(١)قاسم عثمان نور. البيليوجرافيا السودانية في قرن (١٨٨٥-١٩٨٥). وزارة الثقافة والإعلام بالاشتراك مع مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات. الطبعة الثانية الخرطوم ٢٠٠٤: صفحة ٤٤.

(٢)قاسم عثمان نور. ببليوجرافيا البيليوجرافيات السودانية (١٨٨٧-١٩٩٧). وزارة الثقافة والإعلام بالاشتراك مع مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات. الطبعة الثالثة الخرطوم ٢٠٠٤: صفحة ٤٧.

(٣)قاسم عثما نور. البيليوغرافيا السودانية في قرن (١٨٨٥-١٩٨٥). نفسه: صفحة ٤٤.

(4)Ibrahim Hilmi (Prince). The Literature of Egypt and the Sudan from the Earliest Time to the Year 1885. Trubner 1886/7. 2 volumes. Reprinted 1966

(5)Richard Hill. A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the Earliest Times to 1937. Oxford. OUP: 1939. –xi, 213 p

(6)Abdel Rahman El Nasri. A Bibliography of Sudan 1938-1958. London: OUP. 1962. –x, 117 p.

١٩٦٨[١]. أصدر عبد الرحمن النصري أيضاً (كشاف مجلة السودان في رسائل ومدونات) مسح فيه الأعداد الخمسة والخمسين التي نشرت في الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٧٤[٢]. جدير بالذكر هنا أن (مجلة السودان في رسائل ومدونات) قد عكفت منذ بداية صدورها في ١٩١٨ على نشر قوائم ببليوغرافية للدراسات السودانية التي تصدر باللغة الإنجليزية واستمرت على ذلك المنوال زمناً لكنها توقفت في الأعداد الأخيرة.

صدرت جميع القوائم أعلاه باللغة الإنجليزية. أما القوائم التي صدرت باللغة العربية فكان في طليعتها (الأصول العربية للدراسات السودانية من ١٨٧٥-١٩٦٧) ليوسف أحمد داغر[٣]. بعدها أصدرت جامعة الخرطوم (الفهرس المصنف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم) الذي شمل المصادر والمراجع الموجودة بالمكتبة باللغتين العربية والإنجليزية[٤]. جمع الفريق الذي أعد الفهرس (عبد الرحمن النصري، وقاسم عثمان نور وأحمد البدوي الزاكي) بطاقات فهرس المكتبة وأعادوا مراجعتها وتصنيفها وطبعها على الآلة الكاتبة بقسم التجليد بالمكتبة، وصوروا وأصدروا الفهرس بطريقة زيروكس في مجلد ضخم زادت صفحاته على الأربعمائة من حجم A3 وشمل حينئذ كل محتويات مكتبة السودان. ورغم وجود ببليوجرافيات أخرى عامة ومتخصصة إلا أن هذا الفهرس كان أعظمها نفعاً لأن الباحث يعرف أين يجد ضالته، وهذا ما لا تحققه الببليوغرافيات الأخرى. وجد هذا الفهرس عند صدوره إقبالاً ورواجاً شديدين

(1) Asma Ibrahim & Abdel Rahman El Nasri. A Bibliography of Sudan 1959-1966. Khartoum University of Khartoum Library. 1967. Sudan Notes & Records. Vol. 46, 1965 & Vol. 49, 1968

(2) Abdel Rahman El Nasri. Guide to Sudan Notes and Records. University of Khartoum Library. 1980: 138 pages

(٣) يوسف أحمد داغر. الأصول العربية للدراسات السوداني ١٨٧٥-١٩٦٧.

(٤) عبد الرحمن النصري (إعداد). الفهرس المصنف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم. مكتبة جامعة الخرطوم. ١٩٧١.

خاصة في المكتبات ومراكز البحوث والمعلومات الأجنبية المهتمة بالدراسات السودانية. هذا الفهرس الآن من المطبوعات النادرة لنفاد طبعته من عدة أعوام. يقول عبد الرحمن النصري في مقدمته:

«مجموعة الكتب والمطبوعات الموجودة بمكتبة جامعة الخرطوم عن السودان أكبر وأندر مجموعة من نوعها في العالم ونواة هذه المجموعة هي المجموعة التي أهدتها حكومة السودان عام ١٩٤٥ لمكتبة جامعة الخرطوم وكانت جزءاً من مكتبة المخابرات...» وكان «الغرض من هذا الفهرس بملاحقه (التي يجب أن تتواصل سنوياً) أن تقوم مقام البيليوجرافيا الوطنية لتشمل جميع المطبوعات التي تزود بها المكتبة عن طريق الإيداع القانوني بالإضافة إلى ما ينشر عن السودان في البلدان الأخرى»[١].

حوى الفهرس الرئيس الأول الذي صدر في ١٩٧١، ٥١١٤ مادة، أعقبته ثلاثة ملاحق نشرت في الأعوام ١٩٧٣[٢] و١٩٧٤[٣] و١٩٧٥[٤]. قفز الملحق الأول بالمادة إلى ٥٧٩٦ والثاني إلى ٦٦١١ والثالث والأخير إلى ٧٣١٥. رغم انقطاع النشر في ١٩٧٥ إلا أن المكتبة واصلت إعداد هذه الملاحق حتى ١٩٨٥ دون أن تنشرها. بالتالي، لم تقطع مكتبة جامعة الخرطوم تحديث فهارسها فحسب بل أجهضت مشروع عبد الرحمن النصري الذي كان يسعى به لتأسيس ببليوجرافيا وطنية سودانية يوماً ما.

في ١٩٧٦، نشر معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية (أرشيف الفولكلور

(١)عبد الرحمن النصري. نفسه.

(٢)أسماء إبراهيم ومعاونة عبد المجيد الصديق (إعداد). الفهرس المصنف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم. مكتبة جامعة الخرطوم. الملحق الأول ١٩٧٣.

(٣)أسماء إبراهيم ومعاونة عبد المجيد الصديق وجعفر إبراهيم التاي (إعداد). الفهرس المصنف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم. مكتبة جامعة الخرطوم. الملحق الثاني ١٩٧٤.

(٤)عبد الرحمن النصري وأسماء إبراهيم (إعداد). الفهرس المصنف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم. مكتبة جامعة الخرطوم. الملحق الثاني ١٩٧٥.

العام) باللغتين العربية والإنجليزية واحتوى على ١٧١١ شريطاً مسجلاً مع توصيف موجز يبرز محتويات كل شريط[١]. وفي مناسبة عيد ميلاده العاشر (١٩٧٢-١٩٨٢)، أصدر قسم الفولكلور التابع له (ببليوجرافيا الفولكلور السوداني باللغة العربية) في ١٩٨٢[٢].

على صعيد آخر، وفي ما يخص الرسائل والأطروحات الجامعية، فقد لقيت اهتماماً كبيراً من الوراقين فصدرت منها حتى ٢٠٠٤ أكثر من عشرين قائمة، منها قائمة ميمونة ميرغني حمزة[٣]، وقائمة عبد الرحمن النصري[٤]، كما أصدرت كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم قائمتين مشروحتين لتغطي الرسائل للفترة ١٩٥٨-١٩٧٥ والفترة ١٩٧٥ – ١٩٧٧، وقائمة يوسف فضل وعبد الرحمن النصري للرسائل الجامعية لعام ١٩٨٦[٥]. قام معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بإعداد ونشر قائمة بالرسائل الجامعية التي قام بها طلابه والمنشورات التي أصدرها باللغتين العربية والإنجليزية. أصدر صلاح الجرق دليلاً ببليوجرافيا بالبحوث المجازة للحصول على بكالوريوس (الدبلوم سابقاً) كلية الفنون الجميلة والتطبيقية (١٩٥٧-١٩٨١)[٦]. وقام عثمان حسن أحمد حين كان ملحقاً ثقافياً في سفارة السودان في واشنطن بنشر ببليوجرافيا الأطروحات فوق الجامعية في كندا

(1) The Institute of African and Asian Studies. Folklore Archives General Index. July 1976: 252 pages

(٢) الطيب على بابكر، قاسم عثمان نور، والرضية آدم (إعداد). ببليوغرافيا الفولكلور السوداني باللغة العربية. معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية. ١٩٨٢. ٢٠٠ صفحة.

(3) Maymouna Mirghani Hamz. Theses on the Sudan and by Sudanese accepted for higher degree. Khartoum. University of Khartoum Library, 1966-63 pages

(4) Abdel Rahman El Nasri. Theses on the Sudan, 1974 revised edition. Khartoum. University of Khartoum Library. 1974, 63 pages

(5) Abdel Rahman El Nasir et al (Compiler). University of Khartoum Library. Sudan: A Bibliography of University Theses. 1986: 527 pages

(6) The Institute of African and Asian Studies. List of theses & dissertations. January 1983. 53 pages. Zerox publication

والولايات المتحدة وذلك في عام ١٩٨٢[١]، كما أصدر كشافاً عن الأفلام التعليمية والوثائقية التي أنتجت في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٧٧ واحتوت على ٣٨٩٩ مرجعاً[٢]. فاختط بذلك سنة حسنة لملحقيات السودان الثقافية أين كانت.

في مجال الببليوجرافيات المتخصصة، صدرت مجموعة من الأعمال غطت العديد من الموضوعات في شتى ضروب المعرفة، أصدر قاسم عثمان نور وحده أكثر من ثلاثين كشافاً غطت أغلب المجالات (مصادر الدراسات السودانية، المجلات السودانية، القصة القصيرة، اللغة العربية، الإسلام، المهدية، قضايا المرأة، الحركة الوطنية، العلاقات العربية الإفريقية، مؤلفات عبد الله الطيب، ومحمد إبراهيم أبو سليم، وعون الشريف قاسم، والتجاني يوسف بشير، والطيب صالح، ومحمد المهدي المجذوب، الخ).

حوت مكتبة الدكتور التجاني الماحي التي أهدتها عائلته لجامعة الخرطوم في ١٩٧٢، نفائس الكتب والمصنفات والخرائط والمخطوطات العربية والإسلامية والسودانية النادرة، زيادة على عدد من العاديات والطوابع والخطابات واللوحات النادرة وغيرها من المواد المتفرقة. أفردت الجامعة قسماً في مكتبتها الأم لهذه الثروة وأسمتها (مكتبة التجاني الماحي) في الطابق الأرضي من مبانيها وافتتحتها في ٨ يناير ١٩٧٣. عدد الكتب التي استلمتها الجامعة من عائلة التجاني الماحي كانت (١٤٥٠٢) كتاباً في تاريخ العلم والفلسفة والدين والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والزراعة والجغرافيا وعلم النبات والحيوان والتربية والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنون التطبيقية والموسيقى

---

(١)صلاح الجرق (إعداد). دليل ببليوغرافي بالبحوث المجازة للحصول على بكالوريوس (الدبلوم سابقا) كلية الفنون الجميلة والتطبيقية (١٩٥٧-١٩٨١). ١٩٨٢: ٤٥ صفحة.

(2)Osman Hassan Ahmed (Compiler and Editor). Sudan and Sudanese: A bibliography of American and Canadian Dissertations and Theses on the Sudan. Sudan Publications Series No. 9. Embassy of the Democratic Republic of the Sudan. Washington, D.C. Sep. 1982: 153 pages

والآداب وأدب الرحلات والموسوعات والقواميس، و٢٦٣٤ مخطوطة نادرة.

نبهنا عدة مرات خلال العقود الأربعة الأخيرة لغفلة جامعة الخرطوم في رعاية هذه المكتبة، وعلى وجه الخصوص إهمالها المخطوطات التي جمعها التجاني الماحي واحدة تلو أخرى، وانتقاها بعين الخبير العالم واشتراها بحر ماله من بائعي الكتب في إسطنبول والقاهرة ودمشق وحلب ولبنان ولندن وباريس وأصفهان ومراكش. لا نعرف إن كان في العالم العربي أو الإسلامي بل في العالم أجمع من الأفراد من جمع مثل هذه الثروة ليهبها من ثم لمكتبة بلاده الوطنية. فأصبحت مكتبة جامعة الخرطوم بهذه الإضافة من أغنى مكتبات العالم بالمخطوطات الإسلامية والعربية النادرة. أنقضت حتى كتابة هذه السطور ثلاثة وأربعون سنة منذ أن استلمت الجامعة هذه المكتبة، وما زالت هذه الكتب والمخطوطات بعيدة عن متناول القراء والباحثين والمحققين.

أيضاً، لاحظنا منذ أكثر من عقدين غياب البيليوغرافيات الطبية البيولوجية العامة وما تعلق منها بالأنثروبولوجيا الطبية والطب الشعبي والفولكلور الطبي على وجه الخصوص رغم ثراء المكتبة السودانية بما كتب في هذه المجالات منذ مطلع القرن العشرين[١]. فخلاف القائمة الواردة في كتاب منصور على حسيب (Monograph on Biomedical Research in Sudan)[٢]، وما أورده أحمد بيومي في كتابه (The History of Sudan Health Services)[٣] والبيليوجرافيا التي ذيلت كتاب (Traditional Sudanese Medicine)[٤]، وكشاف مجلة

(1)Osman Hassan Ahmed (Compiler and Editor). A Bibliography of Documentary and Educational Films on the Sudan. . Embassy of the Democratic Republic of the Sudan. Washington, D.C

(٢)أحمد الصافي. الحكيم. نفسه. صفحة ٣٥٣.

(3)Mansour Ali Haseeb. *A Monograph on Biomedical Research in the Sudan*. Khartoum, Khartoum University Press, 1973: 121 pages

(4)Ahmad Bayoumi. *The History of Sudan Medical Service*. Nairobi: Kenya Literature Bureau, 1979.: 44-65

الحكيم[١]،لا توجد غير أشتات من المراجع الطبية التي وردت هنا وهناك ضمن البيليوغرافيات العامة. العمل جار في بناء (ببليوجرافيا الدراسات الطبية البيولوجية السودانية) التي أنتجها السودانيون والأجانب منذ أن بدأت الكتابة في هذا المجال. وقد بلغ مجمل ما جمع حتى ٢٠١٥ قرابة الستة آلاف مرجع[٢].

من السرد أعلاه يتضح أن الببليوغرافيات العامة والخاصة قد غطت جوانب عديدة من المعرفة السودانية لكن تضاءلت أعدادها في العقود الأخيرة وتوقف تحديثها كلياً، مثلما توقف اغتناء مكتبة جامعة الخرطوم، أعرق الجامعات السودانية، للكتب الجديدة والدوريات الأجنبية منذ أواسط ثمانينيات القرن المنصرم! أيضاً، يجدر بنا أن نذكر أن القوائم الببليوغرافية وإن وجدت لا تغني شيئاً إن لم تتوفر معها متون ما أشارت إليه. فالباحث المدقق أو القارئ الحصيف يحتاج لدراسة المتون والأصول الكاملة. وإذا كان الباحثون السودانيون وغير السودانيين يكدون ويلهثون في سبيل الحصول على عناوين المادة الفكرية التي يحتاجون إليها، فأنهم يعانون الأمرين في الحصول على متونها. فقد أصبح حصول الباحث على أصل ما يريد عملاً شاقاً يحتاج لدأب في البحث وصبر عليه ولموارد مالية قد لا تتوافر لكل الباحثين.

بعد هذه الإطالة التي لم تكن هدفنا لكننا رأينا أنها لازمة لبناء أطروحتنا لمشروع نرى أن الهاشمي يبنيه. فالمشروع الذي نتصوره لا ينظر لأعمال الهاشمي كترجمات بل كلبنات يسد بها (الثقب الأسود) في سماء سلسلة المعرفة التي وصفناها.

(1)Ahmad Al Safi. Traditional Sudanese Medicine: (General Bibliography). Cairo: 1999. Pages 470-712

(٢)أنوار أحمد الكردفاني وأماني حسن موسى، يعقوب إبراهيم أحمد (إعداد)، وأحمد الصافي (محرر). ببليوغرافيا مجلة الحكيم (١٩٥٧-١٩٦٧). مجلة الحكيم، كلية الطب جامعة الخرطوم، العدد ٢ مجلد ٧ ١٩٦٨ـ: ٢٤ صفحة.

دعني عزيزي القارئ أقول في البدء أني لا أحب وصف جهد الهاشمي وهو يترجم هذه الأعمال الشيقة بهذا الإتقان الحرفي الذي أشاد به وشهد عليه كل من اطلع عليها، بأنه جهد هاو. لا أحب كلمة هاو في الأساس، فهي في تقديري تقلل من شأن الشيء مهما عظم وتحمل في ثنايا معانيها ظلال الخفة وتزجية أوقات الفراغ لا أكثر. لم يكن التجاني الماحي هاو لجمع الكتب والمخطوطات النادرة بل كان محباً للمعرفة والغوص في مظانها، ولم يكن هاو للغة الهيروغليفية بل محباً لها ودارساً لرموزها لأنها في تقديره الطريق الأمثل لفك شفرة حضارات وادي النيل. وبالمثل، لم يكن بدر الدين الهاشمي هاو للترجمة بل باحثاً جاداً يستخدم مكانته المهنية الرفيعة ومقدراته العلمية المقدرة وثقافته الرفيعة واطلاعه الواسع وملكاته اللغوية العالية ليضع لبنات مشروعٍ الترجمةُ واحدة من ركائزه.

إذن، ما هي ملامح ومرتكزات هذا المشروع الذي نرى أن الهاشمي يقدمه في مسيرة موازية لمسيرته المهنية الناجحة؟ يقول الهاشمي أن ما يقوم به (مساهمة في جهد التنوير الثقافي)، ويضيف آخرون قائلين إنه يساهم أيضاً في نشر المعرفة التي تساعد في الحوار الواعي والمشاركة الفاعلة والفهم العميق للأحداث التي تمس حياة الناس خصوصاً في المسائل التي أدرجوها تحت بند المسكوت عنه. لكني أرى ملامح أخرى تعزز رؤية الهاشمي البعيدة.

أول سمات مشروع الهاشمي هو أنه بإصراره ومثابرته ما فتأ يذكر مؤسسات الدولة وعلى رأسها مكتبة السودان بجامعة الخرطوم، والمكتبة الوطنية السودانية[1] ودار الوثائق القومية السودانية[2] بدورها الذي لا تقوم به. وينبه الدولة لقصورها في رعاية المعرفة والإنتاج الفكري ومنتجيه. فقد قصرت جميع المؤسسات الثقافية والمكتبات، حكومية أو أهلية، في دورها، ولم تحدث مقتنياتها

(١)ببليوغرافيا العلوم الطبية البيولوجية. المؤسسة السودانية للتراث الطبي (مشروع مستمر).
(٢)وزارة العدل. قانون المكتبة الوطنية لسنة ١٩٩٩.

ولم تنشر أياً منها قائمة حديثة بما احتوته من أعمال سودانية. والشيء بالشيء يذكر، فلم تنشر وزارة الثقافة ولا التلفزيونات أو الإذاعات العديدة التي تبث ليل نهار ما يساعد على معرفة محتويات أرشيفها. وهذه أمثلة للقصور وليس حصراً له.

نبه مشروع الهاشمي إلى قصور القوائم الببليوغرافية الراهنة وإن تعددت، وإلى ضعفها في تغطية الإنتاج الفكري السوداني وإلى أهمية تقويمها، فكيف فعل ذلك؟ المجموعة التي بين يديك، عزيزي القارئ، والمجموعات الخمسة التي سبقتها من هذه السلسلة الممتدة، تحوي مقالات مترجمة نشرها كتاب غربيون باللغة الإنجليزية في أغوار القرن الماضي، وفي القرن الحالي أيضاً، تناولوا فيها مختلف شئون الحياة السودانية في علوم التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجي والطب وغيرها. راجعنا المائة مقال التي احتوتها المجموعات الستة فوجدنا أن أغلبها مما لم يرد ذكره في الببليوغرافيات السودانية المنشورة التي ذكرنا أهمها. سألنا أنفسنا أيضاً قائلين كم من هذه المقالات التي أتحفنا الهاشمي بترجمتها وكانت ذات صلة وثيقة وفائدة مؤكدة لنا في ما نقوم به من دراسات، لكنها غابت عنا حين احتجنا إليها لأنها لم تكن في دائرة معرفتنا ورادار بحثنا. بالتالي، لو لفت الهاشمي النظر لهذه المصادر ووفر متونها دون ترجمة لكفاه ذلك فضلاً. لكن، أن يترجمها أيضاً فهذا جهد لا يحمد له فقط بل يحفظ له فضل ريادته والمثابرة فيه. وهذه ركيزة أخرى من ركائز هذا المشروع.

أصاب النور حمد بقوله في مقدمته للمجموعة الخامسة «إن» المواد التي جرت كتابتها عن السودان بواسطة الغربيين، هي من الكثرة، بحيث يخطئها العد، إذ أنها كتبت عبر مدى زمني تجاوز القرنين من الزمان.» ولأنه قد يخطئها العد فقد أخطأها الرصد فأغفلتها أغلب القوائم الببليوغرافية، لكن لم يخطئها الهاشمي ولم تخطئها عينه الثاقبة. وما كان لهذه المقالات أن تتاح للقارئ لولا جهده وانتقاءه لها ووضعها في هذه التراجم الرصينة. ولا بد أن الهاشمي وهو يتخير مادته قد نظر

في الببليوغرافيات العالمية وقوائم الكتب المتاحة خارج السودان وهي عديدة. ولا شك لدي أيضاً بأنه كان سيكون أسعد الناس لو وضعت بين يديه ببليوجرافيا وطنية سودانية مكتملة وحديثة. فأغلب المقالات التي ترجمها كما أسلفنا مما لم يرد ذكره في الببليوغرافيات السودانية التي صدرت حتى الآن لقصورها الشديد. وما لم يرد ذكره كثير وما زالت الغفلة قائمة. فقد أبان الهاشمي بجهده هذا كبوة المؤسسة والأكاديمية الوطنية، ووضع يده على مواطن الضعف في أدائها دون تصريح.

أكد الجرد الذي قمنا به في هذا المقال غياب الببليوجرافيا الوطنية السودانية المكتملة. فلا مكتبة جامعة الخرطوم واصلت جهدها في تحديث قوائمها، ولا هي ولا دار الوثائق القومية ولا المكتبة الوطنية نشرت أي قوائم بما لديها من كتب ووثائق بطريقة راتبة أو غير راتبة. ولتلافي هذا القصور المشين، طالب المهتمون بقيام هيئة أو مؤسسة قومية يناط بها حصر الببليوغرافيات الراهنة ومراجعتها وإكمالها ووضع خطة للتعاون والتنسيق وفق خطط مرحلية مدروسة وواضحة المعالم بين المكتبات والمؤسسات العاملة في مجال الإعداد الببليوغرافي بحيث يكون التنسيق تاماً بينها لتكون كل مؤسسة أو مكتبة أو هيئة على علم بما يجري في المكتبات والمؤسسات الأخرى[١].

جدير بالذكر أيضاً أن نشير هنا إلى أن أهم إصدارتين نشرتا في العقود المنصرمة (الفهرس المصنف لمجموعة السودان، ودليل مجلة السودان في رسائل ومدونات) طبعتا بالآلة الكاتبة ونشرتا في طبعات زيروكس، ولم يقلل ذلك من قيمتهما شيئاً بل على العكس لقيا رواجاً منقطع النظير في داخل السودان وخارجه. إذن، قلة الإمكانات التقنية والمادية لم تعق جهود نشر قوائم مفيدة وبالتالي قصور ذات اليد ليس سبباً مقنعاً لتقاعس مؤسسات الدولة المعنية بشئون الفكر في أداء

(١)وزارة العدل. قانون دار الوثائق القومية.

مهامها. قيام الببليوجرافيا الوطنية السودانية واحد من المهام الوطنية الكبرى التي تكمل سلسلة المعرفة. يلفت مشروع الهاشمي النظر إلى هذه المهمة ويضعها في بؤرة اهتمام المفكرين.

نبه النور حمد أيضاً في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة إلى القصور الواضح من جانب الأكاديمية السودانية، ومن جانب الحكومات السودانية المتعاقبة في ترجمة الآثار التي كتبها الأجانب عن السودان؛ سواء كانوا إداريين سابقين في الحقبة الاستعمارية، أو مستكشفين أو رحالة، أو أكاديميين دارسين للقطر السوداني. وتمنى أن تخلق الحكومة نسخة معربة موازية من أرشيف السودان بمكتبة جامعة درم الذي أشرنا إليه أعلاه. واقترح خالد محمد فرح في مقدمته للجزء الثاني قيام هيئة أو لجنة علمية لترجمة مواد مجلة «السودان في رسائل ومدونات» إلى اللغة العربية. واقترح منصور خالد في مقدمته للجزء الرابع ترجمة أعمال بعينها منها (الزراعة في السودان) لتوتهل و(المباني المرجانية في سواكن) لقرينلو، و(نباتات السودان) لأندروز. أما أنا فأرجو أن تتجه جهود الترجمة لتشمل مختارات من تقارير معامل ولكم لأمراض المناطق الحارة (Wellcome Research Laboratories Reports) للسنوات ١٩٠٤، ١٩٠٦، ١٩٠٨، ١٩١١[1]، التي وصفها بروفيسور باترك دارسي مؤسسة كلية الصيدلة جامعة الخرطوم (١٩٦٢-١٩٦٧) في كتابه (Laboratory on the Nile) بقوله إن هذه التقارير ذاكرة حية للخرطوم في أوائل القرن العشرين، وأنها متفردة في تاريخ أبحاث طب المناطق الحارة وسجل دقيق لما قام به أندرو بلفور وزملاؤه في ظروف بالغة الشدة والخطورة[2]. بمطالعتي لهذه التقارير ومداومة النظر في محتوياتها لا شكل لدي بأنها تحوي كنوزاً من المعرفة التي يجب أن تترجم وتتاح

(١)قاسم عثمان نور. الببليوغرافيا السودانية في قرن (١٨٨٥-١٩٨٥). نفسه. صفحات ٤٢ و٤٣.

(2)Balfour, Sir Andrew (Editor). *Wellcome Research Laboratories Reports*; 1906, 1908, 1911, 1913.

لقراء العربية لفائدة كل العاملين في حقول العلوم التطبيقية خصوصاً الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة والأنثروبولوجيا الاجتماعية والطبية، وكل المهتمين بالبيئة والحيوانات والحشرات الطبية والنباتات الطبية والعطرية والسامة.

برهن الهاشمي بما أصدره من أعمال أن مشروع الترجمة ممكن ومهم وكبير لكن يحتاج لدعم الدولة وتبنيها. ليس ذلك فحسب، بل يمكنه شخصياً أن يدير دفته باقتدار إذا أتيحت له الفرصة لذلك. فبهذه الترجمات أعطى الهاشمي مثالاً عملياً بأن هناك مشاريع هي من صميم مهام الدولة بحكم طبيعتها وحجمها، مشاريع يمكن أن يبادر بها الأفراد ويتفوقوا فيها، بل قد تصبح مهام كبيرة ومفخرة لهم ولغيرهم. لكن لتكون هذه المشاريع ذات نفع عام وحاوية وشاملة ومستمرة، تظل أكبر من جهود الأفراد مهما أوتوا من مقدرات وموارد.

اتضح أيضاً أن تأخر إقامة المكتبة الوطنية في السودان تبعته عدة سلبيات أهمها غياب المستودع الذي يحتضن المادة الفكرية السودانية بكل أشكالها، وغياب المكان الذي يؤمه الطالب وهو على ثقة بأنه يحج لكعبة العلم والمعرفة السودانية. يتوقع أن تكون المكتبة الوطنية أم المكتبات في البلاد، تجمع التراث الفكري الوطني وتحفظه حفظاً مستديماً، وتحدثه بانتظام وتتيحه بطريقة منظمة ومريحة للقراء، وتصدر الببليوجرافيا الوطنية السودانية والفهارس الموحدة، وتوثق الإنتاج الفكري وتربطه بالإنتاج العالمي الذي يتناول الوطن.

عزيزي القارئ، هذه المقالات التي ترجمها ونشرها بدر الدين حامد الهاشمي صدرت من عالم أبلى بلاء حسناً في تخصصه العام في العلوم البيطرية والدقيق في علوم الأدوية والسموم، وكانت سيرته ممتازة ومسيرته حافلة بالإنجاز العلمي الرصين. فقد نشر في الفترة من ١٩٨٠ إلى ٢٠١٤ ما يربو على المائتين وخمسين ورقة علمية أصيلة في مجاله في دوريات علمية محكمة (أي أكد قيمتها العالية محكمون محايدون)، وأكثر من ٢٦ استعراضاً لمواضيع علمية مختلفة، وعدة رسائل علمية

وجهها لبعض المجلات الأكاديمية تعقيباً على بعض المسائل العلمية، وشارك في أكثر من ٤٦ مؤتمراً علمياً في القارات الخمسة ساهم فيها بما لا يقل عن ٣٠ مستخلصاً علمياً. وشارك في تحكيم حوالي سبعين مسودة مقال علمي طلب رأيه فيها بغرض نشرها، وترجم بمفرده أو بالاشتراك مع آخرين من الإنجليزية إلى العربية ثلاثة كتب دراسية في الطب البيطري، وروايتين، (حارة المغنى) و(المئذنة) للروائية السودانية البريطانية ليلى أبو العلا، وما لا يقل عن المائة مقال في سلسلة (السودان بعيون غربية) التي بين يديك، عزيزي القارئ، المجموعة السادسة منها. كما نشر عدداً من المقالات المختلفة في الصحف اليومية والأسافير. ولأن البحث العلمي الحديث أصبح متعدد التخصصات وعابراً أحياناً للدول والقارات، فقد أستقطب الهاشمي الدعم اللازم لمشاريعه البحثية العلمية بتكلفة أربت على المليون دولار أدارها بنجاح وشارك فيها، دون شك، جيش جرار من الباحثين والعاملين بمختلف درجاتهم وساهمت فيها معه عدة مراكز بحثية حول العالم.

حطم الهاشمي بترجماته الحدود التي تفصل بين العلوم الإنسانية والتطبيقية والبحتة، وبنى جسوراً بينها وشاد بينه وبين أهلها وسدنتها روابط وثيقة جعلت منصور خالد يظن أنه مترجم بالمهنة قبل أن يعرفه. قام الهاشمي بعمله الذي تخصص فيه على أحسن وجه، وفاض عطاؤه خارج نطاق تخصصه فكانت مشاركاته جيدة واهتماماته مفيدة. العقول الجادة جادة في كل شيء حتى في ممارسة هواياتها أو في متابعة ما تحب من أعمال. ارتفع الهاشمي باهتماماته لمستويات عالية من الإتقان وتفرد فيها. وحين ننظر لمسيرته المهنية وسيرته الأكاديمية ونراجع مساهماته العلمية وننظر في ما ترجم من أعمال، نرى أنه استحق أن يكون من ثلة العظماء دون شك، فمثله يحتذى ويقتدى به ويستفاد منه، وتدعم جهوده[1].

(1)D'Arcy, Patrick FD. Laboratory on the Nile: A History of the Wellcome Tropical Research Laboratories. New York: Pharmaceutical Products Press; 1999: Page 243

تقديم

الأستاذ عادل الباز

يتصل هذا الكتاب بنسب عميق بالأجزاء الخمس التي صدرت من قبله بذات العنوان (السودان بعيون غربية) وهذه السلسلة من الترجمات المتصلة للبروفيسور بدر الدين الهاشمي اضاءات أحداث وتاريخ وقع في الظل دائما، إذ لم يلتفت المؤرخون المعتمدون إلا لما وقع بين أيديهم من مصادر معلومة وثقت للأحداث التاريخية، وظلوا يتناولون تلك الوقائع وقع الحافر للحافر فكفيك مؤرخ واحد للتعرف على كل ما كتب في شأن أحداث معنية.

ولفتت هذه الترجمات المتنوعة للبروفيسور بدر الدين الهاشمي النظر لمصدر ثر للتاريخ والمعارف وهو المدونات الشخصية المبثوثة في اضابير الكتب والمجلات العلمية والثقافية الأجنبية التي دونها مسئولون سابقون وشخصيات على صلة بالأحداث وشهود عصر على حكايا وتواريخ وقصص. وأضافت هذه الترجمات إلى المكتبة والذاكرة السودانية تاريخ مهمل، وأعادت ترتيب وقائع مبعثرة كان يتعذر فهمها إلا بالنظر لمصادر أخرى غير رسمية اعتمدها البروفيسور بدر الدين الهاشمي. وتكتسب أهمية الأحداث ورواياتها هنا من أنها بنت عصرها، كتب تاريخها حيا لامستندا على ذاكرة ولا مراجع تفسدها دائما العنعنات الممتدة والرواة المجهولين.

إن صدقية ما ترجمه أستاذنا الهاشمي تكمن في أن رواتها أنفسهم كانوا جزءا من الأحداث، وأن أغلبهم لم يكونوا مراقبين فحسب، ولذا كتبوا إحساسهم باللحظة ذاتها وأرخو لدورهم وآخرين فيها دون أن يهمل المترجم فرصة مقارنة الروايات ببعضها بإبراز أكثر من رواية لتتضح صورة وزمان ومكان الحدث فيطمئن القارئ لموثوقية سيل المعلومات المتدفق من عدة مصادر. ويمكن أن نتبن ذلك بوضوح في تتبع الكاتب لسيرة مدينة الخرطوم على سبيل المثال.

فقد تابع المترجم عبر روايات وترجمات عديدة قصة تأسيس مدينة الخرطوم على مدى أكثر من قرن. وكان أكثر الذين وصفوا الخرطوم بدقة هم مجموعة القساوسة الذين وصلوا وسط إفريقيا وكتبوا عن الجغرافيا والاثنيات في تلك المنطقة وصدرت كتاباتهم في كتاب (فتح حوض النيل). هو الكتاب الذي ترجم منه الكاتب مجموعة من المقالات التي أرخت لمدينة الخرطوم. كل ذلك بالإضافة لتدوين متنوع خطته أقلام مجموعة من الرحالة الذين زاروا الخرطوم في القرن الثامن عشر حيث ولدت الخرطوم مدينة صغير وجميلة ونامية حتى اعتمدها محمد على باشا عاصمة رسمية لدولته.

وصف القساوسة ومجموعة الرحالة الخرطوم جغرافيا كما هي الآن باستثناء التطورات العمرانية التي جرت فيها خلال قرن ونصف إلى أن بلغت هيئتها الحالية. والمتغير في الخرطوم هم المجموعات السكانية فيها، إذ شهدت المدينة تغيرا أنثروبولوجيا مستمرا بحسب الرواة في ذلك الكتاب.يقول القس والمبشر الإيطالي جيوفانى بيلترم ١٨٢٤ - ١٩٠٦ (تضم الخرطوم أنواعا مختلفة من البشر من قبائل وطبقات وأصول عرقية مختلفة قد يصل على الأقل سبعة آلاف). وقسم جوفيانى المجموعات المتساكنة في الخرطوم إلى سبع مجموعات منها الأوربيون، ويعمل غالبهم بالتجارة الاتراك وعددهم قليل ويعملون كموظفين، ثم التجار العرب، ثم الأقباط، ثم الفقهاء والشيوخ الذين يعملون في تعليم الصبية مبادئ

الدين الإسلامي. وكانت المجموعة السادسة هم مجموعة العمال الفلبين. أما المجموعة السابعة والأخيرة فهي مجموعة متعددة الأعراق.

قدم المترجم صورة دقيقة لطرائق كتابة المبشرين للتاريخ السودانيوالتي حفلت بكثير من التشوية والانحياز عند تناولهم لأي شأن إسلامي وذلك عبر أكثر من نص في الكتاب لكن تم إبراز ذلك بصورة أكثر وضوحا حين تناول المترجم مقال الكاتب سكوباس س. يوقوو (تطبيق برنامج اسلمة وتعريب جنوب السودان في عهد الفريق عبود).تتبع الكاتب المحاولات لنشر الدين الإسلامي في جنوب السودان منذ القرن الثالث عشر بعيد دخول العرب الى السودان وتزاوجهم مع النوبة ثم زحف الإسلام جنوبا. وغطى الكاتب مختلف المراحل بإيجاز من الحكم الثنائي البريطاني المصري الذي أقر سياسات فصل الجنوب عن الشمال لوقف تمدد الإسلام ثم تعرض لسياسات حكومات ما بعد الاستقلال، وتوقف طويلا في دارسة حقبة الفريق عبود معتبرا سياسيات عبود هي التي سمحت بتدريس نشر اللغة العربية إلى جانب وقف البعثات التبشيرية بالجنوب نهجا مخالفا للتسامح الذي كان نظام عبود يحاول تسويق نفسه في إطاره للعالم الخارجي.ففي الوقت الذى أوضح فيه الكاتب أن السباق بين الجمعيات التبشيرية وحكومة عبود ما كان من أجل إسلامه أو تنصير شعب الجنوب ،ركز على بث الممارسات والسياسات التي رآها سالبة لحكومة عبود، بينما لم يوضح الأساليب التبشيرية التي اتخذتها لتلك الجمعيات في سبيل تحول الجنوب إلى جغرافية مسيحية بالكامل من خلال الدعم الغربي والكنسي الذى تمتع به المبشرون.

قصتان قدمها المترجم بين دفتي هذا الجزء السادس كانتا في غاية المتعة، الأولى تتعلق بقصة النمساوي جودو ليفي حكى فيه زيارته إلى معسكر الأمير عثمان دقنة، وتتعلق القصة الأخرى بـ «الإفريقية الجميلة» أو الزرافة السودانية

التي هاجرت إلى فرنسا باكرا قبل أن يصل البريطانيون إلى السودان بسبعين عاما.

قصة جود ليفى في معسكر دقنة لاتخلو من خيال شاطح بحسب المترجم غير أنها ممتعة حكى فيها قصة ذهابه بقدميه لمعسكر الأمير دقنه وإعلان إسلامه تقية، واصفا كثيرا من الممارسات والحكايات التي شاهدها وسمعها داخل المعسكر الذي فر منه هاربا بعد ستة عشر يوما من مجيئه.

القصة الأخرى طريفة تتعلق بزرافة تتبع الكاتبة سيرتها في كتب الرواة منذ أن بدأت الفكرة في رأس محمد على باشا بإهداء زرافة (سودانية) لملك فرنسا شارل العاشر وكانت هي الزرافة الأولى (مع اثنتين أخيرتين أهداهما لملكين آخرين في أوربا) في عام ١٨٢٧م. وتابع المؤلف تلك الزرافة عبر ترجمات عديدة إلى أن وصلت إلى هناك وعاشت ستة عشر عاما، وكانت مثار إعجاب الفرنسيين كما أثارت إعجاب المؤرخين والذي تابعوا مسيرتها من مجاهيل القارة الأفريقية إلى حديقة لارومشيل الشهيرة في فرنسا. وكانت تلك الزرافة هي أول زرافة تشاهد في أوربا في عام ١٤٨٦.

سيجد في القارئ بهذا الكتاب المعلومات التاريخية الجديدة عبر قصص وحكايات للمؤرخين، ولكن الأهم هو أنه سيحصل متعة القراءة عبر جاذبية الأسلوب التاريخي السلس مستندا لروايات وشهود،إلى جانب كشفه لتاريخ أسقطه المؤرخون من دفاترهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

يسعدني أن أقدم للقارئ هذا الجزء السادس من كتابي «السودان بعيون غربية»، وهو كسابقيه ترجمة وتلخيص وعرض لمجموعة من الكتب أو المقالات والأوراق التي نشرها كتاب غربيون باللغة الإنجليزية في القرن الماضي، وأيضًا في القرن الحالي، تناولوا فيها مختلف أمور الحياة السودانية في علوم التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا وغيرها.

وكما ذكرت في مقدمة الكتاب الأول من هذه السلسلة، فقد كان لتعلقي وشغفي الشديدين بتاريخ السودان (خاصة في عهود التركية السابقة والمهدية والحكم الثنائي) أكبر الاثر في انتقائي لهذه المقالات. فكثير من تلك الموضوعات تعد «حقول الغام» يدور من حولها كثيرون ويتحاشونها؛ أعني الذين يؤثرون أن يدعوا «الكلاب النائمة على حالها»، كما يجرى المثل الغربي الشهير، بمظنة أن «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» بفهم مغلوط للحديث النبوي الضعيف في كثير من المصادر. وذلك لأسباب عديدة أهما عندي الخوف من مواجهة الحقائق، وربما إنكارها، أملا (كاذبا) في أن تطويها الأزمان ويغمرها النسيان. وثانيها أن ذكر حقائق ماضينا وحادثاته بما اعتورها من تجاوزات وفظائع ومخازٍ، لا سيما بمعايير العصور الحديثة، يبقى عند كثير منا في عداد المحظورات التي ربما أثارت حفائظ قبائل وجماعات وزعماء وأفرادا يُستهاب غضبهم وتُسترهب

ثورتهم. والأمر عندي على غير ذلك. فأول وسائل «رتق النسيج الاجتماعي» كما جرى المصطلح المعاصر، في رأيي المتواضع هو الاعتراف أولا بجرائر الماضي، مهما بلغت سوءاتها وطفحت مراراتها، دون الحاجة الى محاكمة أو لوم أحفاد من قاموا بها في أزمان فائتة، فذلك مخالفٌ لمقتضى العدل والنصفة. لا بد إذن، من التخلي عن نزعة الدفاع عن تاريخ زعمائنا وكبرائنا، ممن لم نر فيهم الا أبطالاً عظامًا، لم تشب سيرتهم شائبة، ولم تكن أفعالهم إلا خدمة خالصة للدين والوطن، فلا نلتمس الأعذار لما ارتكبوه من خروقاتٍ وانتهاكات ومخازٍ ومجازر. وقد يقول قائلٌ متنطع من هؤلاء قولة حق أريد بها باطل بأننا يجب أن نحاكم (إن جازت الكلمة هنا) قادتنا السياسيين والطائفيين وغيرهم بحسب معايير زمانهم، وليس بمعايير اليوم. وما دروا بأن القتل والتعذيب والطغيان كانت وما تزال محرمةً ومستهجنةً عند البشر منذ قديم الزمان

وعلى كل، فالأجيال الحالية ليست مسئولةً عن جرائر من سبقها، غير أن عليهم، بالتأكيد، تقع مسئولية فتح ملفات الماضي وتقويمه، لا بغرض التراشق وتبادل الاتهامات، بل بنية استخلاص عبراته وتجاوز أوضاره. فعسى أن يهدينا ذلك الى استشراف مستقبلٍ طليق، خالٍ من عقابيل الماضي، متحرر من مراراته.

ويظل هدفي من نشر هذا الجزء – كغيره من الأجزاء السابقة، وربما اللاحقة إن شاء الله– هو الإسهام بقدر المستطاع في جهد التنوير الثقافي، وتسليط الأضواء الكاشفة على جوانب من تاريخ بلادنا، قد لا يقع عليها الكثيرون، لا سيما أجيالنا الطالعة من الشباب. وذلك بإزاء، وفي مواجهة المقررات الدراسية المتحفظة، والمتسترة، التي تتمركز حول مقولة أن جُلّ ما سطره الغربيون، إن لم يكن كله، عن تاريخنا، مزوّرٌ مكذوب. وربما حالت بين هؤلاء وبين هذه الجوانب التي سطرها الغربيون حواجز اللغة، أو عسر الحصول على المراجع، أو غير ذلك من العقبات عن الوصول إلى بعض ما وقعتُ عليه مصادفةً عند مطالعتي لبعض المراجع، أو

سعيت له سعيًا ونقبت عنه تنقيبًا في بطون الكتب والدوريات القديمة، أو زودني به بعض الأصدقاء ممن شاركوني ذات الهم. وأدين بشكرٍ وعرفانٍ لا حدود له لكل هؤلاء، إلا أنني أتحمل وحدي وزر أي خطأ أو تحريف غير مقصود قد يجد طريقه الى هذه الترجمات.

وقد يجد البعض في بعض الآراء والمعلومات الواردة في كثير من هذه المقالات الغربية المترجمة كثيرا مما قد لا يروقهم ولا يوافق ما رسخ في أذهانهم مما ظنوه حقائق لا يأتيها الباطل بين يديها أو خلفها، وما دروا أن للعملة وجهان، وأن حوادث التاريخ قلما تُروى من طريق واحد، أو تفسر بتفسير وحيد ليس له من نظير. ولكن الحقيقة تبقى وهي أن المؤرخ المحايد المستقل (تمامًا) - كما وصفته في مقال منشور - هو المستحيل الرابع، بعد الغول والعنقاء والخل الوفي!

وأعيد هنا نصيحتي المتواضعة للقراء الأفاضل أن يقرأوا هذه المواد «بعقلٍ منفتحٍ مستبصرٍ وعاطفة إِصيلةٍ صادقة، ترنو الى معرفة ما سطره هؤلاء الغربيون عنا، دون عظيم انبهار أو شديد بغض.

وبعد، فهذا كتابنا بين يديك، فإن أصبنا فمن عند الله، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، والله نسأل أن يوفقنا إلى العلم النافع، والعمل الصالح، والإخلاص له تبارك وتعالى.

مقتطفات من كتاب «المجتمعات المسلمة في إفريقيا»

Muslim Societies in Africa

بروفيسور رومان لوملير Roman Loimeir

مقدمة: هذه شذرات مما ورد عن السودان في كتاب «المجتمعات المسلمة في أفريقيا» لمؤلفه الألماني رومان لوملير، البروفيسور بمعهد الأنثروبولوجي الاجتماعي والمقتنيات الأثرية في جامعة قوتنقن الألمانية. صدر الكتاب عام ٢٠١٣م عن دار نشر جامعة إنديانا (بلومنقتون وإنديانيبولس).

درس المؤلف علم الأنثروبولوجي والعلوم الإسلامية بألمانيا وبمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن، ثم عمل بالتدريس في مختلف المعاهد والجامعات بألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة. وللرجل عدد من الكتب والمقالات باللغتين الألمانية والإنجليزية عن المهدي، وعن مختلف الموضوعات الأنثروبولوجي والدينية (الإسلامية) في الهند وزنجبار ونيجريا والسنغال.

ويتناول الكاتب في الفصل السابع من كتابه (والمعنون: «الاستعمار المصري ومهدي السودان») بعض جوانب تاريخ الحكم المصري للسودان والمهدي والخليفة عبد الله. والسطور التالية هي ترجمة لبعض ما جاء في ذلك الفصل عن احتلال مصر لدولة سنار (الفونج). ولن يخفى على القارئ لآراء المؤلف هنا تبنيه المطلق لوجهة النظر المصرية – التركية لذلك الاحتلال. ويمكن قراءة كتابي أحمد سيد أحمد «تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري»، و«أكذوبة الاستعمار

المصري للسودان: رؤية تاريخية» لعبد العظيم رمضان للاطلاع على «الوجه الآخر من العملة».

المترجم

**** **** ****

غدت أرض النيلين عقب سقوط سلطنة الفونج في بدايات القرن التاسع عشر واحدة من المناطق القليلة في القارة الإفريقية التى لم يستعمرها الأوربيون، بل استعمرتها امبراطورية إسلامية عربية هى مصر. وكما كان يحدث منذ عهود الفراعنة، كانت مصر تسعى لحماية تخومها الجنوبية، والسيطرة على وادي النيل، ووضع يديها على موارد السودان الطبيعية. وكانت سياسة السلطة في مصر تسعى لتنفيذ خطة لتحديث مصر وإقليمها الجنوبى: السودان. ورغم أن الحكومة المصرية نجحت في غزوها للسودان واستعماره، إلا أن محاولتها لتحديث السودان بقيت محض محاولات سطحية ولم تؤد إلا لخلق فوضى وعدم استقرار بالبلاد. فقد قامت الإدارة البيروقراطية المصرية الاستعمارية (والتي كان يقوم عليها موظفون أقباط) بقلب البنيات الاجتماعية (social structures) رأسا على عقب، وهمشت السلطات القائمة، وشجعت، بل دللت، الحركات الدينية والاجتماعية الجديدة (خاصة الطرق الصوفية وعلماء الإسلام).

وهدد تمدد الإدارة المصرية في داخل أحراش جنوب وغرب السودان شبكات التجارة المستقرة، خاصة عندما بدأت مصر في محاربة تجارة الرقيق في ستينات القرن التاسع عشر. ونتيجة لذلك تزايدت حدة المعارضة للحكم المصري – التركى، وظهرت حركة دينية ألفية (millenarian) قادها عالم الدين محمد أحمد، والذي أعلن نفسه المهدي (المنتظر)، والمخلص / المنقذ من التسلط المصري. واضطرت مصر في عام ١٨٨٥م لإخلاء السودان، ثم استولت المهدية على زمام السلطة، ربما كأول تعبير عن أول «وطنية سودانية» حديثة. غير أنه ثبت أن الحكم

المهدوي للسودان كان حكما كارثيا على البلاد وشعبها، ليس فقط بسبب العجز عن التغلب على الخلافات العرقية والدينية بالبلاد، ولكن أيضا بسبب الفشل الذريع في السياسات الاقتصادية والاجتماعية. ونتيجة لذلك، عانى السودان من كارثة إنسانية مدمرة في تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى أن قام الجيش المصري، تحت قيادة بريطانية، بإعادة احتلاله في ١٨٩٨م. وما زال التراث الذي خلفه الاستعمار المصري والمهدية يغذيان ويقودان السياسة في السودان حتى يومنا هذا.

احتلال مصر لدولة سنار (الفونج)

انهارت سريعا دولة المماليك ونظامها المستقر الحاكم، والذي كان قائما في مصر منذ عام ١٢٥٢م، عقب هزيمة نابليون لجيشها في عام ١٧٩٨م. ورغم مغادرة الفرنسيين سريعا لمصر، إلا أن المماليك عجزوا عن استرداد حكم مصر، إلى أن جاء شخص أجنبي / غريب هو (محمد علي) كان قائدا لحامية ألبانية صغيرة بالقاهرة، واستولى على السلطة بعون من بعض النبلاء وعلماء الدين الإسلامي. ونجح محمد علي في إقصاء منافسيه ممن عاونوه لتسنم زمام السلطة، وبقي وحده الحاكم القوي لمصر، واعترفت به الخلافة العثمانية حاكما لمصر في عام ١٨٠٥م. ومنذ ذلك التاريخ شرعت مصر في انتهاج سياسة تحديث حولت مصر إلى لاعب رئيس في مجالي الاقتصاد والقوة العسكرية في شرق البحر الأبيض المتوسط، وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. وتوسعت إمبراطوريتها لتضم أجزاءً من صعيد مصر حتى ساحل شرق أفريقيا، وعبر شبه الجزيرة العربية. غير أن الاستعمار المصري أصابه الفشل في نهاية المطاف بسبب التدخلات الأوربية، والأعباء المالية والاقتصادية التي خلفها إنشاء مشاريع ضخمة وبالغة الطموح مثل قناة السويس. ورغم كل ذلك كانت مصر بين عامي ١٨٢٠م وبدايات ثمانينيات القرن التاسع عشر هي من بيدها تحديد مصير السودان.

وأقام محمد علي أسس سعيه لتحديث إمبراطورتيه على سياسات اصلاحية قضت بإبعاد رجال الطبقة الصفوية (القديمة) في المجتمع من كل مواقع السلطة والنفوذ (وشمل ذلك رجال الدين)، وتأميم أراضي الإقطاعيين المماليك والأوقاف، وإعادة توزيع الأرضي الزراعية على الفلاحين، وإجبارهم على زراعة محاصيل تحددها الدولة، خاصة القطن، والذي صار عماد الاقتصاد المصري ومورد تصديره الأول من منتجات الغزل والنسيج. وقام محمد علي أيضا بإصلاحات عديدة في المجالات التعليمية حيث بنى مدارس حكومية (كتاتيب) وأخرى متخصصة في مختلف أفرع العلوم، وأنشأ جيشا جديدا يتدرب أفراده على نمط فرنسي وبأسلحة فرنسية.

وعندما قويت شوكته في مصر، طلبت منه الخلافة العثمانية أن يسيطر على الحجاز، ونفذ ما طلب منه في عام ١٨١٢م، حيث نجح في إزاحة الوهابيين من السلطة في مكة والمدينة. وكانت القوات المصرية تسيطر أيضا، حتى عام ١٨١٩م، على أجزاء واسعة من وسط وشرق شبه الجزيرة العربية، ثم أفلحت أخيرا في هزيمة الوهابيين في المناطق الوسطى. وقام محمد علي بالسيطرة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر تمهيدا لغزو السودان. وشملت أسباب رغبة محمد علي العديدة في احتلال مناطق وادي النيل الرغبة في التوسع، والسيطرة على السواحل الغربية للبحر الأحمر، والاستيلاء على مناجم الذهب والمعادن والعاج والمنتجات الأخرى الوافرة في السودان. إضافة للسيطرة على تجارة الرقيق، وتقوية الجيش المصري بالجنود السودانيين، والتخلص من بقايا المماليك الذين فروا جنوبا لمملكة سنار، والسيطرة على منابع النيل في إثيوبيا وأواسط أفريقيا. وبذا يمكن النظر للسيطرة المصرية على وادي النيل في بدايات القرن التاسع عشر بأنها تندرج ضمن المجهودات الأخرى التي قامت بها مصر للسيطرة الكاملة على كافة طرق التجارة عبر الصحراء ومدن موانئها.

وقبل البدء في التحضير لغزوه السودان، بعث محمد علي لسلطنة الفونج بسنار ببعثة دبلوماسية في عام ١٨١٢م، وأتبعها بين عامي ١٨١٦ – ١٨١٨م ببعثتين علميتين للاستكشاف الجيولوجي. ولا يخفى أن الغرض من كل ذلك كان هو زيادة معرفته بالأحوال في تلك السلطنة.

وبدأ في أكتوبر ١٨٢٠م الغزو المصري الحربي للسودان بجيش صغير إلا أنه محكم التدريب قوامه ٦٠٠٠ جندي، ومعه ١٢ من مدافع الميدان (fieldguns)، وذلك بقيادة إسماعيل محمد علي. واستولى الجيش المصري على معقلى الجعليين في بربر وشندي في مارس ١٨٢١م، وعلى سنار، عاصمة سلطنة الفونج، في ١١ يونيو ١٨٢١م. وأرسل آخر سلاطين الفونج بادي السادس إلى القاهرة منفيا. وأحكم الجيش الغازي سيطرته في ذات العام على سائر أجزاء الجزيرة، أخصب مناطق سلطنة الفونج.

ولأن مصر كانت تتبع رسميا (واسميا) للخلافة العثمانية في تركيا، فقد أطلق على تلك المرحلة الاستعمارية «التركية». وبالفعل كان كثير من المسئولين في تلك الفترة قد أتوا من تركيا. وكان بعضهم من الشركسو الأكراد والأغاريق والألبان والبربر والبريطانيين، ولم يكن بين من حكم السودان من المصريين غير ثلاثة من الحكمداريين. وغدت ودمدني أول عاصمة لحكم التركية، إلا أنه تم تحويل العاصمة لمدينة جديدة تقع عند ملتقى النيلين، هي مدينة الخرطوم.

وفي علم ١٨٢١م استولى جيش مصري آخر على كردفان، وهزم جيشا قدم من دارفور، دون أن يدخل ذلك الإقليم فعلا. وقسم الحكم المصري الجديد السودان إلى أربعة أقاليم هي دنقلا وبربر وسنار وكردفان. وجلبوا للبلاد من الأزهر أربعة شيوخ لإنشاء محاكم شرعية وإدارة للأوقاف الإسلامية. وتركت الإدارة الحكومية الجديدة في دنقلا وبربر أمر جمع الضرائب والعوائد على عاتق الزعماء المحليين، بينما تولت هي جمع الضرائب المباشرة في سنار. وأحدث ذلك

ثورة عامة في أوساط سكان سنار في ١٨٢٢م. وسرعان ما انتقلت تلك الثورة شمالا لمناطق الجعليين. غير أن السلطة الاستعمارية الحاكمة نجحت بفضل قوتها العسكرية الضاربة في إخماد تلك الثورة. وخلف ذلك دمارا كبيرا في مناطق الجزيرة وبربر.

وبعد تعيين علي خورشيد بك حكمدارا جديدا للسودان في عام ١٨٢٦م بدأ في إعادة بناء السودان من جديد، وأعاد تشكيل مؤسساته القضائية (الشرعية) وإصلاح نظامه الضريبي، وأسس مدينة الخرطوم عاصمة لحكمه، وأقام بها مدارس حديثة ووسائل نقل نهري. ووكل الحكمدار أمر تنظيم الضرائبللأقباط، وللذين كانوا يقودون القبائل المتحالفة، مثل الشايقية، والذين كانوا معفيين من الضرائب. وتم عزل زعماء القبائل من غير المتعاونين وإحلال آخرين أكثر توافقا (accommodating) ، أو من المنشقين على زعمائهم القبليين مكانهم. وأدت تلك السياسة إلى مزيد من التشظي القبلي.

أقام علي خورشيد بك أيضا جيشا سودانيا جديدا، وأنشأ أول مصنع بالسودان لإنتاج الصابون والسكر، ومصنعا للتقطير. وأعاد تنظيم التجارة ووسعها لتشمل ريش النعام والعاج وأثواب «الزراق» والصمغ العربي والرقيق وقصب السكر والماشية. وشهدت تجارة الرقيق على نحو خاص توسعا كبيرا من عام ١٨٢٦م، إذ كان ذلك العام هو أول عام شرعت الحكومة فيه بالقيام بحملات رسمية في أحراش الجنوب لاصطياد الرقيق. ومع مرور السنوات صارت تلك الحملات تتوغل أكثر فأكثر في مستنقعات أعالي النيل، حتى بلغوا غندوكرو قرب الحدود السودانية – اليوغندية عام ١٨٤١م.

وكانت تجارة الرقيق تدار في الأساس بالجلابة (تجار من شمال السودان)، والذين ظلوا – وهم تحت الحماية المصرية الحكومية- يتوسعون جنوبا، خاصة بعد أن تخلت الحكومة عن احتكار تلك التجارة في عام ١٨٤٠م. وكان هنالك

مصدر آخر لتجارة الرقيق، ألا وهي منطقة جبال النوبة. غير أن سكان تلك المناطق قاوموا تلك التجارة بضراوة، وحاربوا من أجل نيل استقلالهم من السيطرة المصرية، وصمدوا في مقاومتهم حتى عام ١٨٨٤م.

وقامت الحكم المصرية بقيادة الحكمدار أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٨-١٨٤٣م) بالتنقيب عن المعادن، ودعت التجار والشركات الأوربية للمشاركة في تلك العمليات. غير أن فترات الحكام الذين أعقبوا الحكمدار أحمد أبو ودان شهدت انحسارا متسارعا في عمليات التنمية والتعمير. ثم تخلت الخلافة العثمانية عن ممتلكاتها في مدن ساحل البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع، لمصر. وصادفت تلك السنوات كوارث جمة حاقت بالسودان من فيضانات ومجاعات وأوبئة (مثل وباء الحمى الصفراء في أعوام ١٨٣٦ و١٨٣٧ و١٨٥٦م). وزاد عدد سكان الخرطوم رغما عن كل تلك الكوارث من ١٤٠٠٠ في عام ١٨٣٧م إلى ٥٠٠٠٠ في عام ١٨٨٣م.

ومنذ عام ١٨٥٠ بدأت البواخر والمراكب تحمل البريد والركاب والبضائع عبر النيل بين الشلال السادس فيالشمال ومحطات متفرقة شمال السدود في الجنوب. وزار الخديوي إسماعيل السودان في عامى ١٨٥٦ - ١٨٥٧م، وكانت من قراراته في تلك الزيارة تغيير لغة مكاتبات الدولة الرسمية من التركية إلى العربية.

ودب النشاط مجددا في أوصال الحكومة المصرية بالسودان مع مقدم سنوات حكم الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)، إذ بدأ فيها إدخال كثير من المشاريع الجديدة، فتم التنقيب عن المعادن في عدد من المناطق الجديدة، وربط السودان بمصر بالتلغراف، وأنشئت وحدة للشرطة النهرية. وتم كذلك تعيين أول سوداني في منصب مدير الخرطوم، كان هو زعيم الشكرية أحمد بك عوض الكريم أبو سن، وذلك بين عامي ١٨٦٢ - ١٨٧٩م.

وبدأت الحكومة المصرية، ولأول مرة، في محاربة تجارة الرقيق، والتى عدتها أمر عفا عليه الزمن، بالنظر إلى السياسات العصرية التى قررت الحكومة انتهاجها، وتزايد نقد القوى الأوربية المؤثرة (خاصة بريطانيا) لتلك التجارة. وأثرت سياسة محاربة تجارة الرقيق على الجلابة (مثل الزبير باشا في دارفور ومحمد أحمد القاضى في بحر الغزال)، فبدأوا في تحويل نشاطهم إلى مناطق أخرى في جنوب البلاد وغربها لا تقع تحت السيطرة المصرية. ولم يؤثر تحريم الحكومة المصرية لتجارة الرقيق على تجار الرقيق فحسب، بل أضر ببعض القبائل مثل البقارة والكبابيش، والذين كانوا يقدمون العون اللوجيستى والحماية لقوافل تجار الرقيق وهى في طريقها إلى مصر، ورفع أسعار المسترقين في شمال البلاد ووسطها، والذين كانوا يستغلون في العمل سُخْرَة بالزراعة. وعينت الإدارة المصرية بالسودان عددا من الأوربيين في الجنوب والغرب لتنفيذ سياستها المعلنة المناهضة لتجارة الرقيق. فتم تعيين البريطانيين غردون باشا وبيكر باشا حكاما لمنطقة الاستوائية، والإيطالي جيسى حاكما لبحر الغزال، والسويسري مونزينقر حاكما لمصوع، والنمساوي – الهنغاري سلاطين حاكما على دارفور. وواجه تجار الرقيق تلك التحركات الحكومية بإقامة زرائب (قواعد) لهم في مناطق نائية في أقاصي غرب البلاد وجنوبها.

وفي ذات الوقت توسعت الإدارة المصرية على شواطئ البحر الأحمر، فتم احتلال بعض مدن الموانئ على ساحل الصومال مثل رأس حيفون وزيلع توطئة لغزو إثيوبيا من مختلف الاتجاهات. وبدأ ذلك الغزو في ١٨٧٥م بأربع حملات عسكرية، كان بعضها بقيادة المغامر الأسكتلندي ماكيلوب، والذي نجح أيضا في الاستيلاء على بعض موانئ الصومال ومدن أخرى كانت تتبع لسلطان زنجبار. بينما قاد الحملات المصرية الأخرى حاكم مصوع السويسري مونزنقر، والمغامر الدنماركى اهرندروب باشا، والمصري رؤوف باشا الذي احتل مدينة هرر(انظر المقال المترجم « ١٨٧٧ - ١٨٨٠ : ثلاث سنوات من الهيمنة السودانية على

ساحل الصومال». المترجم).

غير أن خطط الحكومة المصرية لضم إثيوبيا لممتلكاتها أصابها الفشل بعد أن وضعت نفسها تحت الحماية البريطانية في ١٨٨٢م، ووزعت مستعمراتها في إرتريا والصومال على إيطاليا، واستولت بريطانيا على شمال الصومال، بينما نالت فرنسا جيبوتي وزيلع. وكان من نتائج سياسات الخديوي إسماعيل المفرطة الطموح في مجال التحديث والإصلاح، ورغبته في التوسع الاستعماري، واستثماره في مشاريع عالية الكلفة (مثل إنشاء قناة السويس) أن أفلست الخزانة المصرية تماما في عام ١٨٧٩م. وقام على إثر ذلك صغار ضباط الجيش المصري بقيادة عرابي باشا بالاحتجاج على وضع اقتصاد مصر تحت الوصاية الدولية مما دعا بريطانيا للتدخل في ١٨٨٢م. ونتج عن تلك الأحداث انحلال «الإمبراطورية المصرية». وفي تلك السنوات خسرت مصر سيطرتها على السودان إثر ظهور فقيه أعلن أنه «المهدي المنتظر»، وأشعل ثورة مسلحة ضد الحكم المصري - التركي في السودان في عام ١٨٨١م.

الطرق الصوفية في المناطق النيلية

كان هنالك، ومنذ بدايات سلطنة الفونج بسنار، علماء دين ورجال صالحون (holymen) إلا أن الطرق الصوفية المنظمة في مناطق السودان المختلفة لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر الميلادي. ولعبت تلك الطرق دورا مركزيا في المجتمع والسياسة السودانية. فقد وفد للسودان بعض الحجاج من الجزيرة العربية أو من «بلاد السودان الغربية»، وأنشأوا فيه مراكز لتدريس الدين الإسلامي، نال بعضها شهرة عظيمة، خاصة إن تمتع الفقيه فيها بالقدرة على إظهار بعض الكرامات مثل شفاء المرضى، أو تقديم المشورة و/ أو العون المالي أو الاجتماعي أو الروحي لمريديه عند قيامهم بطقس «الزيارة». واكتسبت تلك الطرق أهمية أكبر بعد سقوط سلطنة الفونج في بدايات القرن التاسع عشر، حين بعث شيوخ الطرق الصوفية في

مصر وبلاد المغرب بموفديهم للسودان لنشر طرقهم بين السكان وإقامة زوايا مثل الشاذلية والسمانية - الخلوتية ، والتجانية ، والقادرية في العراق، والإدريسية والرشيدية والمجدوبية من اليمن والحجاز.

وأفلحت تلك الطرق الصوفية في الانتشار بين السكان، غير أنها لم تصب نجاحا يذكر في إقامة شبكات تنظيمية تغطي سائر أرجاء البلاد. وتولت لعب ذلك الدور لاحقا طريقة صوفية جديدة هي الطريقة الميرغنية (والتي أنشأها محمد عثمان الميرغني، والذي تتلمذ على شيخه أحمد بن إدريس، مثله مثل محمد السنوسي). وكان محمد عثمان الميرغني قد ولد في مكان يقرب من الطائف في الحجاز، وصار فيما بعد فقيها مثل والده وجده من قبل. وتتلمذ على يد أحمد بن إدريس، والذي بعث به للسودان لنشر طريقة شيخه. وأصاب الميرغني نجاحا عظيما في ذلك بأرض النوبة وشمال السودان. وآب الشيخ للطائف في ١٨٢٣م مجاورا لمعلمه أحمد بن إدريس إلى أن توفي، فقبل المريدون في مكة والطائف بالميرغني خليفة لأحمد بن إدريس. وقام محمد عثمان الميرغني بإرسال أبنائه إلى مناطق العالم الإسلامي لنشر طريقته (الجديدة)، والتي زعم أنها تجب و«تختم»كل ما قبلها من طرق صوفية، ومن هنا أتى اسم «الختمية».

وبعث محمد عثمان الميرغني بأحد اولاده الذين كانوا قد ولدوا بالسودان (واسمه محمد الحسن الميرغني) لمسقط رأسه لنشر الطريقة الختمية. فطاف محمد الحسن الميرغني بسنار وكردفان ومناطق البجا في شرق البلاد، وأسس قواعد الطريقة الختمية بالسودان، وصار هو شيخ الطريقة الختمية بالسودان بعد وفاة والده عام ١٨٥٣م، وأختار مدينة كسلا مركزا لها، وأقام بها حتى وافاه الأجل عام ١٨٦٩م، وظل قبره مزارا للمريدين منذ ذلك التاريخ. وخلفه على زعامة الطريقة الختمية ابنه محمد عثمان (الأقرب) تاج السر (المتوفي عام ١٨٨٦م). وفي عهده انتشرت الطريقة الختمية بالسودان وأقيمت لها زوايا في سائر أنحاء

البلاد، لكل منها «شيخ سجادة» يعينه زعيم الطائفة بتوصية من «المقدمين». وتقع على «شيخ السجادة» مهام مالية وتنظيمية ودينية عديدة تشمل ترتيب الاحتفالات السنوية بالمولد النبوي ومولد محمد عثمان الميرغني، والذكر الأسبوعي، وإدارة أملاك الطريقة ومختلف شؤونها المالية. وبهذا يمكن اعتبار الطريقة الختمية أول طريقة بالسودان تلقي بالا للتراتيبية في أعمالها الدينية والدنيوية.

واستفادت الإدارة المصرية من التراتيبية المركزية للطريقة الختمية فسعت للتحالف معها، وكافأتها في مقابل ذلك بطرق شتى. فقد ساعدت الإدارة المصرية الطريقة الختمية على إقامة زواياها ومدارسها ومساجدها في مختلف مناطق السودان، وفي إقامة البنى التحتية الدينية والاجتماعية اللازمة لمخاطبة واستقطاب مختلف فئات المواطنين السودانيين. ولما كان قادة الطريقة الختمية من الذين قبلوا ببرنامج الحكومة المصرية الهادف للإصلاح والتحديث، فقد رأت تلك الإدارة في الطريقة الختمية حزاما / سيرا ناقلا (transmissionbelt) ملائما لبرامجها تلك، ووسيطا مهما وفعالا بينها وبين الأهالي. وكسبت الطريقة من وراء تلك المهمة مالا كثيرا وأراض زراعية واسعة، أفلح قادة الطريقة في ترجمته لنفوذ سياسي عريض. وغدا الصعود في سلم الترقي الاجتماعي والسياسي للسودانيين الطامحين في المناصب العليا في مختلف المجالات مرتبطا بالختمية، وكان ذلك من أسباب تثبيت أصلها في التربة السودانية.

غير أن الصعود السريع للختمية باعتبارها طريقة صوفية سودانية يجب أن يفسر ويعزى أيضا لتعاليم الطريقة نفسها. فهذه الطريقة تغرس في نفوس من يتبعونها أنهم نخب روحية (spiritualelites) بفضل بركة محمد عثمان الميرغني وبنيه، وكراماتهم. لذا وصوفوا بأنهم كالغيث في الصحراء، وأنهم من عاقبوا الحكام الظالمين (بالحملات العسكرية المصرية)، ومن بمقدورهم تتبع أثر البضائع المسروقة. وبلغ من إيمان مريديه بشيخهم الكبير تصديقهم بأن كراماته وبركاته

تمتد، ليس فقط لمن رآه كِفَاحاً في حياته، بل كذلك لمن رأى من رآه لأجيال متعاقبة، وأن نار جهنم لن تمسه أبدا. أي أن بركة محمد عثمان الميرغني لم تقتصر على معاصريه فحسب، بل داحت في المستقبل كذلك. ونسبت لمحمد عثمان الميرغني عندما كان طفلا صغيرا كرامات عديدة. ويؤمن مريدوه كذلك بأنه، عند زيارته لسنار في ١٨١٩م، منع شيخا دينيا مشهورا من القدوم عليه، إذ أنه كان ينوي أن يسأله أسئلة قاسية. فقد كان من المقرر أن يصل الشيخ المشهور لسنار يوم الأربعاء، وأن يقابل محمد عثمان الميرغني في اليوم التالي. غير أن الشيخ لم يستطع مغادرة منزله بسبب عاصفة رعدية، وبسبب اصابته بعلة أودت بحياته نهار الجمعة، قبل الصلاة.

ويعزي نجاح وانتشار الطريقة الختمية في عهد الحكم المصري – التركي إلى أن بعض الطرق الصوفية الأخرى (مثل المجدوبية) كانت تعارض حكام ذلك العهد، والذين عاقبوها بنقيض الأساليب التي أمالوا بها إليهم الطريقة الختمية. وكان زعماء الطريقة المجدوبية قد أعلنوا عن تأييدهم للتمرد الذي وقع ضد الحكم المصري في عام ١٨٢٢م، وكانت نتيجة ذلك أن دمر الجيش المصري – التركي مدينة الدامر تدميرا كبيرا، عقابا لهم، وتحذيرا لقادة الطرق الصوفية الأخرى من مغبة معارضة الإدارة المصرية.

وعلى الرغم من أن الإدارة المصرية قد أوقفت بعض الامتيازات التي كانت تمنحها سلطنة الفونج لزعماء الطرق الصوفية (مثل الإعفاء من الضرائب) ووضعت أولئك الشيوخ ومدارسهم (خلاويهم) تحت المراقبة اللصيقة، إلا أن من يبدي من أولئك الشيوخ اي رغبة في التعاون مع الإدارة الحاكمة، كان يلقى مختلف صنوف الدعم والعون منها، مثل منحهم العطايا وابتعاث أبنائهم لمصر لتلقي العلوم الشرعية. وخلق أبناء أولئك الشيوخ الذين درسوا في الأزهر عند عودتهم للسودان طبقة من «العلماء» ظلت تداوم على تعضيد برامج الإصلاح

والتحديث المصري (al 'égyptienne) بالبلاد. ولم يعد هؤلاء العلماء على ارتباط بالضرورة بأي طريقة صوفية معينة، بل كونوا جماعة من الموظفين الدينيين (religious functionaries) العاملين في خدمة الإدارة المصرية في المدارس والمحاكم الشرعية. غير أن التحالف بين الختمية والحكم المصري – التركي بالسودان كان في نهاية المطاف في غير صالح الختمية، عندما ظهرت الدعوة المهدية وطردت الحكم المصري – التركي من البلاد في ١٨٨٥م، واجتذبت لها عددا كبيرا من أتباع الطرق الصوفية الصغيرة. وذهب محمد عثمان (الأقرب) تاج السر عقب انتصار المهدية إلى القاهرة منفيا، ومات هنالك في عام ١٨٨٦م. وعاد ولداه علي وأحمد للسودان في عام ١٨٩٨م ليعيدا بناء الشبكات الاجتماعية – السياسية للطريقة الختمية، بالتعاون هذه المرة مع حليف جديد هو الإدارة المصرية – البريطانية.

بعد التغيير في السلطة

بعد التغيير في السلطة: اتحاد المعاشيين البريطانيين في حكومة السودان يبحث ترتيبات أوضاعهم عقب استقلال السودان

'Change of masters': The Sudan Government British Pensioners' Association and the negotiation of post – colonial identities

ليا بارادس Lia Paradis

مقدمة: هذه ترجمة لقليل ما جاء في مقال طويل للدكتورة ليا براديس الأستاذة المشاركة بقسم التاريخ بجامعة سليبري روك بولاية ببنسلفانيا الأميركية حول معاشات الموظفين البريطانيين الذين عملوا بالسودان الإنجليزي – المصري. ونشر المقال في العدد السابع من «مجلة الاستعمار وتاريخه Journal of Colonialism and Colonial History والصادر في عام ٢٠٠٦م.

والمؤلفة حاصلة على درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٦م بأطروحة عنوانها:

Return Ticket: The Anglo-Sudanese and the Negotiation of Identity 1920–1965.

وتشمل قائمة اهتماماتها البحثية الحالية قضايا الهوية في القرنين التاسع عشر والعشرين في الإمبراطورية البريطانية.

المترجم

**** **** ****

لم تجر إلى الآن الكثير من الدراسات عن تجارب الإداريين البريطانيين العائدين

من مستعمرات بريطانيا في أثناء وما بعد مرحلة الاستقلال. ويبدو إن اختفاء تلك الإمبراطورية الاستعمارية قد أدى لمحو ذكرى من كانوا ملء السمع والبصر من إداريي تلك الإمبراطورية والذين كانوا يلقون أشد الاهتمام من أطراف عديدة، وكانوا يرون أنفسهم ممثلين لحالة «انصهار الحاضرة الأعظم (بريطانيا) ومستعمراتها». وبالفعل كان هؤلاء الرجال، وبالضرورة، من موظفي الخدمة المدنية في بلدين: بريطانيا، والبلد المستعمر الذي يعملون فيه، والأخير هذا هو البلد المانح/ المكافئ rewardingplaceصاحب الآليات البيروقراطية القائمة بين المخدم والمستخدم، خاصة عندما تحين ساعة التقاعد. وشكلت المعاشات وشروطها العلاقة المستمرة بين المخدم والمستخدم بعد وقت طويل على انقضاء فترة العمل نفسها.

وقد يصعب في زمننا الحالي تصديق أنه كان لزاما على وزارة حكومة السودان حديثة الاستقلال أن تتحمل عبء دفع معاشات «سادتهم» المستعمرين (السابقين)، وهي التي قامت بالتخلص منهم وإرسالهم لوطنهم الأصلي (يذكر المرء هنا نشيد يوسف مصطفى التني والحان وغناء حسن خليفة العطبراوي: «يا غريب يلا لي بلدك ... سوق معاك ولدك ... لملم عددك... انتهت مددك». المترجم). ونتيجة لذلك ظلت هنالك «بقايا علاقة» بين الدولتين، بل وعلائق شخصية بين مُسْتَعْمِرين ومُستعمَرين لم تنقطع أو تقطع بالكلية عقب نيل البلاد لاستقلالها. وأتى إداريون محليون (كانوا في سنوات الاستعمار من صغار الموظفين) وصاروا يحتلون الآن مواقع المسئولية ويقومون على شأن معاشات وفوائد ما بعد الخدمة للموظفين البريطانيين المتقاعدين. وكان المستعمرون (الإمبرياليون) يصرون على أن هؤلاء البريطانيين المتقاعدين كانوا في خدمة المستعمرة (أي السودان) وليسوا في خدمة الدولة المستعمرة (بريطانيا)، وليس من المعقول ولا المتوقع ولا الممكن أن يطالب هؤلاء الموظفون مخدمهم

الأصلي (الحكومة البريطانية) بدفع معاشاتهم.

وفي هذا المقال سأتناول أمر اتحاد معاشيي موظفي حكومة السودان البريطانيين، وحملته من أجل تعديل شروط معاش هؤلاء الموظفين، وأهمية تلك الشروط، ليس فقط من ناحية مادية بحتة، بل كعلامات ودلائل لهويتهم كموظفين في الدولة، وكأفراد أيضا.

لقد كانت ترتيبات أمور التقاعد للبريطانيين المعاشيين من موظفي حكومة السودان تأخذ في الاعتبار ما هو أبعد من مجرد توفير الأمان المالي لهؤلاء الموظفين في سنوات شيخوختهم. لقد نال السودان استقلاله في ١٩٥٦م، وكان ذلك في مرحلة باكرة نسبيا في عهد نهاية الاستعمار (decolonization). وهذا يعني أن حملة أولئك الموظفين البريطانيين المعاشيين كانت قد وقعت في سنوات الخمسينيات والستينيات، وكانت تلك سنوات مشحونة بالأحداث، تميزت بحدوث تغيرات مهمة في بريطانيا، وتكاثرت فيها الآراء وتضاربت من قبل معارضي ومؤيدي السياسات البريطانية الإمبريالية.

لقد كانت هنالك بلا ريب أسبابا عملية (مالية وسياسية) عديدة لقيام اتحاد للبريطانيين العاملين السابقين بحكومة السودان. غير أني أحسب أن هنالك أيضا أسبابا عاطفية ونفسية (سيكولوجية) أخرى يجب أن توضع في الحسبان. ولعل تلك الأسباب تندرج تحت ما يمكن تسميته عملية «تشكيل الهوية الاجتماعية».

لم يتخلف أحد من البريطانيين العاملين السابقين بحكومة السودان عن الاشتراك في ذلك الاتحاد، إذ كان إنشائه يوفر بالفعل استمرارية سياقية contextual continuity بين المستعمرة والبلد المستعمر، ويؤمن وجود مساحة تمكن أولئك الموظفين المتقاعدين من خلالها التعبير عن سمعتهم وهيبتهم (بريستيجهم) وهواياتهم الذاتية. وكان اتحادهم ذاك يقع في منطقة وسطى بين كونه اتحادا «عاما» و«خاصا» أيضا، ولكنهم كانوا يحرصون على التأكيد بأنه

ليس «نقابة» بالمعني المعروف للكلمة.

كان السودان يمثل دولة فريدة في «الامبراطورية البريطانية»، إذ لم يكن مستعمرة رسمية، حتى أن تسمية من يحكمه بـ «الحكم الثنائي الإنجليزي – المصري» كانت تدل على ازدواجية الهوية الاستعمارية، والناتجة عن الظروف السياسية والعسكرية الغريبة (بل الشاذة) التي أحاطت بإقامته منذ البداية في ١٨٩٨م. وكانت حكومة السودان (المستقلة اسميا) تحت إشراف البريطانيين والمصريين ظاهريا، وتتعامل مع بريطانيا عبر وزارة الخارجية وليس وزارة المستعمرات (كما هو الحال مع الدول المستعمرة الأخرى). وكان استقلال حكومة السودان، والتي تصادف أن كان كل كبار زعمائها من البريطانيين، هو رمز وعلامة هوية (identity marker) إدارتها.

وكان الموظفون البريطانيون يؤثرون العمل بخدمة حكومة السودان على العمل في المستعمرات الأخرى على اعتبار أن السودان يمثل صورة أكثر عصرية لنموذج الدولة المستعمرة. ولهذا السبب، ومع استعداد البريطانيين للرحيل عن السودان، فقد كان الفشل المحتمل في انجاز تسليم مشرف للسلطة سيعد فشلا بريطانيا – سودانيا أكثر منه فشلا بريطانيا خالصا. ولم يكن لتقاعد الموظفين البريطانيين العاملين بالسودان عند استقلاله من بد. وفي سنوات الحكم الثنائي الأخيرة وما بعدها كان توصيف ذلك التقاعد ما يزال مكونا مهما في صورة الذات (self-image) لمجتمع الموظفين المتقاعدين.

وعندما تبين للجميع أن استقلال السودان بات وشيكا برزت ثلاث مخاوف عند الموظفين البريطانيين المقبلين على التقاعد وهي:

كان كل من تقاعد من العمل من هؤلاء الموظفين قبل عام ١٩٥٠م يحصل على علاوة لترفع معاشه الثابت ليصبح مساويا (تقريبا) لمعاشات من تقاعد بعد عام ١٩٥٠م، وهي معاشات كانت تقدر بحسب التغيرات التي حدثت في قيمة

الجنيه الإسترليني عند تاريخ التقاعد. غير أنه، وعلى الرغم من أن قيمة الجنيه لإسترليني ظلت تتناقص منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع ارتفاع متوال في معدل التضخم، إلا أن ذلك لم يصاحبه زيادات أو علاوات تتناسب مع تلك المتغيرات.

كانت معاشات الموظفين البريطانيين مرتبطة بالجنيه المصري (والذي ظل هو عملة الحكم الثنائي)، وكان الافتراض عند أولئك الموظفين هو أن العملة المصرية ستغدو أقل ثباتا بعد نيل السودان لاستقلاله.

ومن الملاحظ أن تلك المعاشات لم تكن تصرف من صندوق مخصص لذلك الغرض، بل من الميزانية العامة، والتي تعرض أمام البرلمان سنويا قبل إجازتها. ولم يكن هنالك أي قلق من تلك الناحية حين كان البريطانيون يديرون شؤون الحكومة السودانية إذ أن قضية تلك المعاشات كانت تمثل عندهم أولوية قصوى. غير أن الخوف كل الخوف هو عندما يتسنم السودانيون دفة قيادة الحكومة بعد الاستقلال، إذ قد لا يمثل أمر تلك المعاشات أولوية عندهم. لذا طالب اتحاد معاشيي موظفي حكومة السودان البريطانيين بضمان تولي الحكومة البريطانية أمر تلك المعاشات إن فشلت الحكومة السودانية المستقلة في الإيفاء بالتزاماتها تجاه تلك المعاشات في المستقبل. وكانت الحكومة البريطانية بالفعل قد قدمت ضمانات غير رسمية في ذلك الاتجاه، غير أنها امتنعت عن تقديم ضمانات رسمية معلنة بدفع تلك المعاشات خوفا من أن تتقاعس الحكومة السودانية وتنكص عن التزامها في هذا الشأن. وكررت الحكومة البريطانية موقفها القديم والقاضي بأن أولئك الموظفين قد تقاعدوا عن العمل بحكومة السودان (وليس الحكومة البريطانية)، وأن عبء دفع مستحقاتهم المعيشية يقع على كاهل الدولة التي خدموا فيها.

وظل اتحاد معاشيي موظفي حكومة السودان البريطانيين يصارع، ولعقدين من

الزمان، الحكومة البريطانية من أجل تولي أمر تلك المعاشات عوضا عن الحكومة السودانية، وأن تنشئ الحكومة البريطانية اعتمادات كافية لسد الفجوة في معاشات الموظفين الذين تقاعدوا قبل عام ١٩٥٠م، خاصة مع التصاعد الجنوني لتكاليف المعيشة. وبدأت تلك الحملة المطلبية في عام ١٩٥٢م (قبل ثلاثة أعوام من تاريخ استقلال السودان). وفي عام ١٩٦٢م وافقت الحكومة البريطانية أخيرا على تولي دفع الزيادات المناسبة في معاشات المتقاعدين من موظفي حكومة السودان البريطانيين. وبعد مرور نحو عقد من الزمان على تلك الموافقة (وتحديدا في ١٩٧١م) وافقت الحكومة البريطانية على تحمل مسئولية دفع معاشات أولئك المتقاعدين من موظفي حكومة السودان البريطانيين، وكذلك معاشات غيرهم من كل الموظفين البريطانيين الذين كانوا يعملون في المستعمرات السابقة الأخرى.

وبقبول المتقاعدين من موظفي حكومة السودان البريطانيين لتلقي معاشاتهم من الحكومة البريطانية فقد أولئك الرجال بعض عناصر هويتهم المؤسسية (corporate identity) والتي ظلتقليديا تتأرجح بين المواقف المتزامنة للخادم والسيد. فقد كان هؤلاء الرجال يعدون أنفسهم دوما «سادة» للحكومة، ولكنهم «خدم» للسودانيين، وليسوا خداما لوزارة المستعمرات وسادة على السودانيين.

ويدرك كل من شاهد المسلسل التلفزيوني البريطاني الساخر «نعم أيها الوزير Yes, Minister» مدى التعطيل والمراوغة والتأخير المؤسسي (المتعمد) الذي اشتهرت به أعمال الحكومة البريطانية (يمكن مشاهدة المسلسل في هذا الموقع https://www.youtube.com/watch?v=r_r5SFMfdmQ المترجم).

فلا عجب إذن أن استمرت مطالبات معاشيي الحكومة السودانية البريطانيين لنحو عشرين عاما بسبب حيل ومراوغات غاية في المهارة والاتقان. وفي المقابل كان هؤلاء المعاشيون (أو على الأقل ممثليهم) يخاطبون في البدء الحكومة البريطانية كحكام سابقين لمستعمرة بريطانية يتفاوضون مع ممثلي حكومة دولة

أخرى. ولعل تلك الاستراتيجية كانت واحدة من أهم الأسباب التي أعاقت تقديم قضيتهم كمواطنين بريطانيين يبحثون عن حقوقهم. غير أنهم، ومع مرور السنوات، غيروا من استراتيجيتهم ولهجتهم تلك، وصاروا يركزون على أنهم ظلوا وطوال السنوات «خداما مخلصين للإمبراطورية البريطانية».

وكانت وزارة الخارجية البريطانية قد أخبرت السير جيمس روبنسون، السكرتير الإداري لحكومة السودان في عام ١٩٤٨م بأن السياسة البريطانية قد تغيرت، وأن السودان سيمنح استقلاله عاجلا وليس آجلا. وكانت قد بدأت في تلك السنوات مناقشات ومفاوضات بين وزارة الخارجية البريطانية والخرطوم حول «السودنة المتدرجة» للحكومة، غير أنه كانت هنالك فروقات كبيرة بين ما كانت تراه الحكومة البريطانية جدولا زمنيا مناسبا لإنجاز السودنة وبين توقعات السكرتير الإداري لحكومة السودان. ففي عام ١٩٤٥م كان مجلس الحاكم العام يرى أنه «قد يكون من الممكن في خلال العشرين عاما القادمة (أي بنهاية ١٩٦٥م) تخفيض عدد الموظفين الإداريين (السياسيين) في الأقاليم من ٧٣ موظفا إلى ٣٠، علما بأن ذلك لا يشمل مديريتي الجنوب (والتي يعمل بهما ٤٦ موظفا بريطانيا)، ولا يمكن التكهن بعدد السنوات اللازمة لقيام وتطوير المؤسسات المحلية بذلك الجزء الجنوبي من البلاد». ورد بي. سي. اسكيفيقنر المسئول عن القسم المصري بوزارة الخارجية البريطانية في ١٨/ ٣/ ١٩٤٦م بأن توقعات السكرتير الإداري بحكومة السودان معقولة إذا نظر إليها من زاوية النظرية البريطانية الصحيحة للإدارة. غير أنه توجد هنا اعتبارات عملية توجب الاختيار بين التعجيل بإشراك السودانيين الذين تلقوا تعليما بريطانيا في عملية إدارة شئون البلاد مع القبول بخسران بعض «الكمال الفني artistic perfection»، أو تدفق أعداد كبيرة من المصريين الذي تلقوا تعليما مصريا في مجال الإدارة بالسودان، ولا ريب أن الاختيار الثاني سيضيع كل براعة فنية

artistry». وعلى كل الأحوال فقد ظلت النصيحة الثابتة عند البريطانيين هي تحاشي توسع النفوذ المصري في السودان بكل الوسائل الممكنة.

وفي عام ١٩٤٨م بدأ برنامج متسارع للسودنة هدفه «خلق جو حر ومحايد» للوصول بالسودان إلى حق تقرير المصير. فلا يكفي أن ينقل البريطانيون السلطة للسودانيين، بل تقرر أيضا أن يزاح البريطانيون من مواقع اتخاذ القرار قبل إجازة أي دستور للبلاد. ولعل بعض البريطانيين كان يرغبون بالبقاء في السودان للعب أدوار استشارية، غير أن ذلك كان نادر الحدوث. وتقلص تقدير الحكومة الأول لعملية السودنة من عشرين عاما إلى النصف من ذلك، وفي نهاية المطاف اكتملت العملية في نحو ثمانية أعوام. وليس هنالك من سبب واحد محدد يمكن أن نعزي إليه ذلك التغير في السياسة البريطانية. غير أنه من الجائز القول بأن لذلك التعجل أسبابا تتعلق بمجريات الأحداث في السياسة الدولية، ونيل الهند لاستقلالها، والسياسة الرسمية التي تبنتها منظمة الأمم المتحدة (الحديثة الإنشاء آنذاك) تجاه حق تقرير المصير للدول المستعمرة وإنهاء الاستعمار، والعلاقات المتوترة بين بريطانيا ومصر عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية. وأخطرت الحكومة السودانية بعد تلك الحرب كل من يريد الالتحاق بخدمتها المدنية من الجنسين بأنه (بأنها) سوف يقضي (تقضي) السنوات القليلة القادمة في التحضير لإنهاء أعمال البريطانيين في البلاد.

وتوقفت حكومة الحكم الثنائي بعد عام ١٩٥٢م عن التعاقد مع الموظفين البريطانيين في وظائف معاشية، وصار كل تعيين في الحكومة بعد ذلك يتم بعقود سنوية لا تتضمن معاشا بعد نهاية الخدمة.

وعمل في الخدمة المدنية في سنوات الحكم الثنائي عدد قليل من الموظفين من غير البريطانيين أو السودانيين، وكان بعض هؤلاء من الجنسية المصرية من الذين أتوا للسودان بعد توقيع اتفاقية ١٩٣٦م بين مصر والسودان (والتي أبطلت القانون

الذي كان يحظر عمل المصريين بالسودان بعد حوادث عام ١٩٢٤م). وكانت الحكومة البريطانية ترى أن «السودنة» هي أهم طريقة لمنع تدفق المزيد من الموظفين المصريين على السودان. وسواء أن كانوا مصيبين أو مخطئين، فقد كان الموظفون البريطانيون بالسودان يرون دوما في دخول / تدخل مصر في السودان عملا غير صالح، ويجب مقاومته مهما كانت التكلفة.

وكون البريطانيون من كبار موظفي الخدمة المدنية في عام ١٩٥٠م اتحادا سموه «اتحاد كبار موظفي الخدمة المدنية في السودان The senior Civil Servants' Association of the Sudan» ليمثل ويدافع عن حقوق تلك الفئة من الموظفين. ولعل ذلك الاتحاد كان هو أول تنظيم فئوي للموظفين بالبلاد، وضم جميع كبار الموظفين من بريطانيين وغيرهم. غير أن ذلك الاتحاد لم يستطع لأسباب بدهية الدفاع عن حقوق من كانوا قد تقاعدوا عن العمل قبل عام ١٩٥٠م. وكان لذلك الاتحاد بعض التوجهات التقدمية. فقد طالب مثلا بالأجر المتساوي للذكور والإناث عن العمل المتساوي، وحينها كانت تلك من القضايا التي كان أعضاء مجلس العموم البريطاني حولها يختصمون.

وكان دور المرأة (البريطانية) في كل ما سبق ذكره هامشيا. ولا غرو، بالنظر إلى قلة العنصر النسائي العامل في الخدمة المدنية (والسياسية) بالسودان في تلك السنوات. ورفض عتاة «المحافظين» في الإدارة البريطانية (مثل سير هارولد ماكمايكل)، ربما بدعوى مراعاة التسلسل الهرمي بين الجنسين gender hierarchy، اقتراحا قدمه أحد البريطانيين «الأكثر عصرية/ حداثة» لمنح المرأة مقعدا في «اتحاد كبار موظفي الخدمة المدنية في السودان» أو في غيره من التنظيمات. وجدير بالذكر أن دكتورة إنا بيزلي مفتشة التعليم (والتي ترجمنا عرضا لكتابها: «الناس والأماكن والتعليم في السودان». المترجم) كانت قد قدمت اقتراحا ذكيا بأن تدفع كل مشتركة في تنظيمات البريطانيين بالسودان أربعة أخماس ما يدفعه

الرجل (إذ أن تلك كانت هي النسبة القانونيـة لمرتـب المـرأة في بريطانيـا مقارنـة براتب الرجل في ذات الوظيفة). بل أضافت ساخرة في خطاب لها للقـائمين عـلى الرابطة البريطانية المذكورة أنها تعتذر عن حضـور اجتماعـاتهم لتقـديم اقتراحهـا بنفسها نسبة لأن «وظيفتها الحالية تتطلب أربعة أخماس وقتها»!

الافريقية الجميلة

الزرافة السودانية التي ذهبت لفرنسا

La Belle Africaine:
The Sudanese Giraffe who went to France

هيزر شاركي Heather J. Sharkey

مقدمة: هذه ترجمة وتلخيص لبعض ما جاء في مقال للدكتورة الأمريكية هيزر شاركي الأستاذة المتخصصة في تاريخ ولغات وحضارات الشرق الأوسط والأدنى في جامعة بنسلفانيا، نشر في صفحة الدكتورة بموقع جامعتها في عام ٢٠١٣م.

ويدور المقال حول تاريخ «دبلوماسية الزرافة» والتي مارسها محمد علي باشا حين قام بإهداء زرافة (سودانية) لملك فرنسا شارل العاشر كانت هي الزرافة الأولي (مع اثنتين أخيرتين أهداهما لملكين آخرين في أوربا) في عام ١٨٢٧م. وكانت تلك الزرافات هي أول زرافات تشاهد في أوربا منذ أن وصلت أول زرافة لأوروبا في عام ١٤٨٦م.

وللكاتبة عدة كتب ومقالات عن السودان ومصر منها كتاب «العيش مع الاستعمار: الوطنية والثقافة في السودان الإنجليزي المصري»، وكتاب «الإنجيليون الأمريكيون في مصر» و«الهوية والمجتمع في الشرق الأوسط المعاصر» و«تاريخ الصحافة العربية في السودان». وكنت قد عرضت لعدد من كتابات الدكتورة شاركي في مقالات سابقة.

المترجم

**** **** ****

مقدمة: تاريخ كتابة السياسات الفرنسية - السودانية (العابرة للقومية)

عادة ما يبدأ المؤرخون الفرنسيون بالاعتذار وهم يقدمون أبحاثهم عن تاريخ السودان لزملائهم المتحدثين باللغة الإنجليزية. وكثيرا ما نسمعهم يرددون بأن فرنسا، مقارنة ببريطانيا، هي صحراء بلقع في مجال الدراسات السودانية. وربما كان مرد ذلك هو عدم استعمار فرنسا لأجزاء وادي النيل التي تشمل الآن السودان وجنوب السودان. غير أن ندوة عقدت بباريس في نوفمبر من عام ٢٠١٢م كذبت كل ذلك، وبرهنت على حيوية وتنوع الاهتمام الفكري والبحثي الذي يوليه العلماء الفرنسيون لدولتي السودان في مجالات التاريخ والأنثروبولوجيا واللغات والعلوم السياسية والمواد الأخرى. وسأحول هنا أن أدحض ما يراه الفرنسيون في أنفسهم من تباعد وانفصال عن تاريخ السودان وذلك عن طريقة دراسة مبادلة حدثت قبل سنوات من الوجود النشط للبريطانيين في السودان قبل أكثر من نصف قرن من الزمان. وتمثل ذلك التبادل في هدية قدمها حاكم مصر والسودان محمد علي باشا (١٧٦٩ – ١٨٤٨م) من مكان ما فيما يعرف الآن بجمهورية السودان، إلى ملك فرنسا شارل العاشر (١٧٥٧ – ١٨٣٦م) في عام ١٨٢٦م (أي قبل ٧٢ عاما قبل انتصار بريطانيا على دولة المهدية في السودان، وتأسيسها للحكم الثنائي بين عامي ١٨٩٨ و١٩٥٦م).

ونورد في هذا المقال ضربا من تاريخ العلاقات (العابرة للقومية) بين السودان وفرنسا عبر دراسة زرافة اسماها في عام ١٨٢٧م محرر صحفي نقلا عن بعض العاملين في حديقة الحيوان بمدينة ليون «الإفريقية الجميلة». ونقوم كذلك باستعراض تاريخ الزراف بصورة عامة، وتاريخ هذه «الإفريقية الجميلة» بالذات، في سياق دراسة قصة الأبعاد الدبلوماسية والثقافية والبيئية، إضافة للأبعاد المتعلقة

بعلم الحيوان، وتأثير كل ذلك على المقاييس المحلية والإقليمية والعالمية. ونستطيع بتتبع رحلة تلك الزرافة وأحوالها أن نحقق ثلاثة أهداف:

أولها، أنه بإمكاننا، ومن جهة النظر السودانية، التغلب على الحدود بين الدول وبين القوميات وهو الأمر الذي يبدو الآن أكثر إمكانية وقبولا للتحقيق، خاصة بعد انفصال جنوب السودان عام ٢٠١١م، وتعريف السودان كمنطقة يمكن فيها تحرك الناس والأشياء والأفكار، في مقابل دولتين محددتي الحدود.

وثانيها هو أنه يمكننا، ومن وجهة النظر الفرنسية، التقليل من بعض أعباء «لحظات» التاريخ الاستعماري بإفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وكذلك يمكننا تصور وجود علاقات لفرنسا والفرنسيين بأماكن لم يستعمروها، مثل كينيا وموزمبيق، أو (كما في هذه الحالة) مثل السودان وجنوب السودان.

وثالثها هو أنه بالإمكان الحصول على كم هائل من الوثائق المكتوبة والمصورة والأدلة المادية المتعلقة بزرافتنا الجميلة، وكيف أن هنالك تاريخا مخبوءً في طيات تواريخ أخرى، تماما مثل دمية التعشيش الروسية المسماة ماترواشاكا (matryoshaka)، عامرة بطبقات من الزمان والمكان والتفسيرات والتأويلات، بعضها فوق بعض.وقد يساعد النظر إلى التاريخ بذلك المنظور فهم كيف أن مجهودنا في التفسير والتأويل الآن سيضيف إلى أعمال متراكمة، بعضها ما زال قيد العمل، عن تاريخ يبدو مختلفا في كل مرة بحسب الظروف والأحوال.

ويبدأ هذا المقال من مكان بعيد الاحتمال وغير منتظر، ألا وهو بيت درج stairwell في إحدى المحافظات الفرنسية، وذلك سيساعدنا في فهم سبب مغادرة زرافتنا للسودان ووصولها لفرنسا قبل نحو قرنين من الزمان. ويتتبع المقال هجرة تلك الزرافة إلى باريس في عام ١٨٢٦م، وترصد الأثر الثقافي الذي أحدثته على فرنسا. ويأتي المقال أيضا على الدور التاريخي الذي لعبه السودان في تزويد

الأقطار المطلة على البحر الأبيض المتوسط بأعداد من هذا الحيوان. ويختم المقال بعرض الأثر الذي تركته تلك الزرافة، حتى بعد موتها، في فرنسا، والزراف السوداني بصورة عامة، حتى ندرك مما يمكن استخلاصه من عِبْرات قصصها عن فرنسا والسودان (وجنوب السودان) منذ القرن التاسع عشر حتى العصر الحالي، عصر ما بعد الاستعمار.

بيت درج في لا روشيل: العثور على تاريخ كبير في مكان صغير

تقع لا روشيل على شاطئ فرنسا المطل على المحيط الأطلسي، وهي مدينة صغيرة ذات تاريخ باذخ الغنى. ومن هذه المدينة الصغيرة يمكن تتبع خيوط عديدة وهي تغزل في تاريخ العالم. ففي القرن السادس عشر على سبيل المثال وقعت حروب الأديان (١٥٦٢ – ١٥٩٨م)، وغدت لا روشيل، وبالتحالف مع قوات قدمت من إنجلترا، معقلا للبروتستانتية المضادة للمؤسسة الكاثوليكية الفرنسية. وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت لا روشيل مركزا للمهاجرين الفرنسيين الذين كانوا يتجهون صوب شمال أمريكا، خاصة مقاطعة كوبيك (أو فرنسا الجديدة، كندا الآن). وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استضافات المدينة كادر التنوير (مثقفي التنوير الفرنسي)، والذين كانوا يدققون في العالم الطبيعي عن طريق دراسة الحفريات والأصداف والنباتات والحيوانات. وبرز من علماء الطبيعة في لا روشيل في تلك السنوات Aicde Dessalines d' Orbigny والذي قام بجمع أكثر من ١٠٠٠٠ عينة في غضون رحلة علمية استغرقت سبع سنوات، قام بها لعدد من أقطار أمريكا الجنوبية مثل البرازيل وبيرو وغيرهما، وأسس لعلم جديد هو علم المتحجرات الدقيق micropaleontology. وفي عام ١٨٨٧م بعثت لا روشيل بثلاثة من أبنائها (عرفوا بالفاتحين السلميين peacefulconquerors) لغرب أفريقيا لبحث مطالبات فرنسا بكوت ديفوار (ساحل العاج)، وتطوير تجارتها في الكوكا والبن.

وتم تجميع ثمرات كل ذلك التاريخ الحافل في متحف التاريخ الطبيعي بالمدينة، والذي يحوي المواد التي جمعها d' Orbigny من أمريكا الجنوبية، بالإضافة لكل مواد الطقوس الإفريقية التي جمعت من مناطق في غرب أفريقيا وغيرها.

وفي وسط كل ذلك الثراء الطبيعي والاصطناعي المنيف كان هنالك «كنز» موضوع في بيت درج يؤدي إلى الطابق الأعلى من الطابق الأرضي للمتحف. كان ذلك «الكنز» يرتدي معطفا ذهبيا مشبكا، وله قدمين طويلتين ذاتا عقد ونتوءات. وكان ذلك «الكنز» يتأرجح في التصنيف بين علم الحيوان zoology وفن تحنيط الحيوانات taxidermy، وبين عالم المخلوقات وعلم الأشياء. كان ذلك «الكنز»هو في الواقع «زرافة» تقف على منصة خشبية قديمة مكتوب في قاعدتها اسمها اللاتيني، متبوعة بعبارة «من دارفور». كانت هدية من باشا مصر. و«عاشت لسبعة عشر عاما ونصف في حظيرة الحيوانات الوحشية».

وفي كلمات أخرى كانت تلك المنصة الخشبية تشهد بأن هذه الزرافة زرافة سودانية تحتل مكانها في بيت درج في لا روشيل. وعند تتبع ذلك الخيط يجد المؤرخ كثيرا من الدراسات الأكاديمية والشعبية التي تملأ الفراغات في قصة تلك الزرافة. فقد كانت تلك الزرافة هدية من حاكم مصر العثماني (والذي أستقل عمليا عن الخلافة العثمانية) لشارل العاشر ملك فرنسا. وكان الرجل الذي أوحى لمحمد علي بفكرة تلك الهدية، والذي قام بشرائها هو رجل بيومنتي من تورينو بشمال غرب إيطاليا اسمه برناردينو دروفيتي (١٧٧٦ - ١٨٥٢م). وكان الرجل يعمل في وظيفة قنصل فرنسا في الإسكندرية، ويعمل أيضا مستشارا خاصا لمحمد علي، ويصنفه البعض على أنه «دبلوماسي انتهازي»، ويعده آخرون مجرد «لص مقابر» و«رجل أعمال فاسد»تخصص في نهب الكثير من المومياوات المصرية والحيوانات المحنطة وبيعها لمتاحف أوربا الرئيسة مثل متحف اللوفر. غير أن

دروفيتي كان يتاجر أيضا في العينات الحيوانية والنباتية والجيولوجية، والتي كان يبيعها لأثرياء الأوربيين الذين شغفوا بجمع تلك العينات، جريا على عادة (موضة) تملك القطع العلمية الغربية التيسادت في ذلك العصر. وقد سبق للرجل أن تاجر في البضائع السودانية من قبل، فبعث بعدد من الخيول الدنقلاوية إلى ملك سردينيا، وبدرزينة من الخراف النوبية البيضاء الصوف إلى مستشار روسيا رومانزوف.

وفي عام ١٨٢٤م أقنع دروفيتي محمد علي باشا بأن هدية مذهلة لشارل العاشر ستكسبه بلا ريب ود كل الفرنسيين. وكانت لفرنسا مصالح مهمة في مصر، وكان لها أيضا فيها اهتمامات متنوعة. ففي عام ١٨٢٢م كان شامبليون (١٧٩٠ – ١٨٣٢م) قد حل شفرة ما هو منحوت على حجر رشيد. وكان الملك شارل العاشر قد أصدر أمرا لوزارة خارجيته لتناشد كل قناصل فرنسا في الخارج، وكذلك المواطنين الفرنسيين المسافرين لبقاع العالم المختلفة، العمل على تزويد حديقة باريس النباتية ومتحف التاريخ الطبيعي الملحق بها بما يجمعونه من غريب النباتات والحيوانات. وفي تلك السنوات أيضا كان محمد علي باشا يقوم بمغامرات خطرة، وفي أشد الحاجة للحصول على التأييد الخارجي، أو على الأقل لتقليل معارضة الدول الأجنبية لمغامراته. وشملت تلك المغامرات مساعدته للجيش العثماني لقمع ثورة «المتمردين» (الوطنيين) المشاركين في «ثورة اليونانيين» (حرب استقلال اليونان التي دارت بين عامي ١٨٢١ – ١٨٣٢م)، وهي الحرب التي بدا أن فرنسا وبريطانيا كانتا تقفان فيها بجانب اليونانيين. وبالإضافة لذلك كان محمد علي باشا منهمكا في بناء إمبراطوريته الشخصية. ففي عام ١٨٢١م بعث محمد علي بابنه اسماعيل باشا لغزو السودان، بادئا عصرا من الحكم الاستعماري عرف عند المؤرخين بـ«التركية» أو العهد التركي – المصري (١٨٢١ – حوالي ١٨٨٥م) في السودان. وفي ذات السنوات كان محمد علي يفكر في غزو سوريا (وكانت من ضمن ممتلكات الخلافة العثمانية) وبعث لها بابنه إبراهيم باشا غازيا في ١٨٣١م).

وبحكم سيطرة محمد علي باشا على السودان في تلك السنوات، فقد كان بمقدوره إصدار أوامره من مصر لقادته في الخرطوم لاصطياد ورعاية وترحيل زرافة صغيرة السن وإرسالها لفرنسا. وقد عرف محمد علي بقسوته المفرطة، فقد كان قد ذَبَّحَ منافسيه من المماليك غدرا، وبالجملة، بعد أن كان قد دعاهم لوليمة في قلعته بالقاهرة في ١٨١١م. وكان قد كون له جيشا من المجندين الإلزاميين يهاب الالتحاق به الفلاحون المصريون، فبلغ بهم الحال أن كان الواحد منهم على استعداد لفقأ عينيه أو تشويه أعضائه من أجل الإعفاء من التجنيد في ذلك الجيش. ومن تلك القصص المرعبة يتضح أن أمرا من حاكم بمثل تلك القسوة لابد أن يؤخذ على محمل الجد، حتى وإن لم يتعلق الأمر بأكثر من اصطياد زرافة.

ولكن من أين جلبت تلك الزرافة؟ تذكر المنصة الخشبية التي كانت تقف عليها الزرافة أنها جلبت من دارفور في غرب السودان، والمجاورة لتشاد الحالية. غير أن هنالك روايات تم تداولها في القرون التاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين بأن تلك الزرافة قد جلبت من كردفان، في وسط السودان، بينما تقول مصادر أخرى أنها اصطيدت من منطقة تبعد ٢٠٠ ميل جنوب شرق سنار، وبالقرب من الحدود مع أثيوبيا، بينما زعم أحد المؤرخين الفرنسيينأنها كانت قد أحضرت من «سنار، تلك المديرية الجبلية في النوبة» (ولعله يخلط هنا بين منطقة النيل الأزرق حيث تقع سنار، ونهر النيل حيث أرض النوبة في أقصى شمال السودان). وكتب رجل أمريكي في ١٩٩٨م عن قصة تلك الزرافة ووصفها بأنها «مصرية»، ربما لمرورها عبر مصر (تحت قيادة محمد علي) وهي في طريقها لفرنسا، ووصف من قاموا باصطيادها بأنهم «عرب». وتذكرنا تلك التسميات المتباينة بنظرة الأجانب للسودان عبر القرون. فلم يكن السودان لكثير منهم غير مكان شاسع شديد الغموض والالتباس يجاور مصر جنوبا. وكانت كلمات مثل «سوداني» و«مصري» و«نوبة» و«عرب» تستخدم دوما بصورة مختلفة وغامضة وعديمة التحديد.

وكان الزراف كثير العدد في السودان في العشرينيات من القرن التاسع عشر. لذا فإن زرافتنا الجميلة كان يمكن أن تأتي من أماكن عديدة بالبلاد، إذ أن ذلك النوع من الحيوانات كان يكثر في غالب المناطق جنوب الخرطوم، وحتى ما يعرف الآن بجنوب السودان، وكان يوجد بكثرة كذلك في المناطق شرق الخرطوم (منطقة النيل الأزرق) وغرب الخرطوم (كردفان ودارفور). غير أنه من المرجح أن هذه الزرافة كانت قد جلبت من منطقة النيل الأزرق جنوب شرق سنار، وذلك لسهولة ترحليها للخرطوم عبر النيل الأزرق.

بدأت رحلة «الزرافة الجميلة» في نهايات عام ١٨٢٥م من حيث اصطيدت، ونقلت للخرطوم في بدايات ١٨٢٦م، ثم نقلت للإسكندرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. ومن هناك أبحر بها لميناء مارسيليا على شاطئ فرنسا الجنوبي في ٢٣/ ١٠/ ١٨٢٦م. ورافق الزرافة في رحلتها رجلان سودانيان كانا يقومان على رعايتها، كان أحدهما هو حسن البربري، وصفه أحد المؤرخين بأنه «نوبي»، بينما ذكر مؤرخ آخر أنه «عربي»، بينما زاد آخر في الوصف فذكر أنه «عربي من الصحراء»، وزعم آخر بأنه «بربري من سنار». أما المرافق الآخر (أتير؟ Atir) فقد وصف بأنه «خادم زنجي» و«عبد سابق» لدروفيتي،أو«سوداني زنجي» من دارفور. وهنا نجد أنفسنا نلحظ الالتباس والخلط والغموض الذي كان يسود تاريخ وهويات السودانيين. وتعكس الطريقة التي وصف بها المؤرخون الغربيون الرجلين الذين رافقا تلك الزرافة مدى الالتباس والتغير الذي حدث في تصورات الأوربيين فيما يتعلق بلون بشرة السودانيين ودرجات سوادها، وهويتهم الدينية (إسلامية كانت أم غير إسلامية)، ولغاتهم، وطرائق حياتهم، ووضعهم من حيث العبودية، وعبوديتهم السابقة وحريتهم.

قاصدة باريس: الزرافة الملكية وحاشيتها

عد كثير من مستقبلي السفينة التي أقلت تلك الزرافة إلى ميناء مارسيليا أنها زرافة

«مصرية». ولا غرو، فقد كانت هنالك جالية مصرية كبيرة بالمدينة تتكون ممن كانت تطلق عليهم الحكومة الفرنسية «اللاجئين المصريين»، وكانوا خليطا من المسلمين والمسيحيين الناطقين بالعربية من الذين تعاونوا مع جيش نابليون والجنرال جان باتيست كليبر (١٧٥٣ – ١٨٠٠م) والذي شارك في حملة نابليون، في سنوات الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨ – ١٨٠١م). وهرب هؤلاء المصريون المتعاونون السابقون مع أفراد الجيش الفرنسي المنسحب في عام ١٨٠١م، واستقروا في مدينة مارسيليا حيث ظلوا يتلقون معاشات من الحكومة الفرنسية. وكان هؤلاء «المصريون» في الواقع خليطا من أناس من أصول مختلفة: فقد كان بعضهم من المصريين الأصليين من المسلمين والمسيحيين (الأقباط)، والسوريين المسيحيين (خاصة من الكاثوليك)، والمسلمين من أصول «عثمانية» مختلفة، مع عدد من السودانيين «الخدم» أو الرقيق الذين رافقوا مالكيهم في المنفى.

وحلت السفينة التي أقلت تلك الزرافة بمارسيليا قبل نحو نصف عام من وصول سفينة أخرى من مصر محملة بأول دفعة من المبتعثين المصريين الذين أرسلهم محمد علي لفرنسا لتلقي دراسات مهنية ليعودوا بعدها لمصر للمساهمة في تطوير البلاد. وكان من أشهر هؤلاء المبعوثين (وعددهم ٤٠) هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣م) الذي يعد علما من أعلام النهضة المصرية، وأحد منظري الوطنية المصرية. وكان رفاعة قد بعث للسودان (ربما منفيا) بعد سنوات من عودته لفرنسا، وسجل طرفا من ذكرياته في السودان في أحد كتبه (قضى رفاعة أربع سنوات في السودان بين عامي ١٨٥٠ و١٨٥٤م. ورغم أنه أنجز ترجمة عربية لمسرحية فرنسية في غضون تلك السنوات، إلا أنه لم يكن سعيدا بإقامته في السودان، وتنسب إليه قصيدة مقذعة الهجاء للسودان وأهله وطقسه. المترجم). ويدل استدعاء تلك الصلات بين مصر وفرنسا والسودان، وبين المتعاونين مع جيش نابليون من المصريين، والزرافة والطهطاوي (والتي ربما كانت قد وقعت بمحض لصدفة) كيف أن المتغيرات في مسار الهجرة بين وادي النيل وفرنسا كانت تمضي بمعدلات متسارعة.

وقضت الزرافة بضعة شهور في مارسيليا حتى انقضى فصل الشتاء. ثم بدأت بعد ذلك رحلتها إلى باريس في يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٢٧م مشيا على الأقدام في صحبة راعييها حسن وعاطر. وكان تحت رعايتهما أيضا عدد من الحيوانات الأخرى التي بعث بها دروفيتي كهدايا للملك شارل العاشر: ظبي وأروية (أنثى الوعل) ورو (نوع من الغزلان) مجلوبة من جزر الكناري.

وكان يرافق تلك القافلة عالم فرنسي متخصص في علوم الأحياء هو اتني جريجوري سانت هيلاري (١٧٧٢ - ١٨٤٤م) والذي أسس لنظرية اسماها Transformism، وهي تعتمد على دراسة التشريح المقارن للمخلوقات الحية وتلك التي انقرضت. وقد سبق سانت هيلاري عالم الطبيعة البريطاني داروين صاحب نظرية التطور في مثل ذلك المنحى من التفكير. وكان ذلك العالم قد رافق نابليون في حملته المصرية عام ١٧٩٨م، وسمي باسمه شارع كبير في باريس بالقرب من مسجد باريس الكبير ومتحف التاريخ الطبيعي. وكان الرجل قبل مرافقته لتلك الزرافة يحاول شراء عينات من عالم طبيعة إنجليزي بغرض جمعها وعرضها في متحف. وفي سلوك ذلك العالم الفرنسي يتجسد لنا اجتماع الإمبريالية والعلم وإنشاء المتاحف في شخص واحد، وتتضح لنا أيضا توجهات الفرنسيين للبروز في العالم كقوة مادية في مختلف المجالات تنافس بريطانيا في هذا القرن التاسع عشر.

ومضت الاستعدادات قدما لتسيير القافلة القاصدة لباريس. وهنا قرر اتني جريجوري سانت هيلاري أنه يحتاج لمترجم ليسهل عملية التفاهم مع السودانيين المكلفين برعاية الزرافة. ورشح له لتلك المهمة «لاجئ مصري» من المهاجرين في مرسيليا يدعى جوزيف (ويسمى أيضا يوسف) عبيد، وهو ابن جندي مسيحي حارب مع نابليون في مصر، ثم انضم إلى فيلق «المماليك» في فرنسا، وهو فيلق من القوات الإمبريالية كان جنودها يعتمرون عمائم شرقية (وكان ذلك الزي من ضمن فانتازيا نابليون الاستشراقية). وقرر اتني جريجوري

سانت هيلاري أيضا أن الزرافة بحاجة إلى «ملابس مناسبة» تقيها شر عوامل الطبيعة. وكانت تلك الزرافة قد حلت بمارسيليا قادمة من مصر عارية إلا من حجاب/ تميمة كتبت عليها آية قرآنية معلقة حول عنقها، أصر محمد علي باشا - ومن باب التبرك - على أن تمسح أولا على جدار ضريح السيدة زينب. غير أن العالم الفرنسي سانت هيلاري صمم لتلك الزرافة معطف مشمع واق من المطر ليقيها شر البلل. وصمم ذلك المعطف من القماش الأزرق الملكي، ورسمت على جانب منه زهرة الزنبق شعار الإمبراطورية الفرنسية، بينما رسم على الجانب الآخر شعار محمد علي باشا. وجسدت الزرافة وهي تسير الهوينى مرتدية ذلك المعطف شمالا نحو باريس رمزا متحركا للملك شارل العاشر، وجسدت أيضا العلاقة القوية بين مصر وفرنسا. ولم يكن إلباس الزرافة ذلك الزي المخصوص أمرا اعتباطيا. فبحسب ما ذكره أحد مؤرخي المنسوجات فقد كان ذلك المعطف مماثلا لطقس ملكي كان يمارس قديما، تلبس فيه الأميرات الأجنبيات القادمات لفرنسا معطفا بذات اللون والتصميم، وهن على الحدود الفرنسية قبل دخولهن لفرنسا للاقتران بأحد أمراء آل البوربون الملكية. ومثلها مثل أولئك الأميرات الأجنبيات القادمات لفرنسا، كتب على تلك الزرافة أن تهجر مسقط رأسها وللأبد، وأن تنتمي من هنا فصاعدا لفرنسا.

وتبعد مدينة مارسيليا نحو ٨٨٠ كيلومترا عن باريس، وكانت رحلة حاشية الزرافة تسير نحو ٢٠ إلى ٢٤ كيلومتر كل يوم. وعبرت الحاشية مدنا مثل أفنيون وأورنج وفيين وليون وغيرها قبل أن تصل لباريس. واصطفت جموع الناس بالمئات، وتسلق بعضهم في الأشجار، بينما وقف البعض الآخر على أسطح المركبات، وامتلأت الساحات، لمشاهدة تلك الزرافة. وأضطر العالم سانت هيلاري لتعيين حراس يحيطون بالزرافة بعد أن لاحظ الحاجة لحماية الزرافة من أيدي «المعجبين» وغيرهم. ولم تتأخر الزرافة عن مبادلة معجبيها ودا بود، فطفقت تخرج لسانها وتلعق به من يقترب منها. وعند وصول الزرافة وحاشيتها لباريس في نهايات عام ١٨٢٧م كان في استقبالها عالم تشريح مقارن شهير هو جورج كوفييه

(١٧٨٣ – ١٨٤٢م) في رفقة صديقه الروائي المشهور ستندال (١٧٦٩ – ١٨٣٢م). غير أن الملك لم يحضر شخصيا، إذ أن زوجة ابنه، ماري تيريز شارلوت دو فرانس (١٧٧٨ – ١٨٥١م، والطفلة الأولى لماري أنطوانيت ولويس السادس عشر، والمشهورة بتدقيقها في الألقاب وأصول البروتكول) أصرت على ألا يذهب ملك فرنسا للقاء زرافة أهديت إليه، بل يجب أن تأتي الزرافة إليه. لذا واصلت حاشية الزرافة سيرها نحو القصر الملكي في غرب باريس.

لم تترك الزرافة لتعيش في كنف الملك بل بعث بها لحديقة عامة هي الحديقة النباتية في الحي اللاتيني أو الحي الجامعي التاريخي. وكانت تلك الحديقة قد ورثت كل الحيوانات التي نجت مما حاق بحديقة حيوانات لويس السادس عشر، والذي قطع رأسه في الثورة الفرنسية، وصارت الآن حديقة عامة ومتحفا للتاريخ الطبيعي، يهتم أيضا بالأبحاث العلمية.

وفي أثناء مسيرة تلك الزرافة السودانية شمالا نحو باريس، وفي غضون سنوات بقائها في الحديقة صار الزراف من الأنواع المحبوبة جدا عند الناس في فرنسا، لدرجة أن أحد كتاب سيرة تلك الزرافة (وهو أوليفير ليبلو) كتب عما اسماه الهوس بالزراف (زرافمانيا .(Girafomania وصارت رسوماتها وتصاويرها تظهر في الأواني الخزفية والزجاجية والأقمشة والمنسوجات ولوحات المداخن، والأدوات الشخصية المستخدمة مثل فرش الشعر والأطباق وثقالات الورق وغير ذلك. وتفنن الخبازون في اختراع مكبس لصناعة الكعك والبسكويت على هيئة زرافة، وهو أمر فتن به الأطفال بخاصة. واخترع مُصففو الشعر تصفيفة شعر نسائية اسموها «الزرافة»، بل واسموا وباء الأنفلونزا في أحد الأعوام «انفلونزا الزرافة .«grippedelagiraffe واستخدم الجواهرجيّة تصميم التميمة المعلقة حول عنق الزرافة لصنع قلادة على شكل قلب نالت إعجاب كثير من الفرنسيات. وأطلق بعض الفنانين على اللون البيج المصفر كلمتي «أصفر زرافي». وكان الرسامون وفنانو الطباعة الحجرية يحرصون على رسم الزرافة في رفقة حارسيها السودانيين

بالقرب من نخلة. وكان الحارسان السودانيان، حسن وعاطر، بعمامتيهما الملونتان وجلبابيهما يمثلان تجريدا استشراقيا للرجل «الإفريقي» و«العربي» .

وفي مجال الفنون الجميلة خلد الفنان جاك – ريمون براسات Jacques - Raymond Brascasst في عام ١٨٢٧م مسيرة تلك الزرافة عبر الريف الفرنسي في لوحة زيتية اسماها Passagedelagirafe à Arnay le Duc وهي معروضة الآن في متحف الفنون الجميلة في بونBeauneببورغون / بورجوندي (ويمكن مشاهدة هذه اللوحة، والزرافة في بيت الدرج في متحف مدينة لا روشيل على في الموقع الإسفيري أدناه. المترجم):

http://halleyjc.blog.lemonde.fr/2010...-octobre-1827/

وأنجز النحاتان أنطوان لويس بايري وفرانسوا بومبون عملين من تلك الزرافة في باريس .

وأمتد الهوس بتلك الزرافة إلى الإعلام والأدب المكتوب. فتناول ستندال وألكسندر دوما «الإفريقية الجميلة» في كتاباتهما الإبداعية. وفي أغسطس من عام ١٨٢٧م وصل من ولاية لويزيانا الأمريكية وفد مكون من ستة من الهنود الحمر (الأمريكيين الأصليين) لباريس، فكتب الروائي الفرنسي ونوريه دي بلزاك عن التزامن العجيب في وجود «هؤلاء الهنود» مع «تلك الزرافة» في فرنسا. وفي رواية أخرى أورد بلزاك حوارا متخيلا بين مجموعة الهنود وتلك الزرافة كان غرضه منه نقد الملك شارل العاشر. وكان الوفد الهندي قد قدم من الولاية الأميركية التي كانت الولايات المتحدة قد اشترتها من فرنسا في مهمة دبلوماسية طلبا لعون فرنسا في صراعهم مع حكومتهم. غير أن ذلك الوفد لقي في باريس استقبالا يعوزه الكرامة، فقد صاروا فرجة للغادي والرائح، ونافسوا الزرافة «الإفريقية الجميلة» في الجاذبية الشعبية .

وكان عرض أفراد ذلك الوفد الهندي القادم من ولاية ليوزيانا أمام الجمهور الفرنسي المَشْدُوه، وجعله مصدرا للفرجة في بدايات القرن التاسع عشر يذكرنا بأن قائمة ما كان يجلب ويعرض للجمهور بغرض التسلية والإضحاك في أوربا

يشمل (ولا يقتصر) على الزراف والأسود والأفيال، والبشر أيضا (ونتذكر هنا بيت المتنبئ الشهير: «ومثلك يؤتى به من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا». المترجم). وكانت رؤية المخلوقات التي يؤتى بها من بلاد بعيدة قد ساعدت الحكومات الأوربية الإمبريالية على تهيئة مواطنيها لتقبل فكرة الاستعمار تحت ستار العلم والعقلانية، وعلى زيادة ثقة الجماهير في «معرفة» حكوماتها. ولعل أفضل مثال لذلك الضرب من السياسة الإمبريالية هو ما جرى لامرأة مسترقة من جنوب غرب أفريقيا اسمها سارتجي («سارة») بارتمان (حوالي ١٧٩٠ - ١٨١٥م)، والتي كانت قبل خمسة عشر عاما من ذلك التاريخ قد أحضرت للعرض في أوربا وهي شبه عارية وأطلقوا عليها اسم HottentotVenus.والجدير بالذكر أن العالمين سان هيلاري (والذي قاد موكب الزرافة لباريس) وكوفت (والذي كان في استقبال موكبها بباريس) قد قاما في عام ١٨١٥م، وأمام الجمهور، بتفحص جسد تلك الأَمَة العارية، بدعوى الدراسة العلمية، ودونا في دفتريهما ما اعتبراه أشياء مستغربة مثل ضخامة عَجِيزَتها وغير ذلك (تعج الشبكة العنكبوتية بالمقالات والرسوم التاريخية الساخرة عن قصة ذلك التمييز المبني على الجنس أو العرق والمتدثر بستار العلم والمعرفة، وأيضا عن وجود «حدائق حيوانات بشرية» للسود والمعاقين والأقزام والتوائم السيامية وغيرهم من المخلوقات «الغريبة». المترجم). وبعد حياة قصيرة توفيت تلك المرأة الإفريقية، فقام العالم كوفت بتشريح جثتها، وكتب تقريرا بنتائج ذلك التشريح، نشره في مجلة متحف التاريخ الطبيعي في عام ١٨١٧م، وذلك قبل عقد من الزمان على نشر العالم سان هيلاري لوصفه لـ «زرافة سنار».

ويمكن القول باختصار إن تلك الزرافة السودانية والمرأة الجنوب إفريقية قد أثارتا، وعلى حد سواء، اهتمام العلماء الفرنسيين العظماء (من شاكلة كوفيت وسان هيلاري) كغرائب (أو فلتات) من الطبيعة، وساعدا على اقناع الرأي العام الفرنسي بأنهما خبيران في «الشأن الإفريقي».

ويبقى السؤال هو: لماذا أفتتن الناس في فرنسا كل ذلك الافتتان بتلك الزرافة

السودانية حتى صاروا يضعون صورها على ما يستخدمونه من أدوات وطعام كأقداح الشاي والبسكويت؟ والإجابة ببساطة هي أن الزرافة، وحتى ذلك الوقت، كانت بالنسبة للفرنسيين مخلوقا اسطوريا عجيبا، يعشقونها ليس فقط من أجل شكلها الغريب (إذ أن لها عنق يفوق في الطول عنق أي حيوان آخر من ذوات الثدي في هذه البسيطة)، بل لأنها حيوان بريwildلكنها تمتاز عن الحيوانات البرية الأخرى بلطفها ورقة سلوكها. وبالإضافة لذلك فإنه لم توجد في فرنسا أي سوابق شبيهة بتلك الزرافة إلا نادرا جدا. فعلى سبيل المثال قام المستكشف الفرنسي فرانسوا لو فيلان (١٧٥٣ - 1824 م) باصطياد زرافة في جنوب أفريقيا وأرسل جلدها ليعرض في فرنسا عام ١٧٨٥م، وكانت تلك أول مرة يبعث بزرافة نافقة إلى فرنسا. وقام خبراء التحنيط الفرنسيين، ولقلة علمهم بتشريح أعضاء الزرافة، بحشو جلد تلك الزرافة، وكانت النتيجة هيئة حيوان لا يشبه الزرافة من قريب أو بعيد، كما تشهد بذلك الرسمة الزيتية لذلك الحيوان المحشو والمعروضة في متحف الحديقة النباتية. ويذكر في باب تاريخ الزراف في فرنسا أن ابنة الإمبراطور لويس الحادي عشر قد حاولت جلب زرافة لفرنسا غير أنها فشلت في مسعاها، وأن الإمبراطور لويس التاسع (والذي عد، بحسب ما جاء في موسوعة الويكيبيديا، قديسا فيما بعد وفاته بتونس في ١٢٧٠م عند قيادته لحملة صليبية هدفها حمل سلطانها الحفصي لاعتناق المسيحية) كان يمتلك تمثالا صغيرا لزرافة مصنوعا من الكريستال. غير أن كل ذلك لم يكن يعادل نظرة واحدة من تلك «الإفريقية (السودانية) الجميلة» الحية بشحمها ولحمها، وهي تحط على الأرض الفرنسية في ١٨٢٧م، حين خلبت ألباب العامة (والخاصة أيضا) وأثارت مشاعرهم وهي تأكل من أيديهم.

ويجدر بالذكر القول بأن عملية إهداء محمد علي باشا تلك الزرافة لملك فرنسا لم تكن أمرا بَدْعًا، فقد كانت الحيوانات البرية النادرة والغريبة مثل الأسود والأفيال ووحيد القرن تعد عملة دبلوماسية شائعة في ذلك الزمان (وقبل عقود قليلة، وتحديدا

في نوفمبر ١٩٦٢م، زار الرئيس اليوغسلافي تيتو السودان، وأخذه الفريق إبراهيم عبود في زيارة لحديقة الحيوان، وقام تيتو بإهداء تلك الحديقة دبا أبيض اللون كنا نراه يتبطح على ألواح من الثلج في صيف الخرطوم اللاهب. المترجم).

السودان كمصدر للزراف

أثبتت عدد من الدراسات الأثرية في أرض النوبة في العهد المروي وجود رسومات منحوتة في الصخور لزراف وأفيال. وأثبتت الأبحاث أيضا أن تلك الحيوانات قد انقرضت في تلك المنطقة قبل نحو ٥٠٠٠ عاما. ومعلوم أن عائلة الزراف كانت موجودة في أوربا وآسيا في سنوات العصر الحديث الأقربPleistoceneeraقبل نحو ١٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠٠ عاما تقريبا. غير أن الزراف كان حيوانا نادرا حتى في مصر الفرعونية، ولكنه كان موجودا، وبكثرة، في السودان، حيث كان يصدر لمصر عبر نهر النيل، ومنها يهدى للملوك في أوربا وآسيا. وكان ذلك عكس ما كان يحدث في المناطق الأفريقية (مثل النيجر) التي يكثر فيها الزراف وما من سبيل لتصديره .

ومن أشهر الأوربيين الذين استفادوا من زراف السودان هو قيصر روما والذي ظهر في موكب انتصار له في روما وهو على ظهر زرافة (أحضرها معه من الإسكندرية، وهي سودانية بلا ريب) في حوالي عام ٤٦ قبل الميلاد، وكتب عن ذلك المشهد كتاب وشعراء مثل بيلينيوس وهوراس (انظر المقال المبذول على الشبكة العالمية في هذا الرابط:

http://penelope.uchicago.edu/~grout/...s/giraffe.html

وتواصل ذلك الاتجاه حتى العصر الإسلامي حين عقدت اتفاقية البقط عام ٦٥١ م بين حكام مصر المسلمين ومملكة المقرة المسيحية، والتي تعد من أهم أسباب أسلمة وتعريب شمال السودان. وورد الزراف في تلك الاتفاقية حيث نصت على أن يدفع حكام المقرة لحكام مصر جزية سنوية تشمل ٤٠٠ من الرقيق

وعددا من الجمال وفيلين وزرافتين. وتم تعديل بنود تلك الاتفاقية في عهد الخليفة الفاطمي المهدي (حوالي ٧٧٥ – ٧٨٥م) لتصبح الجزية السنوية ٣٦٠ من الرقيق وزرافة واحدة. وفي عهد المماليك شملت الجزية في عام ١٢٧٥م ثلاثة زرافات وثلاثة أفيال وفهود وجمال وثيران. ومهما يكن من تذبذب أعداد الزراف المنصوص عليه في الاتفاقية فقد كان واضحا أن الزراف بقي عملة مهمة. فقد كان عرضها للعامة في الاحتفالات مصدرا للفخر عند الحكام الفاطميين والمماليك، مثلما كان عند حكام الرومان. ويدخل ذلك في باب ما سماه عالم الاجتماع الأمريكي الناقد للرأسمالية ثورشتاين فايبلين بـConspicuousconsumption

ولم يصدر السودان الكثير من الزراف بسبب صعوبة ترحيل هذا الحيوان ونقله حيا بأمان لمسافات طويلة. ويبدو أن أفضل وسيلة عملية لفعل ذلك هو استئناسه. ولا يمكن استئناس الزراف إلا إذا تم اصطياده وهو صغير جدا حتى يعتاد على التعامل مع البشر ويغدو حيوانا أليفا صديقا .(pet) غير أن نقل صغير الزراف يتطلب أيضا توفر كمية كبيرة نسبيا من اللبن. فقد ذكر من رعيا الزرافة التي أهديت لملك فرنسا (حسن وعاطر) أنها كانت تستهلك يوميا ٢٥ جالونا من اللبن. وأتى ذلك اللبن من النوق أولا، ثم صار يأتي من الأبقار. ولهذا تقرر أن ترسل ثلاث بقرات مع تلك الزرافة في رحلتها من الإسكندرية لمرسيليا. وبيعت إحدى تلك الأبقار في مرسيليا لشراء معطف لتلك الزرافة! وتظهر البقرتان الباقيتان في لوحة الفنان جاك – ريمون براسات عن مسيرة تلك الزرافة من مارسيليا لباريس، والمسماة PassagedelagirafeàArnay le Duc

وكان السوداني حسن البربري (والذي رافق تلك الزرافة في رحلتها لفرنسا) يعمل سائسا وراعيا في مزرعة «الدبلوماسي الانتهازي» دروفيتي بالإسكندرية. وقد سبق له السفر مع زرافة أخرى أهداها محمد علي باشا للسلطان العثماني محمود الثاني (١٧٨٤ – ١٨٣٩م). وكانت تلك هي أول زرافة تحط رحالها في

إسطنبول. غير أن تلك الزرافة ماتت في عام ١٨٢٣م. ويزعم حسن البربري أن سبب نفوقها هو الجوع وليس المرض، إذ أن أعوان السلطان كانوا قد تجاهلوا طلبات حسن لكميات كبيرة من اللبن لتغذية الزرافة المهداة. ولهذا نصح حسن دروفيتي بأن يطلب من محمد علي باشا توفير أبقار تمدها باللبن في رحلتها الطويلة.

وتذخر الأدبيات التي كتبت عن تلك الزرافة، وعلى مدى عقود طويلة، بالكثير عن مسيرتها وحياتها. وحاول في بداية التسعينيات باحث أمريكي هو مايكل ألن MichaelAllinتتبع رحلة تلك الزرافة. وكان سؤاله عنها في الخرطوم محل شك وريبة في مراميه ومن يقف ورائه (كما يحدث عادة للبحاث الأمريكيين في السودان، والذين يتم اتهامهم ومنذ لحظة وصولهم بأنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية، وهذا بالطبع انعكاس للأحوال السياسية القائمة وتعقيداتها ومخاوفها الوطنية والعالمية، وهذا من شأنه أن يؤثر على الأبحاث). وكان كثير من الأكاديميين السودانيين يتحاشون الحديث مع الباحث الأمريكي ألن، إلى أن عثر أخيرا على باحث سوداني متميز في جامعة الخرطوم هو بروفيسور جعفر ميرغني، والذي كان قد درس حالة مشابهة وهي ترحيل وحيد القرن من الخرطوم إلى لندن في عامي ١٨٤٩ – ١٨٥٠م. ومما قاله بروفيسور جعفر ميرغني للباحث الأمريكي أن رحلة تلك الزرافة لفرنسا عبر النيل لابد أنها بدأت مع ارتفاع منسوب النهر في فصل الربيع، وأنها لابد أن تكون قد نقلت على صنادل، وأنها أنزلت وأعيد تحميلها على تلك الصنادل عند الشلالات التي توجد عند الحدود السودانية - المصرية الحالية (بخلاف الحال مع الرقيق، والذين كانوا ينقلون لمصر سيرا على الأقدام). ولعل هذه الطريقة في الترحيل هي ذات الطريقة التي تم بها ترحيل الزرافة التي نقلت من السودان وانتهى بها المطاف في حديقة الملكة حتشبسوت في حوالي عام ١٥٠٠ قبل الميلاد.

أما الملك شارل العاشر (والذي أهداه محمد علي باشا «الإفريقية الجميلة»)

فقد مات منفيا في عام ١٨٣٦م بدولة سلوفينا الحالية. أما هديته تلك، الزرافة السودانية، فقد بقيت منعمة في الحديقة النباتية بباريس، وظل يفد لرؤيتها مئات النظارة يوميا. وكانت تعيش على العشب والخضروات، إضافة لما يحلب لها من لبن البقرتين المصريتين اللتان رافقتاها في رحلتها من الإسكندرية لمارسيليا. وعاد راعيها حسن البربري لمصر بعد أن وصلت الزرافة لباريس. غير أن الراعي الآخر عاطر بقي مع زرافته لعشر سنوات قادمة، وكان ينام ليلا (أو بالأحرى فجرا) على مسطبة بالقرب من حظيرتها في الحديقة إلى أن عاد لوطنه. وورد في بعض المصادر أن عاطر عشق الحياة الباريسية الليلية وتعلم اللغة الفرنسية، وصار – بحسب بعض التقارير الشرطية – مغرما بمصادقة الفتيات الباريسيات، والعودة فجرا لمخدعه في الحديقة بعد مغامراته المثيرة. وكتبت عنه صحيفة لو فيغاروLeFigaroما يفيد بأن القصص المثيرة عن عاطر الأسود ما هي إلا صور نمطية استشراقية عن قدرات الرجل الإفريقي المذهلة.

وماتت «الإفريقية الجميلة» في ١٢ يناير ١٨٤٥م من التهاب رئوي ألم بها عن عمر ناهز الحادي والعشرين عاما. وتم تشريح جثتها ووضعت أجزاء صغيرة من قلبها ورئتها وأعضائها اللينة الأخرى في محلول فورمالين لحفظه، ثم أخذت عظامها وركبت على شكل هيكل وقدمت هدية لكلية العلوم لجامعة كاين بنورماندي في ١٨٦٩م. وبقيت هنالك إلى حين قيام الحرب العالمية الثانية عندما قام جنود الحلفاء بقصف مقر تلك الجامعة، وحرقت عظام تلك الزرافة من ضمن ما حرق في الجامعة. ولم يبق من تلك الزرافة غير جلدها (القوي)، والذي أعيد حشوه ووضع في متحف بمدينة فردان (وهي المدينة التي قتل فيها في الحرب العالمية الأولى ثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين والألمان).

وتدل الطرق التي حاول بها الفرنسيون الحفاظ على بقايا تلك الزرافة على مدى تقديرهم لها. وبقي حب الناس (خاصة في فرنسا) للزرافة حتى الآن. ففي عام

٢٠١٢م أنتج فيلم رسوم متحركة للأطفال بعنوان «زرافة» نال استحسان الكثيرين لجودة تصويره وإخراجه، ولتعبيره عن روح ما بعد الاستعمار. فمثل في ذلك الفيلم الملك شارل قط سيامي غبي، بينما مثلت الزرافة الجميلة خفيفة الظل على أنها أودري هيبيرن. ويظهر حسن في الفيلم كعربي صارم القسمات، وسيم الطلعة، وشديد الاعتداد بنفسه وهو في جلبابه العربي وعمامته. ولم يظهر الفيلم المسترق السوداني عاطر، بل أظهر عوضا عنه ولد بني اللون أسموه مكي، رافق حسن والزرافة فرارا من غزوة لتجار الرقيق على قرية سودانية. انظر رابط ذلك الفيلم هنا: http://www.imdb.com/title/tt2077908

وفي بدايات القرن العشرين كان صيد الزراف (وليس استلامه حيا كهدية) هو مما يزيد من هيبة (بيريستيج) الرجل الأوربي (وليس المرأة الأوربية، فصيد الحيوانات البرية هواية/ غواية رجالية محضة، ودليل مفترض على «الرجولة»). وكان السودانيون يصيدون الزراف ولكن بقصد أكل لحومها واستخدام جلودها، وليس للتلذذ بقتلها أو لتصديرها مثلما يفعل الغربيون. ويمثل رجل مثل الرئيس الأمريكي السابق ثيودور (تيدي) روزفلت (١٨٥٨ – ١٩١٩م) تلك المثالية مفتولة العضلات .(machoideal) وعرف ذلك الرجل بتيدي، والتي أتى منها تعبيرTeddybearبعد أن رفض أن يطلق الرصاص على دب مربوط على شجرة، واشتهر أيضا بمقولة «تحدث بلطف وأحمل عصا غليظة». وعند زيارته لجنوب السودان وكينيا وأوغندا قام تيدي بقتل عدد كبير من الحيوانات البرية شملت ٢٩٦ حيوانا منها ٧ زرافات و٨ أفيال و٢٠ حمارا وحشيا، رغم أن الرجل برر قتله لتلك الحيوانات بأنه سيهديها لمتحف الاسماثونين في واشنطن.

عرض لكتاب الجندرية البريطانية إنا بيزيلي

«الناس والأماكن والتعليم في السودان»

Before the wind changed: people, places and education in the Sudan

M. W. Daly مارتن وليام دالي

مقدمة: هذه ترجمة للعرض الذي نشره عام ١٩٩٣م البروفيسور مارتن وليام دالي (1950م -) في العدد ٥٦ من مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، لكتاب مفتشة التعليم البريطانية د. انا بيزيلي (١٨٩٨ - ١٩٩٤م) المعنون:

Before the wind changed: people, places and education in the Sudan

ويعد بروفسيور دالي من أشهر مؤرخي الشرق الأوسط والسودان المعاصرين، وله عدد كبير من المقالات والكتب المشهورة عن مختلف جوانب التاريخ والسياسة السودانية لعل آخرها كان كتاب «أحزان دارفور». أما دكتورة إنا بيزيلي فقد أتت للسودان مفتشة لتعليم البنات بأمدرمان بين عامي ١٩٣٩ - ١٩٤٢م، ثم مراقبة لتعليم البنات في الخرطوم حتى عام ١٩٤٩م حين تقاعدت عن العمل بالسودان. وكان قد سبق لها العمل محاضرة بجامعة رانقون في بورما وجامعة نوتنقهام وكلية ماريا قراي ببريطانيا. وللمزيد من المعلومات عن تلك السيدة الرائدة يمكن الاطلاع على نص محاضرة البروفيسور رقية مصطفى شرف * في جامعة درام عن انا بيزيلي والمعنونة:

Ina Beasley: Her Perspectives on Women's Prospects in British Sudan

المترجم

**** **** ****

يدرك طلاب التاريخ الحديث للشرق الأوسط وأفريقيا مقدار الكم الهائل من الكتابات الذي أنجزه المسئولون البريطانيون في السودان. وأتت تلك الكتابات – ومعظمها مذكرات شخصية وتاريخ شعبي – بأقلام العاملين في القلم السياسي، والذين صرموا ساعات وحدتهم الطويلة في المناطق النائية، أو سنوات ما بعد التقاعد في الكتابة والنشر. غير أن قليلا جدا من الموظفين الأقل رتبة والفنيين هم الذين قاموا بكتابة أو نشر مذكراتهم. وتعد انا بيزيلي واحدة من أهم هؤلاء. ويعد كتابها الذي نحن بصدد عرضه أحد أهم المصادر الغنية عن فترة الحكم الثنائي.

لقد عملت تلك السيدة مفتشة في قسم تعليم البنات من عام ١٩٣٩م إلى ١٩٤١م بأمدرمان، ثم مراقبة عامة لتعليم البنات بالخرطوم من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٩م. وبذا فإن فترة عملها كانت قد امتدت من بدايات الحرب العالمية الثانية إلى نهايتها، وهي فترة تميزت بحدوث تغيرات سياسية واجتماعية متسارعة كان من ضمن نتائجها نيل السودان لاستقلاله في عام ١٩٥٦م. وأتت انا بيزيلي البريطانية للسودان وهي تحمل أعلى درجة أكاديمية في التعليم (دكتوراه)، وخبرة عملية في بورما لتعمل في مجال تعليم البنات في مجتمع مسلم تقليدي. وهي بتلك الصفات مؤهلة لملاحظة جوانب عديدة في حيوات أفراد ومجموعات المجتمع السوداني (والإنجليزي – المصري) والكتابة عنها، وهذا ما يتجاهله الآخرون أو يغيب عن ملاحظتهم.

ونشر هذا الكتاب، والذي جمعت محررته جانيت ستاركي غالب محتوياته من رسائل المؤلفة ومذكراتها الشخصية، بعد مغادرتها للسودان في عام ١٩٤٩م، وكلها محفوظة الآن في أرشيف مكتبة جامعة درام البريطانية (لم تلتق جانيت ستاركي بالمؤلفة إلا بعد أن بلغت التسعين من عمرها، وذكرت للبروفسير رقية أن ذاكرة انا بيزيلي كانت حتى في تلك السن في غاية الصفاء، وأن انا بيزيلي تعتبر أن ما قامت به في سنواتها بالسودان هو بعض أوجب واجباتها تجاه النساء في ذلك البلد. المترجم).

وقامت المحررة، بالإضافة إلى إيراد نصوص بعض الرسائل وقطع المذكرات، بشرح بعض النقاط الواردة في تلك المذكرات والتعقيب عليها ببعض التوسع. وكانت النتيجة هي كتاب شامل كثير التفاصيل وشديد الدسامة (أحيانا لدرجة التخمة). وبالكتاب وصف لا يخلو من بعض التكرار لزيارات المؤلفة للمدارس المختلفة، ولكنه قد يكون يوما ما مرجعا مفيدا للمؤرخين المحليين. وعلى الرغم من أن الزيارات التفتيشية التي قامت بها الكاتبة للمدارس في المناطق المختلفة مما قد يعد أمرا روتينيا، إلا أن قدرتها على التغلغل في المجتمع السوداني ومعرفة الكثير من دقائق شئونه الداخلية، تعطي تلك التفاصيل التي أوردتها المؤلفة أهمية كبيرة عند الدارسين للحياة اليومية في السودان في تلك السنوات، خاصة وأن مذكرات السياسيين البريطانيين لا تتعرض عادة لمثل تلك الأمور.

وتكمن أهم نقاط قوة الكتاب في تناوله لكثير من الشخصيات (السودانية). ومن أكثر أقسام الكتب متعة وفائدة هي ما أوردته المؤلفة عن السيد عبد الرحمن المهدي وعدد آخر من القادة الدينيين والسياسيين.

ولا بد أن مخطوطة بمثل ضخامة ما تركته المؤلفة من رسائل ومذكرات تشكل معضلة لأي محرر. وقسم هذا الكتاب - بصورة عامة تفتقر للتخصص - إلى تسعة فصول، وقسم كل فصل فيه إلى عدد من الأقسام، ربما بأكثر مما يحتمل الفصل الواحد. ولكن مما يخفف من صعوبة البحث في ذلك الكم الهائل من المعلومات هو وجود ثبت متقن بأسماء الأعلام، وآخر بأسماء البلدان والمناطق ليس فيه غير قليل من الهنات. غير أنه يجب القول بأن المحررة قد أسرفت في الحواشي التي غمرت بها الكتاب، بل وكررت ما ورد فيها مرات عديدة دونما داع. أما الخرائط في الكتاب فبعضها قد عفا عليها الزمن، وقليل منها تصعب قراءته.

وأتت المحررة في هذا الكتاب بثبت مفيد للمراجع والوثائق ذات العلاقة بموضوعات الكتاب. ومن أهم ما في وثائق الكتاب مذكرتان كتبتهما انا بيزيلي عن ختان الإناث والشلوخ (أوردت البروفيسور رقية مصطفى شرف صورا لهما في

محاضرتها المشار إليها آنفا. المترجم). ويوجد بالكتاب أيضا ملحقان سطرتهما المحررة تضمنتا معلومات ببيليوغرافية قيمة عن العاملين بمصلحة المعارف، ومذكرة تاريخية (بها احصائيات لا تخلو من بعض التخليط في صفحة ٤١٩) عن تعليم البنات بالسودان.

إن هذا الكتاب هو أول إصدارة من إصدارات سلسلة الوثائق عن الشرق وإفريقيا، والتي تهدف لنشر المواد التاريخية غير الحكومية الخاصة بالمساهمات البريطانية في تاريخ أقطار الشرق وإفريقيا. وكان اختيار كتاب دكتورة بيزلي لبدء هذه السلسلة اختيارا موفقا بلا شك. إنه تاريخ «من الأسفل frombelow» إلا أنه مهم جدا لتقييم السياسة الإمبريالية البريطانية. فالمؤلفة كمختصة في مجال التربية والتعليم لم تكن تلق بالا في ما تكتب للدفاع عن النظام الاستعماري، بل كانت في غاية الصراحة والحس السليم في عرض آرائها، ولم تلق على القراء أي موعظة أو نصائح.

لقد كانت المؤلفة، وهي امرأة بريطانية (وحيدة) في بلد إفريقي مسلم، في وضع فريد Suigeneris، وكثيرا ما كان تقع بين مطرقة الحاكم وسندان المحكومين. وكانت كثيرا ما تجد أن القاسم المشترك في أي موقف تجد نفسها فيه لم يكن الرتبة أو الدين أو العرق، بل الجنس/ النوع sex ولكل هذه الأسباب فإن هذه المذكرات تعد تجسيدا للمثابرة والتواضع والشجاعة، وستظل مصدرا مهما لدراسة تاريخ السودان الحديث.

*وصفت بروفيسور رقية مصطفى شرف في محاضرتها المذكورةأعلاه الدكتورةانا بيزيلي بأنها جندرية و«إنسانة حقيقية truehumanist»، إذ كانت من أوائل الرائدات اللواتي شجعن – وبوعي ثقافي مدرك للأوضاع الاجتماعية السائدة - نساء السودان على التعليم، وأيضا على مجابهة الاستبداد والهيمنة الرجالية ومختلف أنواع الظلم الذي وقع/ يقع عليهن باسم التقاليد. غير أن الطريق للتعبير عن تلك الحقوق كان مليئا بالتعقيدات واستحالة الاختراق / اللااختراقية impenetrability.، مما تطلب عمل استراتيجيات عالية الحساسية

والكفاءة والفعالية من أجل تغيير واقع المرأة السودانية، وما كان يمارس عليها من ممارسات وحشية. وأشادت بروفيسور رقية أيما إشادة بدور انا بيزيلي الكبير في مجال التاريخ الاجتماعي لحقوق الإنسان (خاصة النساء والأطفال) في سنوات الحكم الاستعماري بالسودان. وذكرت أن تلك الرائدة كانت ترى أن أي تقدم في مجال تلك الحقوق يجب أن يشمل الرجل السوداني، فقد كتبت مذكرة في يوم ٢٤ / ١/ ١٩٤٦م لمدير مصلحة المعارف تطلب منه تحديدا استشارة السيد/ إبراهيم أفندي أحمد في أمر يخص تعليم الأطفال لأنها سمعته يقول يوما في أحد الاجتماعات ما نصه: «يجب أن نفكر في الأطفال أولا»، (وهو أمر قد يبدو بدهيا اليوم، لكنه كثيرا ما كان شيئا مجهولا / متجاهلا في تلك السنوات. المترجم).

وذكرت بروفيسور رقية بأن انا بيزلي كانت قد وصلت للسودان عام ١٩٣٩م دون مرافق (من زوج أو غيره) وتركت ابنتها الوحيدة خلفها في مدرسة داخلية بإنجلترا، وشاركت امرأة بريطانية أخرى السكن بقرب كلية المعلمات في المنطقة التاريخية التي بنيت فيها قبة المهدي. وأتت تلك السيدة للسودان من بورما لأسباب شخصية ذكرتها منها رغبتها في العمل خارج بريطانيا (بغض النظر عن الدخل المادي) في وظيفة تتيح لها عطلة صيفية طويلة تقضيها مع ابنتها الوحيدة في إنجلترا. وتعلمت العربية بسرعة واجتازت امتحانها المقرر في عام ١٩٤١م.

ولا يعرف الكثير عن أوضاع النساء البريطانيات في السودان سوى ما ورد في كتاب «صور من الإمبراطورية» وكتاب «حكايات السودان: ذكريات زوجات الموظفين البريطانيين بالسودان بين عامي ١٩٢٦ – ١٩٥٦م» (وقد عرضنا من قبل لبعض فصول ذلك الكتاب. المترجم). ولم يرد في غالب أجزاء الكتاب الأخير غير عرض لحال الزوجات البريطانيات وهن يتبرمن من الحر والوحدة والمعاناة في تعلم لغة أجنبية. غير أن انا بيزيلي تحفظ لبعض أولئك النسوة (مثل زوجة باشمفتش الفاشر) دورها غير الرسمي المميز في ترقية الحياة العامة بالمدينة. وتحفظ انا بيزلي كذلك للشيخ بابكر بدري دوره الريادي في بدء تعليم البنات بالسودان، وتؤمن بأن حصول المرأة على

حقوقها ومساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات لا بد أن يبدأ عبر التعليم.

وكانت انا بيزلي شديدة المراعاة والحساسية لقناعات المجتمع الدينية، ولتقاليد وأعراف أفراده، وسعت لدراسة وفهم التعاليم الاسلامية الخاصة بوجوب حفظ النفس وكرامة جسده، خاصة عند الحديث عن الخفاض الفرعوني. واهتمت بفتوى الشيخ أبو شامة عبد المحمود مفتي الديار السودانية الصادرة في ٢/ ١٢/ ١٩٣٩م والتي تحرم ذلك النوع من الختان، وترى أن ختان الإناث هو أمر مرغوب فيه (desirable) ولكنه ليس إجباريا / ملزما (notcompulsory)، ويجبألا يتعدى قطع جزء من البظر. وعدت إنا بيزلي تلك الفتوى خطوة مهمة نحو التدرج في التحريم الشامل لكل أنواع الختان.

ومن الوثائق التي أوردتها بروفيسور رقية في محاضرتها صورة التعهد المكتوب بخط اليد، والذي وقعت عليه فرقة المعلمات، كورس عام ١٩٤٥م - الدفعة الأولى، (لا ريب بإيعاز من انا بيزيلي. المترجم) والذي جاء فيه التالي:

«نحن الوطنيات المجاهدات نتعهد على أن نخدم وطننا العزيز بأن نبذل كل جهدنا بأن نعمل لصالحه بجرأة وتضحية، وأول ما سنقوم به هو اتباع ما يحبذه زعماؤنا ويستحسنه شبابنا الناهض وفي مقدمته الخدمات الضرورية ... هو أن: نقلع عن أفكار الرجعيين والرجعيات (و) عادة الخفاض الفرعوني المضرة التي تدل على رجعية ووحشية، ولا يعود على الفتيات والمرأة إلا بالضرر البالغ، وسنقوم بهذه الخدمة بما.. لأن في مقدمة من فكروا فيه وجاهدوا وسيجاهدون هم معالي الحاكم العام وصاحبي السيادة السير السيد علي الميرغني باشا، والسير السيد عبد الرحمن المهد باشا، ومولانا مفتي الديار السودانية، والأطباء الوطنيين ونسأل الله أن يمهد لنا السبيل...».

وكذلك أوردت بروفيسور رقية صورا عديدة لعدد آخر من الوثائق والصور التاريخية لمدارس البنات ولبعض الزعماء السودانيين، وصورة لانا بيزلي في الأربعينيات.

ختان النساء

دراسة عن عادة لا يعرف عنها الكثير

Infibulation and Female Circumcision: A Study of Little known Custom

دكتور آلان اورسلي Dr. Allan Wosley

مقدمة: هذه ترجمة لبعض ما جاء في مقال علمي / طبي عن الختان في السودان بقلم الدكتور آلان اورسلي (الجراح بمستشفى أم درمان الملكي) نشر في العدد الخامس والأربعين من المجلة البريطانية لأمراض النساء والتوليد (BJOG) والصادر في عام ١٩٣٨م.

وليس في المقال معلومات جديدة عن الختان في السودان بحسب ما هو معلوم الآن. غير أن توقيت صدور المقال (١٩٣٨م) له أهمية تاريخية، ويصب في جهة التنوير للأطباء (والعامة) بتلك العادة المُضِرَّة في تلك السنوات البعيدة، ودراسة تاريخها المقارن عند مختلف الشعوب عبر العصور. والمعلوم أن تلك العادة قد أثارت في السودان الكثير من الخلاف والصراع في أربعينات القرن الماضي وما بعدها (يمكن النظر في كتاب «تمدين نساء السودان» بقلم جانيس بودي، والذي ترجمنا بعض أجزائه، خاصة ما أثاره من احداث في رفاعة وغيرها. المترجم).

الشكر موصول لبروفيسورة فيفيت قلوفر من الأمبيرال كولج بلندن لتيسيرها لي سبيل الحصول على هذه الورقة.

المترجم

**** **** ****

لعادة الختان تاريخ قديم جدا. فقد عرفت عند المصريين القدماء، وعند سكان الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام. وكان الرومان يمارسونه بإدخال إبزيم / مشبك (fibula / Clasp)عبر القُلْفَة (prepuce) حفاظا على العفة والطهارة.

ولا تزال عمليات التشويه تلك تمارس في أركان مظلمة في العالم. وستتناول هذه الورقة بعض جوانب أمراض النساء الناتجة عن ممارسة ذلك التشويه.

ولعل الغرض النهائي من تلك العمليات هو الحفاظ على العذرية. غير أنه لا يستبعد أن لها أغراضا أخرى تفرعت من ذلك الغرض الرئيس، وتطورت إلى أن غدت عادة قبلية.

ويمكن تصنيف تلك التشويهات (الجراحية) إلى ثلاثة أصناف، وهي قطع المهبل (introcision) في عمر صغير، وختان النساء (circumcision) وهو يتضمن حَشَّ أطراف الشفرين مع قطع البظر، والختان «الفرعوني» (Infibulationproper) وهو يتضمن حَشَّ أطراف الشفرين مع قطع البظر، ثم قفل شبه كامل لفتحة الفرج.

وترتبط هذه العادة بمزيج من السرية والغموض والدين والخرافة، وتحرص النساء اللواتي يمارسنها، وبصورة طبيعية، على حماية «أسرارها» من حب الاستطلاع والفضول الأوربي. لذا فإن معرفة الغربيين (وحتى الأطباء) بتفاصيل تلك العمليات التشويهية ليست كبيرة. ولقد عملت بالسودان لسبع سنوات طبيبا وجراحا لأمراض نساء القبائل البدائيات primitivetribeswomen (لم تعد مثل هذه الأوصاف مقبولة في الكتابة العلمية المعاصرة لأسباب بدهية. المترجم)، وأتاح لي عملي في أواسطهن نفاذ بصيرة (insight) وخبرة لا بأس بها في هذا الأمر، والذي لا أشك في أن كثيرا من العاملين في الحقل الطبي والصحي (في العالم

الغربي) يجهلونه كل الجهل. وأتمنى أن تضيف ملاحظاتي في هذا المقالشيئا مفيدا للأدب العلمي والطبي القليل المسجل عن هذه العادة (ورد في مراجع هذا المقال مقال عن الختان بعنوان DieBeschneidung بقلم عالم أو طبيب ألماني نشر عام ١٨٤٤، وورقة إيطالية بعنوان DellaCircumcisione صدرت عام ١٨٩٥م، وأدرج أيضا في ثبت المراجع فتاوى ابن تيميه. المترجم).

الختان كما يمارس في السودان

لابد لكل بنت سودانية بلغت السادسة من عمرها من أن تختن. ويحدد يوم الختان في وسط أسبوع من الاحتفالات والولائم، وتؤخذ البنت إلى غرفة في رفقة قريباتها وصديقاتها القريبات. ويتم الأمر كله في دائرة النساء، ولا يلعب الرجال أي دور فيه. وتقوم قابلة (داية) كبيرة بـ «طهارة» البنت باستخدام موسى الحلاقة.

تطرح البنت عارية على سرير، وتقوم أربع نساء بتثبيتها من الذراعين والكاحلين، بينما تقوم القابلة، وبمهارة وسرعة، بإزالة البظر والشفرين الكبيرين والصغيرين. وتختفي صرخات الصغيرة المتألمة في وسط الزغاريد الفرحة، وجلبة النساء، وتطمين تعيسة الحظ بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه لا داعي للصراخ والبكاء. ولا يخلو وجه القابلة أبدا وهي تؤدي تلك العملية من ابتسامة سادية فرحة. وتسود بين النظارة المحظوظات في الغرفة موجة فرح وجزل بائنين.

وتنزف البنت بعد ذلك التشويه الجراحي بغزارة، وتتولى القابلة أمر النزف كما يلي: تستخدم القابلة مشبكا (clamp) مكونا من قصبتين منحنيتين تربطان معا ويؤمل أن توقفا تدفق الدم من مكان الجرح.

وتكون الحياة للبنت المختونة في الأسبوعين أو الثلاثة التي تلي العملية شقاءً مقيما وألما لا ينقطع. فالمشبك القصبي يترك في مكانه، وعلى البول أن يجد طريقة ما ينفذ بها للخارج. وعندما يزال المشبك (أخيرا) تكون فتحة الفرج (vulva) قد أغلقت إلا من فتحة صغيرة جدا (لا تسمح حتى بمرور قلم رصاص رقيق) في

جهتها الخلفية.

مضاعفات الختان

تحدث عقب عملية الختان حالات متنوعة من التهاب النسيج الخلوي (cellulitis) والعدوى (infections) وتراكم الصديد. وتخلف تلك العمليات ندبة وجدرة (keloid) في ٥٠٪ من الحالات. وتكثر حالاتالجَدَر في السودان أكثر من غيره من البلدان.

أما أخطر المضاعفات المؤسفة وأكثرها حدوثها فتحدث نتيجة خطأ من القابلة حين تجرح بموساها فم مجرى البول mouthofurethra ويغدو مجرى البول جزءاً من الجرح. لقد كنت في أيامي الأولى أشعر بأسي وصدمة لا توصف عندما كانت تحول إلى مثل تلك الحالات. ولكن بعد سنوات (وبعد أن زال حاجز التحيز والكراهية غير المسببة prejudice) سمح لي بأن أقوم بعمليات جراحيةعلى أولئك النسوة التعيسات.

وربما سيأتي يوم - ومع مواصلة حملات التوعية والإقناع والتأثير لشخصي- نستطيع فيه أن نثني هؤلاء النساء عن ممارسة تلك العادة المضرة.

علاقة الختان بالزواج

تقوم القابلة قبيل الزواج مباشرة في حالات كثيرة بفتح ما أغلقه الختان. ولقد رأيت خلال ممارستي لطب النساء في السودان عددا كبيرا من الزوجات الحمل ولم تكن فتحة المهبل عندهن إلا فتحة بالغة الصغر لا تزيد عن رأس الدبوس. ويعاد توسيع تلك الفتحة قبيل كل ولادة. وبذا فإن الأمر كله هنا بيد القابلة وليس الزوج.

الولادةAccouchement

تعتمد كثير من نساء الأهالي على ربط مرفقي وركبتي المرأة الجاثية على الأرض بحبل مصنوع من ألياف النخيل مربوط في سقف الغرفة. وتجلس القابلة القرفصاء

على الأرض تحت النفساء (في الأصل «المريضة». المترجم)، وتواصل حز منطقة العجان perineum (هي المنطقة الملساء الواقعة بين المهبل والشرج. المترجم) وهي مشدودة كجلد طبل. وتظل النفساء المنهكة تتألم وتذرف الدمع وهي في حالة مؤسفة مروعة بفعل تلك الطريقة العجيبة في التوليد.

دواعي الختان

على الرغم من إنكار البعض، إلا أن الحفاظ على العذرية هو السبب الرئيس وراء الختان. إلا أنه من وجهة نظر المرأة فالختان يحمل كل ديناميكية الموضة (dynamicoffashion). فالبنت الصغيرة تتطلع (ربما بطريقة مرعبة نوعا ما) إلى اليوم الذي تتم فيها «طهارتها»، ولا تحلم أبدا بالتهرب من ذلك اليوم، حتى ولو كان ذلك في مقدورها. ومعلوم أن أقبح إساءة يمكن أن توجها النساء للمرأة هنا هو أنها «غير مختونة (غلفاء)». وأكثر من ذلك، فالمرأة البالغة هنا تفتخر بالندبة التي يخلفها الختان وتدعوها «نفسي myownself». لذا فربما كانت وراء هذه العادةنوع من الجمالية التشريحية anatomicalaestheticism.

ويزعم البعض، ودون دليل موثوق، وجود علاقة ما بتلك العادة والدين. وفي نظري فالختان عادة قديمة، تغذيها الخرافة، وتعمل نساء كبار في السن على استمراريتها.

دراسة مقارنة

١/ قطع المهبل (introcision)

يقال بأن هذه العادة شائعة عند سكان الجزر في بحر الجنوب، غير أني لم أعثر على دليل على ذلك. غير أنه من الثابت أن هذه العادة تمارس في أوساط البيتا – باتا (Pitta – Patta) في أستراليا (وهي من القبائل الأصلية – aborigines). وعندما تبلغ البنت في هذه القبيلة (البدائية) مرحلة البلوغ يتجمع رجال ونساء القبيلة

ليشهدوا إجراء تلك العملية، عليها، والتي يقوم بها شيخ كبير من رجال القبيلة. وتبدأ العملية بإدخال الشيخ لثلاثة من أصابعه في فوهة المهبل لتوسعيه. وفي مناطق أخرى يستخدم الخاتن العجوز مدية حجرية لشق منطقة العجان. ويعقب ذلك ممارسة قسرية للجنس مع عدد من الشباب، وممارسات أخري (أكثر إثارة للاشمئزاز) مع كبار السن والمرضى بقصد تجديد الشباب والحيوية (rejuvenation).

٢/ ختان النساء (circumcisionofwomen)

يشيع هذا النوع من الختان في أفريقيا في ماندنغو (Mandingo وهم من قبائل سيراليون) وتسوانا (Tswana / Bechuanas في جنوب أفريقيا) وغالب قبائل البانتو Bantu، ومصر وأجزاء من ساحل الذهب (غانا الآن. المترجم). ويوجد هذا النوع من الختان في آسيا بالملايو، وفي أرخبيل الهند، وبلاد الفرس، وفي شبه جزيرة طويلة في الشرق الأقصى الروسي، تقع بين المحيط الهادي وبحر أوخوتسك (kamchatkans). ويوجد أيضا في أمريكا في شرق المكسيك وبيرو والبرازيل. أما في أستراليا فتشيع هذه العادة في المناطق من يروبانا Urabunna في الجنوب إلى السواحل الشرقية لخليج كاربينتاريا Carpentaria. أما في أوربا، فلم تسجل فيها إلا حالات متفرقة في روسيا عند طائفة مسيحية اسمها Skoptozy تقوم بختان نسائها لضمان عذرية دائمة perpetualvirginity مستشهدين بمقولة عن الإخصاء منسوبة إلى القديس ماثيو (متى) في الآية ١٢ .١٩ . وتمارس تلك الطائفة الروسية ذلك الختان بغلو ملحوظ يقوم فيه الخاتن / الخاتنة بإزالة كامل الشفرين الكبيرين.

٣/ الختان الفرعوني (Infibulationproper)

هنا تغلق فتحة الفرج (vulva) بعد الختان. ولحسن الحظ فإن هذه الممارسة

ليست شائعة في مناطق كثيرة من العالم. ويعتقد أنها بدأت في الجزيرة العربية قديما. لذا فهي لم تنتشر في أي منطقة خلا شمال شرق أفريقيا. ولا تمارس تلك العادة في مصر المعاصرة. وأخبرني خبير بعلم المصريات اسمه بروفيسور اليوت اسمث بأنه لم يعثر في أبحاثه على المومياوات المصرية القديمة على أي مومياء مختونة بذلك الضرب من الختان المسمى «فرعوني». غير أن معظمهن كن مختونات بحسب ما هو مذكور في النوع المذكر أعلاه (رقم ٢).

أما في أفريقيا فهذه الممارسة شائعة في السودان والحبشة والصومال، بل لقد انتشرت في أوساط النوبة والوثنيين في جنوب السودان. وتشيع تلك العادة أيضا في الملايو، ويعتقد أنها تمارس في أوساط قبائل بيقو Pegu بالهند، غير أنه لا يوجد دليل موثوق على ذلك.

ممارسو عمليات الختان

الرجال: يقوم القساوسة والحلاقون والأطباء الشعبيون بهذه الممارسة في مصر المعاصرة. ويمارسها أقرباء البنت عند القبائل الأسترالية الأصلية.

النساء: القابلات في السودان، وزوجات الحدادين في السودان الفرنسي. ونساء مدربات في الجزيرة العربية وقبيلة الماساي.

وتتم عمليات الختان على البنات في عمر أسبوع واحد في الحبشة، وعدد من الأسابيع بعد الولادة في الجزيرة العربية، و ٣ – ٤ سنوات في الصومال، و٣ – ٨ سنوات عند الأقباط، و٦ – ٧ سنوات في السودان ومصر، و١٤ – ١٥ سنة عند قبائل استراليا الأصلية والبانتيو و الماساي، وبعد إنجاب الأطفال عند قبائل في غينيا وسواحلي Swahili.

الأسباب التي من أجلها تختن المرأة

بالإضافة لما ذكرناه أعلاه يزعم من يمارسون تلك العادة على بناتهم أن من

«فوائدها» ما يلي:

١/ تقليل شهوة المرأة الجنسية. وتزعم بعض القبائل الإفريقية أن إزالة البظر يقلل من حالات المس mania الذي قد يصاحب الرغبة الجنسية المفرطة.

٢/ تضييق الفرج، خاصة بعد الولادة

٣/ النظافة (وهذا اعتقاد سائد عند قبائل البانتو Bantus)

٤/ لزيادة الخصوبة (وهذا شائع عند الماندينغو)

٥/ للحفاظ على الأم والمولود/ ة من الموت (وهذا ما يعتقده الماساي والسواحيلي).

٦/ لمنع تضخم الشفرين (labialhypertrophy) (عند قبائل الهوتنوت Hottentot والأحباش).

وأخيرا يجب أن نذكر أن المرأة في مصر القديمة لم يكن يسمح لها قانونا بنيل نصيبها في الميراث إلا إذا كانت مختونة.

***

وفي الختام لابد من تقديم الشكر للحكومة البريطانية في السودان لقيامها بعمل رائد تمثل في فتح مراكز لتدريب القابلات على ممارسة عملهن تحت ظروف صحية مقبولة، وجعلت تسجيل القابلات أمرا قانونيا ملزما. ومن شأن كل ذلك تخفيف وقع الخسائر الصحية الكبيرة التي كانت تحدث قبل تدريب أولئك القابلات، واللواتي ظللن يمارسن عملهن رغم مشاعر العداء والنقد الجارح في قرى ومدن البلاد.

ويأمل المرء أن تنتهي بذهاب الأجيال الكبيرة في السن هذه العادة الشريرة والتي أنهكت هذا الشعب الرائع المحبوب.

الخرطوم

وصف مدينة متغيرة

Khartoum, Description of a Changing city

مقدمة: هذه ترجمة مختصرة لبعض ما جاء في كتاب The Opening of the NileBasin « فتح حوض النيل»، والذي هو مجموعة مقالات كتبها بعض قساوسة البعثة الكاثوليكية لوسط أفريقيا عن جغرافية واثنوجرافية السودان بين عامي ١٨٤٢ و١٨٨١م. وقام بتحريرها المؤرخ الإيطالي الياس توناولو والمؤرخ البريطاني ريتشارد هيل. وصدر الكتاب في الولايات المتحدة عن دار هاربر وراو عام ١٩٧٥م.

١. الخرطوم في عام ١٨٤٣م Khartoumin 1843

لويجي مونتوري LuigiMontuori

في هذا الجزء نعرض لمقال «الخرطوم عام ١٨٤٣م» للقس لويجي مونتوري، والذي هو في الواقع رسالة بعث بها ذلك القس باللغة الإيطالية من الخرطوم يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٤٣م إلى أحد زملائه في الكنيسة، والذي عمل لاحقا مطرانا في سيمرنا، فينسينوز ايسباكبيترا (١٨٠١ – ١٨٧٨م). وكان كاتب هذه الرسالة القس لويجي مونتوري يعمل في إثيوبيا، غير أنه فر منها عام ١٨٣٧م بسبب الاضطهاد الديني الذي تعرض له هنالك، وجاء إلى السودان حيث أفتتح أول كنيسة ومدرسة في الخرطوم، تلك المدينة التي كانت قد أنشئت قبل ١٦ عاما من مجيء الحكمدار علي خورشيد باشا.

المترجم

**** **** ****

في يوم ٢٣ مارس ١٨٤٢م غادرت غوندار متجها إلى سنار في صحبة القنصل العام البلجيكي ومجموعة كبيرة من أتباعه.

وبعد ستة أيام من تلك المسيرة المحفوفة بالمخاطر بعدنا من الحدود الحبشية، ودخلنا لمنطقة سنار، والتي تتبع للحكومة المصرية. وتوقفنا للحصول على بعض الطعام في أول قرية تحت السيادة المصرية (وبالتالي كانت هي أول قرية يسودها حكم القانون والنظام) وكانت تسمى المتمة. وعلمنا أنه وقبل أيام من وصولنا لتلك القرية كان شيخها قد قتل مع أحد كبار الشخصيات فيها، وقال لنا شيخ التكارير في القرية (إبراهيم القدنلاوي؟) بأن السبب هو ظلمهما للناس.

وبعد المتمة وصلنا للقلابات، وهي أرض صحراوية لا ماء فيها ولا خضرة، وتمتد حتى القضارف، حيث يقيم كاشف (حاكم) المنطقة التركي، والذي استقبلنا بكل حفاوة وترحاب عند حلولنا بداره. وبعد ذلك قطعنا صحراء Ghiseldinet(والتي تسمى أيضا جبل القرود)، ورأينا على رمال تلك الصحراء كميات كبيرة من العظام والهياكل العظيمة وبقايا الأجساد الآدمية التي افترستها الأسود. وبعد ذلك وصلنا لقرية غلا، وهي قرية صغيرة فقيرة كان يقيم بها نائب الكاشف. ووجدنا في سوق تلك القرية لحوم الضأن والبقر والإبل والنعام والدجاج البري تباع بأسعار غاية في الرخص. ولأن المنطقة المحيطة بالقرية كانت خطرة بسبب وجود الأسود بها فقد آثرنا أن نغادرها عند منتصف الظهيرة حتى نتفادى مواجهة تلك الوحوش. ولكننا، وبعد مسيرة ثلاثين دقيقة فحسب سمعنا أصوات زئير الأسود تأتينا من مسافة ٤٠ – ٥٠ قدم من كل جانب من حولنا. وكانت الرياح المتربة تحمل العظام والهياكل العظيمة والأحذية والملابس الممزقة وتنثرها في أرجاء المكان. وكان ذلك

المنظر المرعب قد أفزع ليس فقط رجال قافلتنا بل جمالها وبغالها أيضا. وأصيب البغل الذي كنت على ظهره برعب لا يوصف فلم يعد بمقدوري التحكم في لجامه، وصار ينتفض كالملسوع حتى أطاح بي أرضا فأصبت إصابة عنيفة في وجهي. وبقيت ملقيا على الأرض شبه مغمي علي لعدة دقائق، وجراحي تضج بالألم، إلى أن قام رفاقي بتضميد جراحي بقدر ما هو متيسر، ورفعي على ظهر البغل مرة أخرى، وبعدها واصلنا المسير على طريق القلابات حتى قرية «أبو حراز» على النيل. وهنالك استقلينا مركبا صغيرا لرجل عربي سرنا به لثمانية أيام متواصلة لم تزعجنا فيها غير آلاف التماسيح إلى أن وصلنا أخيرا للخرطوم عاصمة السودان وكل مناطق سنار، وهي المناطق التي يحكمها خديوي مصر محمد علي باشا.

يتميز الموقع الذي تقع فيه الخرطوم باللطف والجمال. وليس بالإمكان تصور موقع أجمل من موقع هذه المدينة، حيث يقترن النيل الأبيض بمياهه المتربة والتي تأتي من النيجر (لم يتم تحديد منبع النيل الأبيض إلا بعد عشرين عاما من تاريخ كتابة ذلك الخطاب، أي في عام ١٨٦٣م) والنيل لأزرق بمياهه البلورية الصافية، والآتية من هضبة الحبشة. وبعد اقترانهما يغيران اسميهما وينجبان نهر النيل. ويقدم لنا نهر النيل منظرا بديعا ساحرا وهو يتلوى في عرض الصحراء إلى أن يصب في مصر. ومن الواضح أن الخرطوم بنيت على برزخ سيتحول إلى جزيرة، إذ أن الباشا كان قد أمر بحفر قناة بين النيلين الأبيض والأزرق (ولم يتم بناء تلك القناة رغم أن التفكير في تشييدها كان جادا، وكان الغرض منها إنشاء حزام أخضر جنوب المدينة. المحرران).

وكان عدد سكان المدينة لا يتجاوز ١٣٠٠٠ نسمة، وكانوا كلهم من عرب المديريات المحيطة بالخرطوم فيما عدا ٢٠٠ من الأقباط وقليل من الكاثوليك والأتراك والجزائريين. وتمددت المدينة في كل مكان، وأنشأت فيها طرق واسعة لكنها غير منتظمة كما هو الحال عند المسلمين. وكانت مزارع وحدائق الخرطوم تروى يوميا بآلات تسمى السواقي تأخذ المياه من النهر. وكانت بالمدينة مساحات فارغة كثيرة

مليئة بالتراب والحصى. وكان هنالك سوق (بازار) جيد ومسجد جميل، وكان هذان المبنيان هما المبنيان الوحيدان المشيدان بالطوب المحروق والمأخوذ من بقايا المدينة العتيقة سوبا، على بعد مسيرة نصف ساعة تقريبا. غير أن بقية بيوت المدينة (ويشمل ذلك بيت الباشا نفسه) كانت مبنية بالطوب الطيني. وحتى لا يتفتت ذلك النوع من الطوب بفعل الأمطار الغزيرة يقوم السكان بتغطية الحيطان الخارجية بروث البهائم المنقوع في الماء لأربعة أو خمسة أيام. ويوجد بالخرطوم أيضا مستشفى عسكري ومخزن للأدوات الطبية، إضافة إلى مطبعة تصدر النشرات الحكومية والخرائط.

وقمت فور وصولي للخرطوم بشراء منزل صغير به حديقة من البمباشي سليم قبطان في أفضل موقع بالمدينة، محاط بمخازن الحكومة، وبعيد عن إزعاج الجيران. وكان منزلا متواضعا إلا أنه كان حسن البناء، ويقوم على أرض مسطحة ومريحا إلى حد معقول. وكانت حديقة ذلك المنزل واسعة، فقررت أن أنثر على أرضها بذور مختلف أنواع الخضروات مثل الخس والبقدونس والفجل (الحار) والقرنبيط واللفت. وكنت قد وجدت في حديقة المنزل الذي اشتريته ١٣ شجرة رمان وثلاثة أشجار تين وشجرة ليمون، وتعريشة (مكان مظلل بالأغصان). وسأقوم في المستقبل القريب بزراعة المزيد من الأشجار المثمرة، فالماء متوفر إذ أن هنالك بركة ماء منها أقوم بري مزروعاتي. وكانت المباني المحيطة ببيتي لطيفة ومتنوعة. وهنالك أمامي النيل الأزرق بمياهه الصافية التي تبدو كمياه بحر في يوم هادئ الريح. وتجوب كثير من البواخر ذلك النهر من أمامي مما يجعل عملية شراء المواد التموينية من سوق الخرطوم أمرا يسيرا. ويتميز النيل الأزرق بكثرة وجودة أسماكه، وكذلك بشدة الخضرة على جانبيه، وبتنوع الطيور بأنواعها المختلفة على شواطئه، خاصة الأنواع الكبيرة مثل طائر البجع و«أبو منجل ibis» والعنقاء / الفينكس Phoenix والكركي الملكي. وفي الفضاء البعيد جنوب شاطئ النيل كنا نرى جبالا يحسبها المرء في الصباح الباكر أو عند مغيب الشمس أهرامات ضخمة زرقاء اللون.

سينقضي موسم الأمطار قريبا، ونتوقع طقسا أفضل في الشهور القادمة. وعندها سأقوم بالتصريح ببناء خمس غرف إضافية وكنيسة رائعة التصميم، مهداة إلى روح سيدتنا (مريم العذراء) معينة المسيحيين. وقد أستخدم – مضطرا وعلى مضض – الطوب المحروق من أطلال سوبا لبناء تلك الكنيسة. وفي هذا الأثناء قمت بحفر السهول حول بيتي (لعمل طوب) تفاديا لتحطيم أطلال سوبا القديمة.

لقد بدأ الناس يطلقون علي لقب «القسيس الكاثوليكي». وقمت قبل أيام بمباركة عرس سيدة إغريقية اسمها كاترينا فاسيري (١٧٨٦ – ١٨٤١م، وهي أرملة تاجر فرنسي توفى بالخرطوم) من رجل سوري يدعونه إبراهيم خير. وأقيمت مراسم العرس على أفضل ما يكون من مظاهر البهجة، وأمه لفيف من الناس كان من بينهم عدد من المسئولين. وكان من بين الحضور عدد من رجال ونساء المسلمين، والذين بلغ من إعجابهم بطقوس الزواج الكاثوليكي أن التمسوا مني السماح لهم بحضور مراسيم زيجات قادمة. وفي ذلك العرس لم تحر الفرقة المصرية ما يمكن أن تؤديه من قطع موسيقية فقامت بعزف السلام الجمهوري الفرنسي LaMarseillaise ومارش السلطان سليمان. يجب على المرء القبول بأي شيء هنا!

ستبدأ عمليات البناء في بداية الشهر القادم. وفي هذا الأثناء تحصلت من حمد باشا (لعل الكاتب يقصد أحمد باشا أبو ودان الحكمدار في ذلك الوقت. المحرران) على ٤٠٠ قدما مربعا لبناء مقبرة مسيحية.

وأفكر جديا في إنشاء كلية صغيرة لأبناء الشلك والبرتي وغيرهما من القبائل الوثنية المكتشفة حديثا بواسطة البعثات الاستكشافية التي بعث بها خديوي مصر محمد علي على طول النيل الأبيض. وتعد تلك الحملات في الدولة السنارية هي رئاسة ومركز الاتصالات.

وليس هنالك مكان في أرض النوبة يبذ هذا المكان في الفساد والفوضى والاضطراب. فالنساء يستخدمن كسلع للمقايضة، ويستأجرن كعاهرات، ويحصل

أسيادهن منهن على مبلغ معلوم في نهاية كل شهر. وتجوب الفتيات بين الثالثة عشر والخامسة عشر من أعمارهن المدينة وهن عراة لا يستر أجسادهن غير شرائط صغيرة من القماش تغطي الفخذين (لعل المقصود هو «الرحط». المترجم).

وعندما كنت في أرض الحبشة كنت أرتدي ما يرتديه الأحباش (بنطال/ سروال وقميص وقطعة كبيرة من قماش قطني أبيض اللون حول الوسط، وآخر حول الأكتاف) وأسير حافي الرأس والقدمين. وفي الخرطوم الآن ألبس أيضا ما يلبسه الناس فأرتدي قفطانا مفتوحا ومربوطا من الجانبين، أبيض اللون ومزينا بأنماط من الزهور الحمراء الصغيرة. وفوق كل ذلك أضع معطفا واسع الأكمام في لون السماء، يلامس الكعبين، وأضع على رأسي طربوشا أحمرا تتدلى منه خيوط حريرية زرقاء، وأنتعل حذاء جلديا مغربيا مصنوع على النمط التركي. وعندما أقوم بزيارة أو استقبال لأحد أو مجموعة من الناس أستبدل الطربوش بعمامة بيضاء.

يسميني المسيحيون الكاثوليك والأقباط «القسيس الكاثوليكي» بينما يسميني المسلمون «البابا فرانكو».

٢. الخرطوم في عام ١٨٥٣م Khartoum in 1853

جيوفاني بيلتريم GiovanniBeltrame

في هذا الجزء نعرض لمقال «الخرطوم عام ١٨٥٣م» للأب جيوفاني بيلتريم (١٨٢٤ – ١٩٠٦م)، والذي ولد في قرية قرب فيرونا بشمال إيطاليا (وكانت حين ولادته تتبع للإمبراطورية النمساوية). وجاء إلى السودان عام ١٨٥٣م وجاب في كثير من مناطقه حتى بني شنقول. ثم عاد للسودان في عام ١٨٥٧م كقائد للبعثة التبشيرية التي بعث بها معهد مازا في فيرونا، وعمل لعام كامل على التبشير في أوساط الدينكا في النيل الأبيض. وظل يكتب للصحف والمجلات الأوربية، حيث اجتذبت كتاباته الكثير من القراء لجودة صناعتها وغرابة ما ورد فيها. غير أنه

اشتهر أكثر بقدراته ودراساته اللغوية، فقد نشر (بالاشتراك مع جوزيف لانز) مخطوطة عن نحو لغة الدينكا في نشرة الجمعية الجغرافية الإيطالية بفلورنسا في عام ١٨٦٩م بعنوان «Grammatica della linguaDenca»

والنص التالي هو جزء من كتاب للقس بيلترام عن السودانبعنوان «SennarIleloScaiangallah» صدر في فيرونا عام ١٨٧٩م.

المترجم

أعيد بناء الخرطوم في موقع مختلف قليلا عن موقعها السابق. وبنيت كل بيوتها تقريبا من طوب طيني ومن طابق واحد. غير أن هنالك قليل من المنازل مكونة من طابقين. ومن أبرز مباني الخرطوم هو قصر الحكمدار على ضفاف النيل الأزرق، وقد بني بالطوب المحروق. ويواجه الجزء الشمالي من القصر ضفة النيل الأزرق، بينما يواجه جانبه الجنوبي ميدان واسع.

ويستخدم الأوربيون الحجارة المنقولة من جبال أمدرمان في بناء منازلهم، خاصة على الضفة الشمالية من النيل، على بعد كيلومترين من الخرطوم. وكانت الإرسالية الكاثوليكية هي الأولى التي ضربت المثل لبقية الأوربيين في ذلك المنحى. وقد أنشأ تلك الإرسالية القس البولندي رايلو بمعاونة مبشرين هما دكتور إقناز نوبيلشر والإيطالي أنجلو فينكو من معهد مازا. وكان أنجلو فينكو أحد أصدقائي القدامى، وهو أول أوربي يغامر بالذهاب أبعد من غوندوكورو، حيث أسلم الروح.

وتم وضع حجر الأساس لتلك الإرسالية في يناير من عام ١٨٥٤م، عندما كنت في الخرطوم. وفي البدء أتى البناؤون من تيسكاني في إيطاليا، ثم أتى بعدهم بناؤون من تايرول يتبعون للإرسالية، وكانوا يعملون جميعا تحت قيادة الأب جوزيف قوستنر (والذي كان دارسا للرسم، وقاد عمليات البناء من بدايتها).

وأكتمل البناء في يوليو من عام ١٨٥٦م. ووفر المبنى الجديد للمبشرين ظروفا أفضل للحياة، بعد كانت صحة الكثيرين منهم تسوء في موسم الأمطار. وفي ذات الوقت

كان تشييد ذلك المبني درسا عمليا للأهالي في فن البناء. فقد كانوا يتوافدون يوميا لمتابعة تقدم البناء. وتعلم إلى الآن أكثر من خمسين رجلا سودانيا استخدام أدوات البناء مثل المجرفة والمَسْطَرين والمالج (ما يطين به)، وبمقدورهم الآن بناء الحوائط.

تشابه الخرطوم الكثير من المدن المصرية والنوبية مثل أسيوط وقنا ودنقلا وبربر. وتمتد فيها الشوارع المستقيمة لمسافة طويلة. وبها مسجد كبير وبازار (سوق) متوسط الحجم في وسط المدينة مكون من ثلاثة أو أربعة شوارع مغطاة بسقف من القش وأغصان الأشجار. وتتلاصق في السوق متاجر صغيرة الحجم تفتح أبوابها على شوارع متربة. وتجد عادة أمام باب المتجر مسطبة / منصة طينية ارتفاعها نحو قدمين يعتليها الزبون ليواجه صاحب المتجر، والذي يبقى في داخل متجره. ولعل تلك المسطبة تصلح كي تكون مخبأ hideout صغيرا عند الحاجة!

ويجلس البائع – كما هي العادة في الشرق- خلف بضاعته المكومة / المكدسة أمامه. وتوجد أيضا بضاعة أخرى خلفه مرتبة على شكل طبقات. وفي هذا السوق تجد كل ما قد تحتاج إليه في السودان. فهنالك الطرابيش الحمراء، والأقمشة، والجوارب. وفي جزء آخر من السوق تجد الأدوية والدهانات ولأعشاب الطبية. وتجد في مكان آخر الشيشة (وهي من ضمن ما دخل عربية السودان من اللغة التركية) والتبغ الخ. وفي موقع آخر تجد من يبيع المأكولات والشراب، حيث تملأ المكان روائح الطعام العطرية.

ولا يقوم البائع بأي محاولة لحث المشترين على الشراء، بل لا ينظر إليهم أصلا، بل يكتفي بتحريك حبات مسبحته بأصابع يده اليمنى ببطء، والهمس ببعض الأدعية، والتثاؤب بين حين وآخر. ولا ينتبه التاجر إلا إذا أتى زبون (محتمل) ولمس أو أشار إلى بضاعة معينة. حينها قد يطلب منه البائع الجلوس، أو قد يتزحزح قليلا عن مجلسه ويفسح له ليدخل المحل لتفقد البضاعة قائلا: اتفضل. وقد يدعوه لتدخين الشيشة أو يأمر له بقهوة من مقهى مجاور. وقد يجلس الزبون لربع أو نصف ساعة دون أن يفاتحه

التاجر بالسؤال عن مقصده، بل ينتظر من الزبون أن يكون هو البادئ بالسؤال. وعندما يسأله الزبون: «ما هو سعر هذا ال...؟» يجيبه البائع في إيجاز بالسعر «مثلا ريال واحد». وإذا عرض الزبون مبلغا أقل لا ينبس التاجر ببنت شفة، بل يهز رأسه دلالة على عدم الموافقة. وإذا زاد الزبون على ما عرضه أولا، يقوم التاجر بتقديم البضاعة له ويستلم ثمنها دون أن ينطق بكلمة واحدة. وهذا كل ما في الأمر.

ويبدأ العمل بالسوق عند مشرق الشمس وينتهي عند غروبها. فبعد المغرب مباشرة يعود الجميع لمنازلهم. فلا أحد هنا يستخدم ضوء الشموع في بيع أو شراء.

ويجب ألا أخوض هنا في صفات سكان الخرطوم وعاداتهم، إذ أن هذه المدينة تضم أنواعا مختلفة من البشر من قبائل وطبقات وأصول عرقية مختلفة قد يبلغ عددها على الأقل سبعة. وما تزال الخرطوم مدينة حديثة بحساب السنين، ولا يزال سكانها يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم التي أتوا بها من خارجها. ولا تزال عملية تكوين عادات وتقاليد مشتركة بين كل سكان الخرطوم بطبقاتهم المختلفة أمرا بعيد الحدوث.

تتكون المجموعة الأولى من سكان الخرطوم من الأوربيين، وعددهم لا يتجاوز أربعين أو خمسين فردا. ويعمل غالبهم بالتجارة بين الخرطوم أو النيل الأبيض والقاهرة. ويظل عدد هؤلاء التجار ثابتا في غالب الحالات. وإن حدث أن سقط أحدهم مريضا أو ميتا، فسيحل محله آخر من نفس الجنسية، وعادة ما يأتي من القاهرة أو الإسكندرية.

أما المجموعة الثانية فهم الأتراك، وعددهم قليل جدا، ويعملون في الغالب موظفين في خدمة الحكومة، أو يأتون للسودان بعد أن نفاهم إليه الخديوي عقابا لجرم ما اقترفوه.

وتتكون المجموعة الثالثة من التجار العرب، والذين يفوق عددهم الأوربيين والأتراك معا. وأتى معظم هؤلاء من صعيد مصر، ويعملون في مجالات التجارة

المختلفة بين سنار وسواكن وفازوغلي وكردفان ودارفور.

أما المجموعة الرابعة فهم من الأقباط. وعددهم قليل جدا، ويعمل معظمهم في شرق السودان – بصورة خاصة – في مجال السلك الكتابي.

وتتكون المجموعة الخامسة من الفقهاء/ الشيوخ (رجال الدين الإسلامي) والذين يكسبون عيشهم من تعليم الصبية، وتدريبهم على كتابة التعاويذ والتمائم والطلاسم talismans (لا يخفى أن هذا مما لا يعلم في الخلاوي. المترجم) والتي تعزى إليها أعمال الخوارق والمعجزات، وربما الغش في مجال التجارة. وتعمل المدرسة من هذا النوع على أربع فترات: من الرابعة صباحا حتى مشرق الشمس، ومن الثامنة صباحا حتى التاسعة والنصف، ومن الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة عصرا، وأخيرا من مغيب الشمس حتى الثامنة مساءً. ويدفع والد الطفل للمعلم نظير تعليم ابنه عشرة برا para (سنت) في الأسبوع. ويجب على الشيخ أيضا أن يقدم خطبة (للمصلين) في أهم عيدين في عام المسلمين. ويزعم غالبية هؤلاء الفقهاء أن بمقدورهم علاج أخطر الأمراض بكتابة بعض سطور القرآن في ورقة، يلفونها ويعطونها للمريض ليضعها حول ذراعه أو يربطها في شعر رأسه.

أما المجموعة السادسة من سكان الخرطوم فتشمل العمال (الفنيين) المصريين مثل الخبازين والصباغين والإسكافية والنقاشين وغير ذلك من الحرفيين.

وتضم المجموعة السابعة والأخيرة مجموعة متباينة الأصول والأعراق. فمنهم الدناقلة الجلابة (التجار المتجولين) والجنود السابقين من الزنوج. ويعمل ثلثي هؤلاء الجنود السابقين في مجال الحراسة الشخصية أو في المراكب الشراعية أو البواخر المتجهة للجنوب على النيل الأبيض للتجارة في الرقيق أو العاج. وينال الواحد من هؤلاء الجنود ٤٥ قرشا في الشهر.

ولا يقدر أفراد المجموعات الخمس الأخيرة ولا يفهمون أي معنى للكرامة

الإنسانية أو احترام الذات. فإن عارضهم أحد أو أعترضهم في أمر ما، فعادة ما تكون استجابتهم ضعيفة جدا وغير فعالة. وقد يحاولون أحيانا أن ينتقموا لأنفسهم كالأغنام، غير أنهم في قرارة أنفسهم يدركون أن ذلك عمل عديم الجدوى. لذا تجدهم خلال فترات التجنيد الإجباري يبدون عزوفا شديدا عن الالتحاق بالقوات المسلحة. ويقتل منهم عدد قليل جدا. أما البقية فيؤخذون كالسوائم ودون مقاومة في المراكب النيلية الحكومية، وتتبعهم قوافل تمتد لأميال من النساء والأطفال وهم يبكون بحُزنٍ وصياح وعويلٍ (لا يخفى أن ذلك الرجل الإيطالي هو «ابن عصره»، حين لم يكن الرجل الأبيض يحاول إخفاء عنصريته وعنجهيته. المترجم).

وتوجد بالخرطوم الكثير من وسائل الترفيه بالليل والنهار. ففيها محلات للغناء والرقص. ويزعم البعض أن الغناء والرقص في المدينة يسعد سكانها من كل الطبقات. ورغم ذلك فإني لا أعتقد شخصيا أن هنالك شعورا مشتركا عند سكان الخرطوم بالمواطنية citizenship. صحيح أن كل فرد فيها يحب بيته ومنطقته، غير أنه ما من أحد فيها يعترف بأن له وطنا / قطرا واحدا.

٣. الخرطوم في عام ١٨٥٣م Khartoum in 1853

اليساندرو دال بوسكو Alessandro Dal Bosco

في هذا الجزء نعرض لمقال «الخرطوم عام ١٨٥٨م»، والذي هو في الواقع رسالة بعث بها القس الشاب اليساندرو دال بوسكو من الخرطوم لرئيسه في الكنيسة دون نيكولا مازا في فيرونا. ولد اليساندرو دال بوسكو عام ١٨٣٠م في بيرونيو قرب فيرونا بشمال إيطاليا (وكانت حين ولادته تتبع للإمبراطورية النمساوية). وجاء إلى السودان عام ١٨٥٧م نائبا للمسئول عن إرسالية الخرطوم. ثم عاد إلى فيرونا ليعمل كأول مدير لمعهد كمبوني في فيرونا حتى وفاته في عام ١٨٦٨م.

المترجم

أنشأ الخديوي محمد علي باشا مدينة الخرطوم قبل ستة وثلاثين عاما عقب انتصاره على حكام جنوب مصر في المناطق الممتدة حتى فازوغلي على النيل الأزرق. ولم يكن هنالك قبل ذلك التاريخ أي أثر لمدينة في موقع الخرطوم الحالي غير بضعة أكواخ لصيادي الأسماك. وبعد غزو محمد علي للسودان بدأت بعض المباني في الظهور في ذلك الموقع، وقليلا قليلا تكونت قرية الخرطوم.

وتقع الخرطوم بين النيلين الأزرق والأبيض، وتقع على ضفاف النيل الأزرق، على مسافة قريبة من مقرن النيلين حيث يتكون نهر النيل. وتقع الخرطوم جغرافيا بين خطي ١٥° ٤٥″ N و"15 °30 E. ويتساوى الليل والنهار في الخرطوم (equinoxes) مرتين في العام في مايو وأغسطس.

ورغم أني أصف الخرطوم هنا بأنها مدينة صغيرة (town)، إلا أنه لا يمكن مقارنتها بأي مدينة أوربية، ولا أسميها «مدينة» إلا بسبب حجمها وليس غير ذلك. والحق أنها مدينة قبيحة بشعة تسوء الناظرين، ولو قدر لها أن تقع في أوربا لما أعارها أحد نظرة. فهي لا تزيد عن كونها زرائب وعشش وأكواخ طينية. وليس فيها من نظام أو تناسق، وتمتلئ طرقها بالحفر، والشوارع فيها ضيقة ومتعرجة ومصمتة (blind)، وينبغي أن تعبرها مرات عديدة حتى تتبين إلى أين تؤدي، وهي في الواقع بالنسبة لزائرها لأول مرة متاهات لا يعرف لها أول من آخر. وبخلاف ما هو معهود في أوربا حيث يخترق الشارع المدينة طولا وعرضا، تجد أن الشارع في الخرطوم قد ينتهي بك إلى جدار منزل أحد السكان، وما من سبيل لمواصلة السير فيه، مما يضطرك للعودة من حيث أتيت والمحاولة من طريق آخر.

والبيوت في الخرطوم قميئة وخيمة ومبنية بالطين أو الطوب المجفف بأشعة الشمس، وهي ذات سقوف منخفضة مصنوعة من الطين أيضا، أو من السعف المربوط حول عوارض خشبية. وأحيانا تتساقط سقوف المنازل أو أركان الحيطان فتسد

الطريق. ويحدث هذا غالبا عند هطول الأمطار بسبب ضعف بنيان تلك البيوت والسقوف. وإن حدث وهطلت الأمطار ليلا، فلا بد أن صاحب الدار التعيس سيحبس أنفاسه حذر سقوط السقف على رؤوس ساكنيها في أية لحظة، وتحويل بيته لكوم من الطين. وسيكون عليه أن يدبر لنفسه ومن يعول ملجأ آخر إن ظل الماء ينهمر من السماء إلى داخل الدار.

ولا يوجد في كل المدينة مبنى مختلف عن بقية المباني غير مبنى الديوان (مقر الحكومة)، فهو يتميز عن بقية مباني الخرطوم الضيقة البائسة بكبر مساحته، وجودة تصميمه، وحسن طريقة بنائه.

وقررت الإرسالية الكاثوليكية لوسط أفريقيا تشييد مبناها بالخرطوم بالحجر والمَلاَّط (المونة الحرة mortar) على طراز أوربي يكون صلبا ومهيبا ومتميزا وسط أكواخ الخرطوم وزرائبها، ويكون أيضا مصدر دهشة وإعجاب آلاف الأفارقة. ولإعطائك فكرة مختصرة عن مبنى الإرسالية أفيدك بأنه مبني على محور شرقي – غربي، وبطول قدره ٣١٤ قدما وبعرض ٣٠ قدما، ويشمل ذلك الشرفة. وبالمبنى سبع غرف واسعة لأماكن المعيشة، وسكن داخلي (للطلاب)، ومدرسة، ومخازن. وبالإضافة لذلك فهنالك مطبخ، وغرفة طعام، وغرفتان تستخدمان كنيسة في الجناح الشرقي للمبنى الممتد شمالا.

وللخرطوم موقع استراتيجي بين النيلين الأزرق والأبيض، وهي المدخل لمناطق السودان الداخلية ولساكنيها على ضفاف النيلين حتى حدود أثيوبيا وقلا (Galla).

ولا يملك المرء غير أن يشيد بعبقرية من أنشأ الخرطوم، ومن تنبأ بأهمية موقعها. غير أن لموقعها هذا عيبا واحدا، لا يظهر إلا في موسم الفيضان والذي يغمر المدينة. عقب فصل الأمطار وهذا العيب هو انخفاض المدينة عن مستوى النيل الأزرق. وليس هنالك من مخرج (outlet) لتصريف مياه الفيضان، فلذا تبقى في شكل برك راكدة تجف ببطء، وتصدر منها روائح كريهة تنتج عن تحلل

مختلف الأشياء التي تحملها المياه مثل الحيوانات النافقة، والأشجار المقتلعة، وقاذورات الطرق المختلطة بالطين وغير ذلك.

متى يأتي اليوم الذي تدار فيه هذه المدينة بطريقة صحيحة لتغدو مدينة براقة جميلة لتناسب موقعها المميز؟

وباستثناء المنطقة التي تلاصق النيل، فإن المنظر العام للمدينة وما يحيط بها هو منظر صحراوي محض. وتحيط بالمدينة من الجانبين الجنوبي الشرقي والجنوب الغربي سهول واسعة ممتدة ليس فيها – فيما عدا موسم الأمطار – زهرة واحدة ولا ورقة شجرة وحيدة. فالمنطقة سهل شاسع بلقع ليس فيه غير الرمال والتربة القاحلة والتي لا يحركها إلا هبوب الزوابع الترابية التي تكاد تعمي الأبصار.

وفي المقابل، تجد على شاطئ النيل الأزرق شريطا ضيقا من الأراضي الصالحة للزراعة، والتي تنمو فيها – وبسهولة – الخضروات والفواكه والنباتات الأخرى. ومنظر تلك المزارع والحدائق منظر بهيج يسر النظر والخاطر مقارنة ببقية المناظر الأخرى في صحراء الخرطوم. فعلى شاطئ ذلك النيل تجد، وعلى مدار العام، أشجار الليمون والقشطة (custardapples) والبرتقال والرمان وفواكه أخرى. وتقف شجرة النخيل فارعة شامخة كملكة في وسط تلك الأشجار الأخرى.

ويعد مناخ الخرطوم المحلي، وعلى وجه العموم، مناخا غير صحي، ربما بسبب انخفاضها عن مستوى النيل الأزرق. ويشتد تبخر المياه في فصل الأمطار وتركد المياه في المدينة وتسبب الكثير من الأمراض. ويستمر ذلك الفصل لثلاثة أشهر، وفيه يسود بين الناس الشعور بالتعب، والأرق وقلة الشهية للطعام، والنعاس، والإحساس بثقل الرأس، وآلام في البطن، وشعور عام بالحزن والكآبة. غير أن البعض (حتى لدى الأهالي) لدية مناعة ضد ما ذكرته من أعراض مؤلمة. بيد أن تلك الأعراض تعد شيئا يسيرا إذا ما قورنت بما يتبعها عادة من أعراض أشد وطأة تشمل الحمى الحارقة والمرض الحاد والزحار (الدوسنطاريا) وغير ذلك من الأدواء التي تفضي بالمريض سريعا إلى ربه.

٤. الخرطوم في عام ١٨٨١م Khartoum in 1881

بارتولميو روليري BartolomeroRolleri

في هذا الجزء الأخير من باب «الخرطوم: وصف مدينة متغيرة» نعرض لمقال «الخرطوم عام ١٨٨١م»، والذي نشره الأب بارتولميو روليري في العدد السادس والعشرين من المجلة الكنسية «AnnalidelBuonPastore حوليات الراعي الصالح» والصادرة في عام ١٨٨١م.

ولد روليري في محافظة بارما في عام ١٨٣٩م وتوفى في باسينزا بشمال إيطاليا في عام ١٩٠٢م، وعملقسيسا في كردفان عام ١٨٦٩م، ثم قيما على كنيسة في القاهرة. وانتهى به المطاف أسقفا لباسينزا إلى حين وفاته.

المترجم

**** **** ****

تقع الخرطوم بين النيلين الأزرق والأبيض، في النقطة التي يقترنا فيها ليكونا نهر النيل. غير أن كامل المدينة يقع على شاطئ النيل الأزرق. وسميت «الخرطوم» بهذا الاسم لأن موقعها يشبه خرطوم الفيل. ويصعب معرفة عدد سكان المدينة بصورة دقيقة بسبب غياب الإحصائيات. غير أني أقدر عددهم بنحو ٥٠ - ٦٠ ألفا. وبنيت المدينة على النمط العربي، وهي تتكون من بيوت طينية (عدا القليل جدا منها). وفي كل عام، وقبل هطول الأمطار، يقوم صاحب كل بيت بمسح الحيطان الطينية بروث البهائم المعجون بالماء حتى يمنع تسرب مياه الأمطار لداخل الدار. ولكن ما أن تتوقف الأمطار، وترسل الشمس أشعتها الحارقة على الحيطان الملطخة بالروث حتى تنبعث منها روائح بالغة النتانة. وعندما تختلط تلك الروائح بالغبار الذي يثيره السَّابِلَةُ في تلك الطرق الترابية القذرة التي لا يمسسها أحد بمكنسة يغدو الهواء غير صحي، وقد يصيب المرء بحمى قد تكون في بعض الأحايين قاتلة.

وأفضل المنازل في الخرطوم هي قصر الحكمدار، ومبنى الإرسالية، وبيوت بعض التجار السوريين والأوربيين والأثرياء الآخرين. وبنيت غالب المنازل الأخرى من طابق واحد وعلى الطراز العربي. وكان انتاج الطوب المحروق بالنار، والجيد النوعية، رخيص نوعا ما، وهذا مما يفسر وجود عدد ليس بالقليل من البيوت المبنية بالطوب المحروق بالنار. غير أن هنالك نوعا أكثر رخصا (وأقل جودة) من ذلك الطوب، وهو الطوب الطيني الذي يجفف بواسطة أشعة الشمس. وهنالك بعض المنازل التي يستخدم فيها النوع الأخير من الطوب في بناء الغرف الداخلية، بينما تبنى الحيطان الخارجية بالنوع الأول (الجيد النوع). وكثيرا ما تطلى حيطان بعض المنازل بجير أبيض مما يعطيها منظرا جميلا. ويدل هذا على أن هنالك تقدما يحدث في السودان وفي حياة الناس فيه. وربما يأتي يوم تصبح فيه الخرطوم قاهرة أخرى، بها جزء عصري (غربي)، وجزء آخر تقليدي (عربي).

وقد يسأل أحد الناس عن سر تكبد المرء صرف مبلغ ضخم لبناء منزل حديث في منطقة نقول عنها أنها غير صحية، بينما يمكن لذات الشخص شراء منزل في منطقة أخريذات طقس أكثر صحية؟ سأعطي هنا عرضا سريعا لما أراه ممكنا من عمل لإصلاح المناخ في هذه المنطقة. لقد صار شريط الأرض الممتد إلى وسط السودان أرضا صحراوية. إلا أنه، وبعد هطول الأمطار، ينمو العشب وتخضر الأرض في كل مكان. وبنيت الخرطوم في هذه المنطقة الصحراوية، وباستثناء بعض الحدائق والمزارع المقامة على صفاف النيل الأزرق، والأماكن التي بنيت فيها منازل السكان، فليس هنالك شيء في الخرطوم خلا الرمال والغبار. ومما يجعل الوضع أكثر سوءً، فإن من يرغب من السودانيين في بناء منزل له، يقوم بحفر أي منطقة تروقه ويأخذ منها ما يرغب من تراب. لذا تكاثرت بالمدينة الحفر والجداول في كل مكان، وعندما تهطل الأمطار تمتلئ تلك الجداول والحفر بالمياه، والتي تركد وتوفر بيئة مناسبة للهواء الفاسد miasma (حتى تاريخ كتابة ذلك المقال كان يعتقد بأن «الهواء الفاسد mal'aria» هو مسبب الملاريا، رغم أن دواء الكوينين المستخرج من لحاء شجرة

الكينيا كان يستخدم لعلاجها منذ عقود طويلة. المحرران). وفي فصل الأمطار لا يملك المرء إلا أن يخوض في المياه الراكدة في كل مكان للوصول لوجهته المطلوبة. غير أنه – ولحسن الحظ – يوجد ذلك الحيوان الصبور: الحمار، فهو يتكفل بحمل المرء عبر تلك المستنقعات الآسنة، ويعفيه من الخوض في ذلك الماء الطيني اللزج. ولم يسمع السودانيون بعد بشيء اسمه عربات / مركبات (carts / carriages). فلا يوجد في الخرطوم بأسرها من يملك واحدة منها سوى الإرسالية وأحد أثرياء التجار الأوربيين.

دعنا الآن نفترض أن الحكومة المحلية بالخرطوم قررت أن تعمل كل ما في وسعها لجعل الخرطوم مدينة صحية. أعتقد جازما أنه بالإمكان فعل ذلك بمحاكاة ما فعلته الحكومة المحلية بالقاهرة، حيث كانت بتلك المدينة العديد من الأماكن المنخفضة. ولا تزال بتلك المدينة بعض البقع المنخفضة والعميقة، والتي لا تزال السلطات تحاول دون جدوى ملئها. وكانت منازلنا بالقاهرة تقل بنحو ثلاثة أمتار عن مستوى سطح المدينة. وقمنا بصرف مبالغ مالية كبيرة كي نرفع من مستوى سطحها حتى لا نغرق في موسم الأمطار. وبعد كل ذلك كانت جدران منازلنا تحاط ببحيرات من المياه من كل جانب. وبالتأكيد لم يكن ذلك الوضع وضعا صحيا، غير أنه كان أفضل، وبكثير جدا، من الوضع بالخرطوم حين تركد المياه. ففي القاهرة كانت المياه تتدفق على النيل مع هبوط مستواه بعد انقضاء الفيضان، وهذا ما لا يحدث في الخرطوم.

ودعنا نفترض الآن أن مستوى المباني قد رفع في الخرطوم بحيث تتصرف المياه الزائدة إلى النهر. ودعنا نفترض أيضا أن كل فرد في المدينة قد استوعب أهمية وضرورة النظافة العامة، وأن الطرق والميادين قد بنيت، وأن العشرات من الأشجار الظليلة قد زرعت بين جنباتها، وأن ضفتي النهر قد تم تطهيرهما (من مسببات الأمراض)، وأن الأراضي الخالية بالمدينة قد ملئت زرعا، وأن العديد من الحدائق العامة قد أنشئت، وأن كل ما ذكر قد أدير بكفاءة وحسن تدبير، وأن

شبكة توزيع المياه قد مدت لكل أطراف المدينة عن طريق مضخات بخارية كبيرة – إن حدث كل هذا فلا شك عندي أن الخرطوم ستغدو قريبة من القاهرة من حيث الجمال والمناخ الصحي الملائم.

أما بالنسبة لتكاليف بناء منزل في الخرطوم، فهي تكاليف قليلة نسبيا. وتكون معظم التكلفة في شراء الأخشاب لعمل الأبواب والنوافذ والعمدان الخ، وهي غالية الثمن لأنها تستورد من أوربا. وعلى وجه العموم فالأخشاب المحلية عادة ما تكون مشوهة وشائكة، ولا تصلح إلا حطبا للوقود. غير أن الأمر مختلف بالنسبة للرجل الفقير، والذي يرضى بأقل ما يمكنه الحصول عليه من الضروريات، فالخشب المحلي مقبول بالنسبة له لعمل الأبواب والنوافذ وغيرها. صحيح أنه هنالك أخشابا محلية ضخمة وجيدة النوعية مثل خشب الأبنوس، غير أنها لا تتوفر إلا في مناطق بعيدة، ويصعب جلبها بسبب سوء طرق المواصلات. وبالإضافة لذلك فإن السكان المحليين لا يأبهون أصلا لتلك الأخشاب المحلية الجيدة، ولا يظنون أنهم بحاجة لها، والأوربيون يستفيدون من تجارة الأخشاب الأوربية ولذا لا يتعاملون في تجارة الأخشاب المحلية (والتي تدر ربحا أقل بكثير بالطبع). غير أنه يمكن، ومن باب تخفيض تكلفة البناء، «التحايل» على رداءة الأخشاب المحلية المشوهة الشائكة بربطها مع بعضها البعض ربطا محكما بواسطة حبال مصنوعة من سعف النخيل. ويتم بعد ذلك تغطية تلك الأخشاب المربوطة مع بعضها بحصائر، وطلائها بالجير أو التراب الخ. وبذا يستغني الفقراء عن استخدام ألواح ولوحات (planksandboards) الخشب المستورد الغالي الثمن.

ولا يستخدم الزجاج في نوافذ البيوت بالخرطوم فيما عدا ببيوت بعض الأوربيين. ولا تجد حتى في مبنى الإرسالية (المبني على النمط الأوربي) زجاجا في النوافذ فيما عدا في الكنيسة وفي غرفة أو غرفتين. ولا تغطي فتحات غالب النوافذ في المبنى إلا بقطع من القماش .... كلك توجد بمبنى الإرسالية أواني فخارية فيها يطبخ الطعام، ولها مآرب أخرى متعددة. وتوجد بها ذلك أطباق

وسلطانيات مصنوعة من القرع. وتستخدم فيها كذلك بعض الأدوات الزراعية المحلية والعناقريب. وكما ترى، فإن كل ما في الإرسالية هو من صنع محلي، ويمكن بسهولة أن تجده في بيت أي رجل أفريقي.

وبالنسبة للسكان المحليين، فهم يقضون غالب اليوم خارج غرفهم الصغيرة، وينامون بالليل (فيما عدا في موسم الأمطار) في فناء/ حوش البيت، ولا يستخدمون الغرف إلا لحفظ ممتلكاتهم القليلة المتواضعة.

ويمكن تقسيم سكان الخرطوم عرقيا إلى عرب وأفارقة. وأعتقد أن السكان الأفارقة يفوقون في العدد السكان العرب. ويسير الأثرياء من سكان المدينة العرب وهم في ملابس كاملة، وكذلك تفعل نساؤهم، واللواتي يغطين أوجههن خلا شقين صغيرين يمكنانهن من الرؤية.

ومن الجانب الآخر، نجد أن الأفارقة من الجنسين لا يضعون إلا قطعة من قماش قطني حول الوسط لتغطية أجسامهم، ويتركون أرجلهم عارية. ولا يرتدون ما ذكرنا إلا عندما يكون الجو صحوا أو رطبا، وعندما لا يعملون. ولكنهم لا يغطون أجسادهم وهم تحت أشعة الشمس اللاسعة، فهم لا يأبهون لحرارة الشمس الحارقة ولا يبدو أنها تسبب لهم أدنى ضرر. ويضع الأفارقة حول أذرعتهم بعض التمائم والتعاويذ، ونادرا جدا ما ترى أحدهم مرتديا صندلا (خفا / شبطا). ويقوم بعضهم بسن أسنانهم وشحذها، بينما يقتلع بعضهم قليل من أسنانهم حتى تجعلهم ينطقون لغة قبيلتهم بصورة أفضل (توجد تفسيرات مختلفة لعادة اقتلاع رجال بعض رجال القبائل الإفريقية لقليل من أسنانهم. انظر مثلا مقالنا المبذول في الأسافير بعنوان: «حول ترميم الأسنان عند شباب جنوب السودان» عما قام به أطباء الأسنان في ولاية نبراسكا من عمليات لتركيب أسنان صناعية لمن خلعت أسنانهم من السودانيين المهاجرين في تلك الولاية الأمريكية. المترجم). وتضع النساء الأفريقيات في الخرطوم أساور عديدة في أذرعهن وكواحلهن، وحتى في شفاههن، ويحطن أعناقهن بقلادات (سلاسل) من

عملات معدنية مثقوبة. وأحيانا تستبدل النساء الإفريقيات في الخرطوم قطعة القماش القطني التي سبق ذكرها بقطعة جلدية بسيطة يربطنها في وسطهن وحولها شرائط رقيقة من الجلد. ورغم أن شعر رؤوسهن قصير وجعد ورفيع، مثل شعر الرجال، إلا أنهم يجدن تسريح الشعر، ويتفنن في جعله أنيقا حسن المنظر. ويسير الأولاد والبنات عراة تماما حتى سن الثالثة عشر تقريبا.

وينام العرب في الخرطوم على الأرض، أو على بروش أو حصائر، وقليل منهم يملكون من المال ما يشترون به عناقريب للنوم. ولا يجلسون كما نجلس نحن، بل «يخلفون» أرجلهم ويضعونها تحت مؤخراتهم عند الجلوس.

ويصبغ العرب (خاصة النساء) أصابعهم / أصابعهن بلون مصفر من نبات الحناء، وتكحل النساء رموش أعينهن بمادة الأنتومنantimony السوداء (وهو معدن سام كما هو معلوم الآن. المترجم). وتزين النساء العربيات في الخرطوم أوجهن بوشم الشفاه.

وصارت عادات الأفارقة الذين تبنتهم وعلمتهم الإرسالية محتشمة ومحترمة. وتتم (في مدرسة الإرسالية) تغذيتهم بطعامهم الإفريقي المعتاد، والذي يوضع لهم في قدر (قدح) كبير يتحلقون حوله ويأكلون منه بصورة جماعية. ويجدون متعة عظيمة في إدخال أيديهم في ذلك القدر العظيم واختيار ما يحبون من طعام، ثم الانبطاح في حوش الإرسالية، دون مجرد التفكير في الدخول للفصول. وستمر سنوات طويلة قبل تعويدهم على أنواع طعامنا وطريقتنا في تناوله باستخدام الشوك والسكاكين. غير أنهم إن تعودوا على أنواع طعامنا وطريقتنا في تناوله فمن الصعوبة عليهم أن يرتدوا إلى ما اعتادوا عليه منذ ولادتهم. وهذا هو السبب الرئيس لنصيحتي بعدم ابتعاث هؤلاء الشباب الأفارقة للدراسة في أوربا. لقد كان الأب المؤسس دانيال كمبوني بعيد النظر حين قرر أن «يعيد خلق» أفريقيا بواسطة شباب الأفارقة من الجنسين، وأصر على تعليمهم / تعليمهن في معاهد أفريقية (وليس أوربية).

التُخم بين الزريقات

ودينكا ملوال في سنوات الحكم الثنائي

The Rizeigat –Malual borderland during the Condominium

Dr. Christopher Vaughanدكتور كريستوفر فون

مقدمة: هذه ترجمة وتلخيص لجزء من بعض ما جاء في مقال نشر في الفصل السابع من كتاب بعنوان:

«تخوم جنوب السودان The Borderlands of South Sudan»

والذي حرره كريستوفر فون وماريك شومرس ولوتج دي فارس، وصدر في نهاية عام ٢٠١٣م عن دار نشر بالقريف ماكميلان ببريطانيا. ويعمل دكتور كريستوفر فون حاليا محاضرا لعلم التاريخ في جامعة درام ببريطانيا متخصصا في تاريخ أفريقيا في القرن العشرين. وكان الكاتب قد أنجز رسالته للدكتوراه عام ٢٠١١م بجامعة درام بعنوان: «ثورات دارفور في سنوات الاستعمار الباكرة»، وسيصدر له قريبا كتاب بنفس العنوان مستل من تلك الأطروحة.

وقد يجد القارئ في ثنايا هذه السطور بعض جوانب الأبعاد والجذور التاريخية لمشكلة نزاع قبلي حول الموارد (وغيرها) قد يكون هو من أكبر المشاكل التي تواجه البلاد في هذا العصر، ولا يمكن تصور إيجاد حلول له دون النظر الفاحص لجذوره وتاريخه. وسيجد القارئ أيضا مقولة «فرق تسد divide and rule» ماثلة في سياسة الحكم الاستعماري في المنطقة التي يتناولها هذا المقال.

المترجم

**** ***** ****

نتناول في هذا الفصل أمر التخوم الفاصلة بين جنوب دارفور وشمال بحر الغزال في غضون سنوات الحكم البريطاني – المصري (والذي كان في حقيقة الأمر حكما بريطانيا خالصا بحكم الواقع). وغدت تلك التخوم، ومنذ عام ٢٠١١م موقعا لنزاعات حادة حول الحدود الدولية في المنطقة. غير أن تلك الحدود في عهد الاستعمار كانت حدودا تفصل بين مديريات شمال السودان وجنوبه، وكان مسؤولو الدولة يتخيلون أنها حدود فاصلة بين قبائل (بل أعراق) مختلفة، مثل بقارة الرزيقات (العرب) ودينكا ملوال (غير العرب). واكتسبت تلك الحدود أهمية خاصة بعد إقرار الحكومة لما سمته «السياسة الجنوبية» في عام ١٩٣٠م، والتي عدها الموظفون الاستعماريون والمؤرخون محاولة لتقييد الاتصال والتواصل بين ما تخيلوه من «سودان شمالي عربي مسلم» و«سودان جنوبي غير عربي وغير مسلم». غير أنه لم يكن هنالك من بد من الاتصال والتواصل بين الشعبين رغم القيود التي فرضتها «السياسة الجنوبية»، إذ أن تلك الحدود كانت قريبة مما يسمى باللغة العربية «بحر العرب» وباللغة الدينكاوية «كيير»، وذلك النهر وما حوله هو مصدر مهم للمياه والكلأ لرعي قطعان بهائم الشعبين. ومثلت إدارة الأنماط المتداخلة لاستخدامات تلك المصادر من قبل الشعبين تحديا رئيسا لإدارتي دارفور وبحر الغزال.

غير أن الهدوء النسبي الذي ساد في تلك الحدود في غضون سنوات الحكم الاستعماري دعا المحللين لبحث الدروس المستفادة والتي يمكن تطبيقها اليوم في مجال إدارة العلاقات على طرفي تلك الحدود الدولية. وفي سبيل حفظ السلم المحلي أقترح دوغلاس جونسون (أحد الخبراء الغربيين الذين استشيروا في اتفاقية السلام الشامل لعام ٢٠٠٣م) إعادة التقليد الذي كان ممارسا عند

الإداريين على جانبي الحدود في سنوات الحكم الاستعماري، والقاضي بعقد اجتماعات دورية للجان الحدود المشتركة. وأقترح أيضا تشجيع الاتفاقيات الشفهية والوساطات المحلية واستخدام نفوذ الزعماء المحليين (وليس الدولة) للحفاظ على الاستقرار المحلي.

وكتب بعض الخبراء الغربيين عن أن تخطيط الحدود بين الرزيقات ودينكا ملوال يكشف عن ميل البريطانيين وتحيزهم لجانب الرزيقات، والذين تحالفوا معهم في غزوهم الأول لدارفور عام ١٩١٦م. فقد كان البريطانيون يعتقدون بأن دينكا ملوال قد خسروا الأرض، وكانت تلك ضربة مؤذية لهم بقيت آثارها حتى الآن. وقد يكون مرد لك هو أن الرزيقات كانوا قد ظفروا في التفاوض مع الدولة بصفقة أفضل من تلك التي حصل عليها دينكا ملوال. ولعب الزعماء المحليون (local elites) دورا كبيرا في عمليات التفاوض مع مسئولي الدولة بخصوص الحصول على الموارد الرئيسة. ولعب التداخل والتفاعل (interaction) بين الدولة والأجندة المحلية (للقبيلتين) دورا مركزيا في تشكيل طبيعة الصراع الدائر الآن بين السودان وجنوب السودان حول هذه التخوم، وهو صراع يناهض شرعية الحدود التي رسمتها الدولة الاستعمارية. وقام دينكا ملوال بالتعبير (العنيف) عن توقعاتهم بتلقي العون من حكومة الحركة الشعبية لتحرير السودان والمنافحة والحفاظ على مطالباتهم في ملكية الأرض التي استولوا (أو استردوها) عمليا من الشمال في حرب أهلية طويلة. وبذا يكون الماضي الاستعماري حاضرا في المشهد الحالي في صور وأشكال عديدة.

ترسيم الحدود

كان واضحا من سنوات الاستعمار الثنائي الباكرة أن الرزيقات كانوا أكثر قربا وصلة (وبالتالي تأييدا) للإدارة الحكومية من دينكا ملوال. وكان أولئك الدينكا بعيدين من مراكز السلطة الاستعمارية في شمال بحر الغزال. ولم تكن الإدارة

الحكومية في ذلك الوقت تتحدث اللغة الدينكاوية. وعلى العكس من ذلك فقد كان الرزيقات (بقيادة عائلة مادبو) أقوى حلفاء البريطانيين منذ عام ١٩١٦م وما بعد ذلك، وعاونوهم في انتصارهم الباكر في دارفور. ويعتقد دوغلاس جونسون أن ذلك التعاون قد ساهم، وبقوة، في تشكيل الحدود بين الرزيقات ودينكا ملوال. وكانت حكومة العهد الثنائي في عام ١٩١٢م قد عرفت الحدود بين القبيلتين بأنها الحدود المقامة بين شطي بحر العرب. غير أنه، وفي عام ١٩١٨م (أي بعد عامين من مساعدة الرزيقات للبريطانيين في غزو دارفور) قام البريطانيون بتغيير تلك الحدود وزيادة مناطق الرزيقات لمسافة قدرها أربعين ميلا جنوب النهر. وأسفر ذلك عن حركة تمرد احتجاجية للدينكا في عام ١٩٢١م، وتم في عام ١٩٢٤م عقد مفاوضات بين حاكمي دارفور وبحر الغزال لبحث أمر إعادة ترسيم الحدود. وحاول الحاكمان الاستماع لما يقوله كبراء المنطقتين بخصوص تاريخ الحدود المشتركة، ليعثرا على سابقة تاريخية مؤكدة وموثوقة، غير أن تاريخ المنطقتين كان يتميز بـ «السيولة» والصراع وعدم الاستقرار، وبالقطع بأنماط من التداخل في حقوق الرعي. ولم يسفر اجتماع عقد في عام ١٩٢٤م لزعماء القبيلتين عن أي اتفاق، بل كانوا، كما وصفهم البريطاني ستبس (مفتش شمال بحر الغزال) في تقرير له في عام ١٩٣٠م: «أفرادا معزولين / غريبين؟ (oddindividuals)لا فرق بينهم بين العرب أو الدينكا (الذين يدعون تمثيلهم) والذين يزعمون بأنهم من الشات (Shatt) وملاك النهر الحقيقيون. و(الشات هم فرع من الداجو، والذين تزعم بعض المصادر أنهم هم سكان دارفور الأصليون، ويعيشون على مناطق الحدود السودانية – الشادية وفي جبال جنوب كردفان (أرض النوبة)، وهاجروا ليستقروا في منطقة أبيي الحالية. المترجم). ويبدو أن كلا من الرزيقات ودينكا ملوال كان يحاول الادعاء بأنه امتص / استوعب الشات في مجتمعه، وبذا يجب أن تكون له كامل الملكية والسيادة على النهر. يبد أن كل تلك المزاعم كانت أضعف من أن تقنع المسئولين الاستعماريين. وحاول دينكا ملوال والرزيقات الادعاء بملكية

الأرض بذريعة الانتصار في المعارك السابقة. وكان من المعروف تاريخيا أن الدينكا كانوا قد استلوا على أراضي تقع تحت الرزيقات في تلك الأيام التي كان فيها الخليفة عبد الله يطارد الرزيقات، وحدث عكس ذلك عندما انفرط عقد جيش دينكا ملوال وساءت أحوالهم القبلية بفعل إجراءات حكومية في مركز نياملیل (Nyamlell)، وبفعل قيادة العرب لحملات تجارة الرقيق في اوساطهم. وأخيرا تمت موافقة حاكمي المديريتين على تثبيت الحدود بين المديريتين عند أربعة عشر ميلا جنوب بحر العرب، وهذا هو ما بقي علهي الحال حتى الآن.

وظلت هذه الحدود بالنسبة لدينكا ملوال مصدرا لا ينضب للغضب والضغينة، وظل أولئك الدينكا يصفون حاكمهم البريطاني ويتلى بأنه الرجل الذي «تَبَرَّعَ بالنهر». غير أن اتفاقية عام ١٩٢٤م كانت قد أكدت حق دينكا ملوال في الرعي في المنطقة الوقعة جنوب شاطئ بحر العرب، وفي صيد السماك فيه. ولم تكن تلك الاتفاقية مجرد اتفاقية ألغت فعليا حقوق دينكا ملوال في المنطقة، بل كانت بالفعل اتفاقية قلبت ما ورد في التسوية التي وقعت في عام ١٩١٨م وأبطلته، وهي التسوية التي كانت في مصلحة الرزيقات. وأفلح الحاكم البريطاني ويتلى في الحصول على بعض التنازلات من إدارة دارفور لصالح دينكا ملوال، كان من أهمها ضمان حق القبيلتين في بحر العرب، والرعي في الأرض الممتدة لأربعة عشر ميلا جنوب ذلك النهر. وبالطبع كان هذا يعني أن لا مفر من حدوث اتصال وصلات (واحتكاكات. المترجم) بين أفراد القبيلتين، والتي كانت تتطلب بدورها حسن إدارة من الإداريين بالمديريتين.

إدارة العلاقات العرقية (الأثنية)

كان المسئولون البريطانيون في المناطق الوقعة على طرفي الحدود بين الرزيقات ودينكا ملوال يهتمون كثيرا بالاجتماعات السنوية المشتركة بين زعماء القبيلتين، ويداومون على اللقاء بهم لبحث حلول المشاكل بين القبليتين. ولعب الزعيم

القبلي القوي الناظر إبراهيم موسى مادبو أدورامهمة في تلك الاجتماعات، بينما كان يمثل دينكا ملوال مجموعة من «السلاطين» والزعماء القبليين. ولم يكن هنالك لدينكا ملوال قائد واحد، بل كان يشار لزعاماتهم بصورة جماعية، دون ذكر اسم أي واحد منهم. وكان هذا هو أحد الأدلة على لامركزية هياكل السلطة المحلية عند دينكا ملوال. وكانت تلك الاجتماعات المشتركة، ومنذ عام ١٩٢٠م وحتى ١٩٥٦م، تعقد سنويا (مع بعض الاستثناءات القليلة) في «سفاهة» وهي نقطة تجمع سكاني مهم في منطقة بحر العرب. ومثل تلك الاجتماعات ليست غريبة على سكان المناطق حول الحدود في دارفور، فتلك كانت هي الطريقة المفضلة لفض النزعات بين العرقيات المختلفة في تلك المديرية، وكانت كثيرا ما تعقد في الثلاثينات بين زعماء القبائل الرعوية التي تسكن في مناطق الحدود بين كردفان ودارفور. وكانت تعقد لتعضيد ما يسمى «محنة» تدوم بغض النظر عما تصدره الحكومة من مراسيم. وكان المسئولون البريطانيون يؤثرون التأكيد والتعويل على العلاقات الشخصية بين الزعماء القبليين أكثر من التعويل على قبضة الدولة وسلطتها على الحدود.

وكان لتلك الاجتماعات الثنائية غرضا آخر كذلك. فالاجتماعات الثنائية بين مسئولي المديريتين (مثل دارفور وكردفان) كانت تهدف للتأكيد بأن الحكومة واحدة، وبأن المسئولين على جانبي الحدود ليسوا في حالة تنافس وتسابق، أو حكاما مستقلين أو شبه مستقلين، بل هم مسئولين في حكومة واحدة وموحدة وليس فيها انشقاقات تقوم على أساس شخصي. وقال أحد المسئولين بديرية دارفور بأن تلك الاجتماعات أثبتت أنه من المستحيل استغلال أي مسئول ليعمل ضد مسئول آخر.

وكان ذلك هو ذات غرض الاجتماعات التي كانت تتم بين الرزيقات ودينكا ملوال، والتي حرص فيها المسئولون البريطانيون من الطرفين على تأكيد عدم

تحيزهم لمن يحكمونهم. وقال نائب حاكم دارفور في عام ١٩٣٣م بأن تلك الاجتماعات «أثبتت خطل الأفكار البالية التي عفى عليها الزمن، والتي تسعى لتأكيد تفوق العرب النسبي على السود أو العكس، وأكدت مساواة الفريقين في نظر الحكومة، والتي تصر إصرار قويا على ضرورة أن يعيش السود والعرب معا في وطن موحد». ولكن في الواقع لم يف المسئولون بتلك الأفكار المثالية. فقد ساد الاحساس بأن كل مسئول كان ينافح عن من يحكمهم. بل كادت تلك الاجتماعات أن تظهر للسطح الصراعات والتوتر بين الزعماء القبليين والمسئولين البريطانيين. وأحس الزعماء القبليون بأن الحكومة ليست على قلب رجل واحد، بل ظهرت جلية لديهم طبيعة ممثلي الحكومة التي تتسم بالفرقة والشتات والمطامع والمصالح الشخصية.

تحيُّز المسئولين

لم يخل سلوك المسئولين في دارفور من تحيزات وأفكار مسبقة. وحضر لامبن الإداري البريطاني بدارفور أول اجتماع مشترك بين دينكا ملوال والرزيقات في «سفاهة» في ١٩٢٧م، وسجل لاحقا انطباعاته عن دينكا ملوال ووصفهم بأنهم «متسولين بُغَضاء». وكانت مثل تلك المقولات تعكس آراء المستعمرين البريطانيين بخصوص التسلسل الهرمي العنصري (في أذهانهم بالطبع. المترجم). وسجل لامبن أن آرائه عن الملوال ترتبط أشد الارتباط بآراء الرزيقات حولهم، وأضاف ما نصه: «لمست من صلاتي بالعرب بعض آراء البقارة المسبقة وتحيزاتهم ضد هؤلاء الناس واعتبارهم مجرد برابرة يواجهون هامش العالم المتحضر». وكان لامبن هذا، وبدرجة ما، يساهم في إشاعة المشاعر العنصرية عند السكان المحليين وعند المستعمرين أيضا. وخلافا لما طالب به لامبن من ضرورة أن يعيش الرزيقات ودينكا ملوال مختلطين في سلام حول حدود منطقتيهما، كان الإداري البريطاني في بحر الغزال ستبس يتهم لامبن بأنه إنما

يتحدث باسم الرزيقات. وسجل ستبس في مذكرة له ما نصه: «لا شك أن العرب يفضلون الاختلاط بدينكا ملول ... وكيف لا وهم يجدون فيهم الأيدي العاملة الرخيصة، والزوجات اللواتي يلدن لهم أطفالا». إن أسلوب «ترك الحبل على الغارب، أو ترك الأمور تجرى في أعنتهاlaissez –faire attitude» في أوساط مسئولي الحكومة بدارفور في أمر إدارة التداخل والتفاعل بين الرزيقات ودينكا ملوال قد يعزى للحكم الذاتي الواسع الصلاحيات الذي منحه هؤلاء للناظر القوي إبراهيم موسى مادبو زعيم الرزيقات. وكانت آراء هؤلاء الإداريين البريطانيين بدارفور لا تختلف في تحيزها عن تلك التي يحملها المسئول البريطاني استبس على الجهة الأخرى من الحدود، والذي كان يصر على ضرورة الفصل العنصري بين الشعبين.

غير أن مسئولي دارفور البريطانيين كانوا قد ألقوا بصريح العبارة بتهمة «التحيز» على المسئول البريطاني استبس ببحر الغزال. بل إن كرافورد خليفة لامبن في إدارة دارفور زعم صراحة بأن استبس كان مخطئا جدا في معاملته لدينكا ملوال على أنهم «عرق متحضر ومنضبط» ولامه على عدم حكمته لوضعه كامل ثقته فيهم و «هو يرى سلوكهم على النهر». ومضى كرافورد في اتهامه لستبس مشيرا إلى أن المشاعر الوطنية لم تظهر عند الدينكا إلا بعد أن حل بأرضهم هذا الرجل المدعو استبس، وأنهم شعروا معه بأن ورائهم حكومة تحمي مصالحهم، وأن «بإمكانهم – في وقاحة لا نظير لها- تجاهل أي حدود مرسومة سلفا». غير أن الواقع يقول بأن استبس لم يلعب ذلك الدور المهم والخطير الذي قيل إنه كان قد لعبه كمتحدث باسم الطرف الأضعف (وهم زعماء و«سلاطين» دينكا ملوال) ضد الطرف الآخر بزعامة الناظر القوي إبراهيم موسى مادبو. وليس معروفا إن كان ذلك نتيجةً أم سببا لزيادة تشبث وإصرار دينكا ملوال على مواقفهم. وأورد كرافورد في مذكرة له يوم ١٠ أبريل ١٩٣٣م أن الرزيقات أبلغوه أن دينكا ملوال كانوا يغنون كلاما يفيد بأنهم «يسقون أبقارهم الآن من النهر، وستكون «أبو جابرة» هي محطتهم الثانية».

ومعلوم أن «أبو جابرة» هي رئاسة قبيلة الرزيقات. ولام كرافورد في تقريره مجددا ستبس لتشجيعه دينكا ملوال على تقويض وحدة الدولة، وتقليل هيبتها في أعين الأهالي، ولتعضيده لدينكا ملوال في استفزازهم لجيرانهم. ولا ريب أن كرافورد نفسه كان متأثرا بما يسمعه من الرزيقات ويؤيد مطالبهم.

ولم تكن عدم الثقة والمنافسة بين المسئولين البريطانيين قصرا على مفتشي المراكز، بل إن حكامي المديريتين أنفسهما كانا على خلاف عميق في أمر الصراع بين الرزيقات ودينكا ملوال، وكان كل واحد منهما يقف - بالحق والباطل- خلف ما يقوله ويفعله من تحته من الإداريين. وأرسل دوبس حاكم دارفور في ١٨ يونيو ١٩٣٢م خطابا لبرووك حاكم بحر الغزال يتهم فيه استبس بالتحيز لمن يحكمهم، وبالعمل على زيادة التوتر والشقاق بين الرزيقات ودينكا ملوال. ورد برووك بالدفاع عن استبس، مؤكدا أنه «مسئول محايد وفعال، لأنه خبير بدقائق شئون الدينكا ويجيد لغتهم ويفهم عقليتهم وعاداتهم ويدرك ما يحتاج إليه المرء لإدارتهم». والسؤال هنا هو: هل كانت تلك «المعرفة بدقائق شئون الدينكا» تهدد بالفعل الوحدة «الظاهرية» للدولة الاستعمارية بخلقها «تعاطفا شخصيا» قد لا يخلو من مخاطر. وسجل كرافورد أن سمع إشاعة في كردفان المجاورة تقول بأن الحمر العرب يقولون بأن «الحكومة لا تحب إلا الدينكا، ولم تعد تحب العرب» وكان ذلك هو رأي الرزيقات أيضا. وأزعجت مثل تلك الأقوال الإداريين بدارفور، وأشعرتهم بأن شرعيتهم مهددة إن فشلوا في الدفاع عن مصالح المجتمعات التي يحكمونها ضد مصالح المنافسين الآخرين.

حالات التزاوج (التصاهر) بين العرقين

كانت إحدى أسباب النزاع بين الرزيقات ودينكا ملوال في بداية الثلاثينيات يتعلق بأدق الشئون الشخصية في الحياة الاجتماعية، ألا وهي حالات الزواج والطلاق. ولعبت المصاهرة دورا غير منكور في خلق علاقات حميمة بين الرزيقات

ودينكا ملوال، غير أن تلك العلاقات خلقت أيضا أسبابا جديدة لصراعات ونزاعات بين بعض أفراد القبيلتين، خاصة وأن عمليات التزاوج تلك كانت تسير في اتجاه واحد، حيث اقترن رجال الرزيقات بفتيات من دينكا ملوال، ولم يحدث العكس أبدا. وربما كان لذلك التوجه أسبابا تاريخية تتعلق بالفترات السابقة التي سادت فيها تجارة الرقيق. وربما كان تعرض دينكا ملوال لمحاولات الاسترقاق من جيرانهم في الماضي كان هو السبب في دفاع ستبس عنهم ضد الرزيقات.

وشملت أجندة اجتماعات «سفاهة» في ١٩٣٢م بين الرزيقات ودينكا ملوال بحث أمر المشاكل الزوجية بين رجال الرزيقات ونساء دينكا ملوال. فقد اِشتكَى بعض رجال الرزيقات من نشوز زوجاتهم الدينكاويات، واِشتكَى البعض الآخر من أن بعض الزوجات الدينكاوات يقمن بأخذ أطفالهن من أزواجهن الرزيقات ويهربن بهم إلى أهلهن في بحر الغزال. بينما أشتكى في المقابل زعماء دينكا ملوال من عدم دفع بعض رجال الرزيقات لمهور زوجاتهم الدينكاويات، أو الاقتران بهن دون موافقة أهلهن. وكان بعض شباب دينكا ملوال يذهبون لدار الرزيقات بحثا عن العمل، ويأخذون معهم بعض قريباتهم من فتيات الدينكا، ويسعون هنالك لتزويجهن من رجال الدينكا أو الرزيقات، ثم يأخذون مهورهن ويحتفظون بها لأنفسهم ولا يعطون أهلهن من كبار السن شيئا. وتم الاتفاق على إنشاء محكمة خاصة مكونة من قضاة من القبيلتين للبت في مثل تلك القضايا. غير أنه يجب القول هنا أن الإداري البريطاني ستبس كان يقف دوما ضد التصاهر بين دينكا ملوال والرزيقات لأن ذلك التزاوج يثمر عن «أطفال دينكا مستعربين مقتاء»، ويشجع في رأيه على استمرار تجارة الاسترقاق، والزواج «القليل التكاليف المادية». وأتهم ستبس زعيم الرزيقات نفسه بالسعي للزواج من كريمة أحد زعماء دينكا ملوال بغرض توثيق صلاته بالدينكا، وأملا في بسط نفوذه بينهم. ونفى مادين الإداري البريطاني بدارفور ما زعمه ستبس من اِتِّجار الرزيقات بنساء دينكا ملوال، وأكد نفي زعيم الرزيقات لتهمة تجارة الرقيق، بل وأتهم ستبس بالتخليط

وعدم التفريق بين «الزواج بالتراضي» وبين «الاسترقاق».

ومما ذكر في تلك المحكمة الخاصة بالمشاكل الزوجية مطالبة الأزواج من الرزيقات برد أطفالهم إليهم من زوجاتهم الدينكاويات الناشزات. وردا على ذلك طالب أولياء الزوجات بدفع عدد معين من الأبقار، جريا على التقليد القبلي عندهم. بينما كان ستبس يرفض قطعيا إعادة أولئك الأبناء لآبائهم خوفا، كما قال، من أن «يجعلوا رقيقا عند أولئك العرب».

وتم في نهاية المطاف عقد اتفاقية هزيلة تفيد بموافقة زعماء القبيلتين على إثناء الشباب من الطرفين عن الزواج المختلط الأعراق، وعدم عقد أي زيجة مشتركة إلا أمام مفتش المركز لشمال بحر الغزال، حيث يتم تسجيلها رسميا. وأبرمت تلك الاتفاقية في عام ١٩٢٨م. ولم تسجل أي زيجة مختلطة منذ ذلك التاريخ. وشهدت جلسة الاجتماع بين زعماء القبيلتين تلاسنا وتهما متبادلا وجوا مترعا بالتوتر والحدة والاحساس بعدم المساواة. وحدث أثناء ذلك الاجتماع أن أختطف رجال دينكا ملوال أحد صبية الدينكا الذي كان في رفقة حاشية ناظر الرزيقات رغم إرادته مما أغضب الناظر مادبو غضبا شديدا. واضطر الإداري البريطاني ستبس لإعادة الصبي لحاشية الناظر رغم احتجاج الزعيم الدينكاوي دينق وول والذي سمعه أحدهم وهو يقول: «لولا الحكومة لأخذنا هؤلاء الناس بالقوة».

إدارة حقوق الرعي

لاحظ إداريو دارفور تحسنا كبيرا في العلاقات بين الرزيقات ودينكا ملوال في الشهور الأولى من عام ١٩٣٣م بسبب التحسن الكبير في حالة المراعي في المنطقة عقب سنوات من الجفاف، والذي ساهم في زيادة الاحتكاك والنزاع بين القبيلتين. وكان تقاسم المراعي بين الرزيقات ودينكا ملوال في المنطقة الواقعة جنوب بحر الغزال، ومنذ قديم، من أهم نقاط النزاع والتصادم بين القبيلتين. وكان الاقتراح

المقدم من إداري بحر الغزال لترسيم حدود واضحة بين القبيلتين تجري من جهة الشرق للغرب قد رفض في البدء. غير أن عوامل كثيرة دفعت الحكومة فيما بعد لتشديد الرقابة على التداخل والتفاعل بين أفراد القبيلتين في منطقة الرعي تلك.

وكان كرافورد (مفتش مركز جنوب دارفور منذ عام ١٩٣٣م) يعتقد جازما باستحالة التعايش السلمي بين أفراد القبيلتين، مما يلزم الحكومة – في رأيه- للتدخل والفصل بينهما. وكتب كرافورد خطابا إلى حاكم دارفور في يوم ١٠/ ٤/ ١٩٣٣م جاء فيه: «لا يزال العرب يعتبرون الدينكا عرقا أقل منهم شأنا». ولاحظ الرجل أيضا أن الضرائب المفروضة على دينكا ملوال في منطقة الرعي (المشتركة) ترتفع سنويا بمقدار ٤٪، مما يعني حدوث زيادة متسارعة في عدد أفراد تلك القبيلة وماشيتهم في المنطقة، وهذا من شأنه بالطبع أن يضع ضغوطا إضافية على المرعى. وأرجع بعض الإداريين في عام ١٩٣٣م زيادة عدد أبقار الدينكا في المنطقة في السنوات الثماني الأخيرة إلى عدم حدوث أوبئة فيها (مثل الطاعون البقري). وكانت إدارة بحر الغزال تقوم أيضا بتشديد الرقابة على مناطق الرعي المشتركة، وترسم حدودا واضحة في بحر الغزال نفسها للدينكا، مع ملاحظة أن حاكم بحر الغزال برووك أمر بتخصيص أراض بعينها في مديرية بحر الغزال كي يستخدمها دينكا ملوال مرعا لأبقارهم، وكان يردد دوما أن «عدم توفير مراعي معلومة الحدود للرجل الدينكاوي ستجعل منه متمردا خارجا عن القانون».

غير أن حادثة محددة وقعت في أبريل من عام ١٩٣٣م أشعلت فتيل النزاع والحرب مجددا بين العرب ودينكا ملوال، إذ قام في أبريل من عام ١٩٣٣م رجال من دينكا ملوال باغتصاب عدد من نساء عرب الحمر في منطقة الحدود بين كردفان وبحر الغزال. وقام على إثر ذلك رجال الحمر بحملة انتقامية على الدينكا. وساهمت تلك الحملة في رفع حدة التوتر في المنطقة الحدودية بين دينكا ملوال والرزيقات أيضا. وزاد شباب الدينكا من وتيرة دخلوهم لمراعي تتبع للزريقات،

ولم يرد رجال الرزيقات على تلك الاعتداءات وذلك بسبب القيود والانضباط الذي فرضهم عليهم زعيمهم الناظر إبراهيم موسى مادبو. وهنا يبدو للمحلل أن شباب الدينكا كانوا قد بدأوا في التمرد على زعاماتهم التقليدية القديمة، ويخالفون أوامرها.

وتواصلت المحادثات بين القبيلتين تحت إشراف الإداريين البريطانيين من المديريتين، وتم الاتفاق بينهما في «سفاهة» في عام ١٩٣٥م. وقام بإنجاز ذلك الاتفاق النهائي الإداريان البريطانيان كرافورد واستبس دون حضور زعماء القبلتين المتصارعتين. وشمل الاتفاق بنودا تفصيلية عديدة تتعلق بتحديد أيام معينة لرعي بهائم كل من أفراد القبيلتين بحسب الموسم (جفافا وخريفا). وجاء في الاتفاق ضرورة التزام الدينكا بعدم الاقتراب من فرقان العرب، أو أماكن صيدهم، وعدم منعهم من صيد الأسماك من النهر، وعدم الرعي في دار رزيقات في موسم الخريف.

ولم يكن من غير المتوقع أن يرفض زعماء دينكا ملوال اتفاقية ١٩٣٥م عندما عرضت عليهم لأول مرة، وطالبوا باتفاقية جديدة تتيح لأفراد القبيلتين حرية الرعي أينما شأوا واعتبار كامل المنطقة مراعي مفتوحة للقبيلتين. وعند ذلك تنازل الناظر إبراهيم موسى مادبو للدينكا بمنحهم عشرين يوما للرعي في منطقته في موسم الخريف، شريطة أن يسمح للرزيقات بالرعي في مناطق الدينكا في موسم الجفاف.

غير أن تلك الاتفاقية لم تثبت على أرض الواقع لأن حاكم الاستوائية (والتي كانت بحر الغزال جزءً منها) كتب إلى السكرتير الإداري بالخرطوم طالبا منه تعديل الحدود المرسومة في عام ١٩٢٤م بين مديريته وبحر الغزال لأنها، وبحسب قوله: «مثل اتفاقية فرساي... تبذر بذور الحرب في المستقبل».

وبحسب نظرية بعض الإداريين البريطانيين التي مفادها أن العلاقات الجيدة

بين زعماء القبائل هي مفتاح الحل للمشاكل القبلية، أقام البريطانيون حفـل شـاي لزعماء القبيلتين في عام ١٩٣٩م قام فيه مادبو ناظر الرزيقات بإلقاء خطبة أبرز فيها موهبته المعتادة في التباعد عن السيطرة الاستعمارية عـلى منطقتـه، والتركيـز عـلى سلطته المطلقة عليها حيث قال: «كنت كرجل ذي ولـدين: الـدينكا والرزيقـات. ولا أستطيع كأب أن أتجاهل أي منهما».

وفي عام ١٩٤٦م حدثت معركة صغيرة بين بعض أفراد القبيلتين حـول الرعـي قتل فيها أربعة رجال من الطرفين. وسببت تلك الحادثـة أزمـة محـدودة الأثـر في العلاقات بين القبيلتين. إلا أن الحكم بدفع ديات (بحسـب المعـايير الموضـوعة من قبل دينكا ملوال) أفلح في حل المشكلة تماما. غيـر أن مشـكلة حـوق الرعـي ظلت تراوح مكانها، وكانت تظهر بين حين وآخر حتى فجر يوم الاستقلال.

وبالنظر إلى تـاريخ ذلـك الصـراع نجـد أن الصـراع و«حـرب الكلمـات» بـين الإداريين البريطانيين على جانبي الحدود في المنطقة كان له أثر مهـم في إذكـاء نـار الخلاف والصراع بين أفراد القبيلتين، وكشف عن صراع خفي ومعلن بين أجنحة مختلفة في داخل الدولة الاستعمارية نفسها تسبب في تخبط وتغييـرات مفاجئـة في سياسات الحكومة تجاه القبيلتين.

الرحالة النمساوي ريتشارد بوختا وقاضي الخرطوم

Richard Buchta and the Kadi of Khartoum

توماس اشمندقر Thomas Schmidinger

مقدمة: هذه ترجمة لمقال قصير عن الرحالة النمساوي ريتشارد بوختا (١٨٤٥ – ١٨٩٤م) والذي زار السودان في عام ١٨٧٧م حيث قابل الحاكم العام غردون باشا، والذي رتب له أمر السفر للادو بجنوب السودان للقاء النمساوي أمين باشا.

وكاتب المقال (والذي ورد بنشرة جمعية الدراسات السودانية في عددها رقم ٢٨، والصادر في عام ٢٠١٠م) هو الدكتور النمساوي توماس اشمندقر (١٩٧٤م –) المحاضر في قسم العلوم السياسية في جامعة فينيا، والذي كتب عددا من الكتب والمقالات عن الإسلام السياسي والديمقراطية والثيوقراطية في السودان والعراق. وهو عضو في جمعية الصداقة النمساوية – العراقية، وفي جمعية الدراسات السودانية.

المترجم

**** **** ****

بحسب ما جاء في البيليوغرافيا الألمانية العامة AllgemeineDeutscheBibliographie فقد ولد ريتشارد بوختا في التاسع عشر من يناير ١٨٤٥م في مدينة رادلاو بغاليسيا، والتي كانت في تلك السنوات من ضمن مدن إمبراطورية هابيسبيرج (النمساوية). وهي الآن مدينة صغيرة من مدن جنوب بولندا. وعلى الرغم من أن غالب سكان منطقة غاليسيا كانوا يهودا، إلا أنه لا يوجد دليل على أن ريتشارد بوختا نفسه كان يهوديا. ومنذ القرن

الثالث عشر كانت مدينة رادولا مقرا للأسقف، وكان اليهود يمنعون من الإقامة فيها. ولم يظهر في المدينة أي يهودي حتى مطلع القرن التاسع عشر. وكانت الجالية اليهودية في رادولا قليلة العدد نسبيا مقارنة مع بقية مدن منطقة غاليسيا حتى غشيهم الغزو الألماني بعد ١٩٣٩م فأبادهم. وعلى الرغم من هذا فقد نشأ بوختا متحدثا بالألمانية وليس البولندية. واسمه بلا شك اسم ألماني، وهو يكتب باللغة الألمانية وليس البولندية كما كان يفعل الكتاب اليهود في منطقة غاليسيا في تلك الأيام. ولا تعرف الآن على وجه اليقين خلفية عائلته، ويتطلب الأمر مزيدا من البحث.

بحسب ما جاء في الببليوغرافيا الألمانية العامة فقد سافر ريتشارد بوختا إلى مصر في بدايات سبعينيات القرن التاسع عشر، وواصل ترحاله جنوبا حتى وصل للسودان المصري، ووصل فيها للمديرية الاستوائية حيث حل ضيفا على أمين باشا في لادو (بحسب ما ورد في موسوعة الويكيبيديا فقد كانت لادو مدينة على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض في منتصف الاستوائية اتخذها غردون باشا عاصمة له عوضا عن غوندوكورو في عام ١٨٧٤م، وأبقاها أمين باشا من بعده عاصمة له في ١٨٧٦م. وكتب عنها الرحالة الروسي جينكر عام ١٨٨٤م مشيدا بمبانيها المشيدة بالطوب الأحمر وشوارعها النظيفة. المترجم). وكان أمين باشا (وهو اسحق إدوارد شينتزر، المولود في المدينة البولندية سيليساSilesia) حاكما على الاستوائية، وهو من رعى رحلات بوختا في أرجاء المديرية، والتي طاف فيها على كل مناطق الجنوب حتى مناطق الحدود الحالية مع أوغندا. وكان من أهم نتائج تلك الرحلات هي الصور التي قام بتصويرها بوختا ونشرها ببرلين عام ١٨٨١م في كتاب بعنوان: DieOberenNil-Lander. VolkstypenundLandschaften. Dargestellte in 160 Photographien مناطق أعالي النيل: أنواع السكان والمناظر الطبيعة موضحة في ١٦٠ صورة

ونشر كتاب بوختا بمقدمة سطرها روبرت هارتمان، البروفيسور بجامعة برلين. وكانت الصورة رقم ١٠ في ذلك الكتاب بعنوان «قاضي الخرطوم

DerKadivonChartum» والصورة الموجودة الآن بمكتبة بوسطون العامة هي مأخوذة من ذلك الكتاب. يمكن مشاهدة الصورة في عدد من المواقع الاليكترونية منها: http://www.kulturpool.at/plugins/kul...ontext=default:

وفي نفس الصفحة توجد صورة لموسى بيه وهو «أكبر شيوخ الهدندوة GrossscheichderHadendawa». ولم يذكر المؤلف في الصورة اسم ذلك القاضي. وهنا أختلف مع ما أتى به بشرى بابكر الطيب بنشرة جمعية الدراسات السودانية في عددها رقم ٢٧، والصادر في عام ٢٠٠٩م في أن عنوان الصورة هو «قاضي الخرطوم» وليس «قاضي من الخرطوم». ولو أرد المؤلف أن يعنون صورته (كما يدعي بشرى) «قاضي من الخرطوم» لكتب العنوان هكذا: EinKadiausChartum وليس Der KadivonChartum. غير أن هذه الصورة لا تثبت أن القاضي هو محمد خوجلي حتيك آخر قاضي عموم السودان في عهد التركية، غير أنها توضح على الأقل أن بوختا كان يعتقد أن ذلك الرجل صاحب الصورة هو قاضي الخرطوم. (بحسب ما رود في موقع من مواقع الشبكة العنكبوتية فقد ولد القاضي محمد خوجلي ودحتيك ود قسومة في عام ١٨١٨م بالخرطوم، وعمل قاضيا لعموم السودان في الفترة من العام ١٨٥٧ م إلى العام ١٨٨٥م. وهو من الذين أنكروا مهدية الامام محمد أحمد واغتاله الانصار في داره (حاليا مباني القضائية) فجر يوم الاثنين ٢٦ يناير ١٨٨٥م وهو اليوم الذي فتحت فيه الخرطوم. المترجم).

وأتى البروفيسور هارتمان في مقدمته لكتاب بوختا على عدد من الصور الواردة في الكتاب. غير أنه لم يتطرق لصورة «قاضي الخرطوم». وبهذا يبقى الغموض يلف تلك الصورة.

ورغم ذلك يظل الكتاب مصدرا مهما ومثيرا للأعجاب، ليس فقط لسودان القرن التاسع عشر، بل من أجل معرفة نظرة رحالة نمساوي للسودان والسودانيين في ذلك الزمان. ويكثر بروفيسور هارتمان في مقدمته للكتاب من الأوصاف المادية (الفيزيائية) لما سماه«الزنوج/ السود Nigritier، وبقية الأعراق في أفريقيا جنوب الصحراء. ويبدو

أن ذلك البروفسور كان معجبا بأجسام السودانيين، غير أنه لم يسجل في مقدمته أي شيء يذكر عن ثقافات أو لغات أو مجتمعات تلك القبائل السودانية.

ولا تبرز لنا كذلك تلك الصور شيئا مفيدا عن المناخ الثقافي لتلك القبائل. والكثير من الصور في الكتاب هي صور أنثروبولوجية كلاسيكية (أمامية أو جانبية) عرف بها ذلك الزمان. ولم يتم في الكتاب ذكر اسم أي واحد ممن تم صورهم، بل عرفوا بقبلية كل واحد منهم. وكمثال لذلك نذكر الصورة رقم ٨٨ والتي عنونها المؤلف بـ «زنجي من النيام نيام». وهنالك قليل من الصور لمناظر طبيعية ومبان مثل مبنى الإرسالية الكاثوليكية لوسط أفريقيا في أفريقيا.

وعندما أنشأ البابا جريجوري السادس عشر النيابة الرسولية لأفريقيا الوسطى في عام ١٨٤٦م قام الإمبراطور النمساوي – المجري فرانسيس جوزيف الأول برعاية تلك الارسالية، وبعث لها بعدد كبير من القساوسة والمبشرين النمساويين. وتبدو صلة بوختا بتلك الإرسالية واضحة جدا. وكانت الصورة التي التقطها لمبناها هي الصورة الوحيدة المتوفرة لها، بعد أن دمرت في العهد المهدوي.

وضمن المؤلف في ذلك الكتاب صورا لعاهرات قد تثير الخيال الشرقي الذكوري. غير أن أي من تلك الصور لم توضع في أي سياق محدد (contextualized)، وبذا تظل كثيرا من الأسرار الغامضة حبيسة ذلك الكتاب، وفي انتظار من يجلي غموضها يوما ما.

ونشر بوختا في عامي ١٨٨٤ و١٨٨٨م كتابين آخرين عن رحلته للسودان وعن تاريخه، إلا أنه لم يتطرق فيهما لتلك الصور التي ضمها كتابه السابق.

وبحسب ما جاء في الببليوغرافيا الألمانية العامة عمل بوختا بعد عودته لأوربا فنانا في بلاط الملك البافاري لودفيج الثاني. ثم قام باستخدام ما كسبه من مال في سنوات عمله في بلاط الملك البافاري في تمويل رحلة أخرى لمصر في عام ١٨٨٥م، حيث زار وأقام بالفيوم. وبعد وفاة لودفيج الثاني في ١٨٨٦م رجع بوختا لفيينا إلى أن توفي في ٢٨/ ٧/ ١٨٩٤م.

أصول الفونج

Fung Origins

جيمس ويلسون روبرتسون J. W. Robertson

مقدمة: هذه ترجمةلبعض ما جاء فيالعدد السابع عشر من مجلة «السودان في مذكرات ومدونات SudanNotesandRecords»والصادر عام 1934م، عن أصول الفونج، بقلم الإداري البريطاني جيمس ويلسون روبرتسون (١٨٩٩ – ١٩٨٣م).

بدأ روبرتسون العمل في السودان برفاعة مساعدا لمفتش مركز النيل الأزرق وعمره ٢٣ عاما، وانتقل بعد ذلك للعمل في القطينة والكاملين والدويم ثم الروصيرص (الفونج) والنهود، وعاد للعمل مفتشا للمركز في الدويم، ونائبا للحاكم في واد مدني، وختم فترة عمله في السودان متقاعدا من وظيفة السكرتير الإداري عام ١٩٥٣م.

وخاض بعض الغربيين من علماء التاريخ والآثار وغيرهم (مثل جيمس بروست و آركل وجي سبوليدنق مؤلف كتاب «العصر البطولي في سنار») في بحث أصول الفونج، وهو من الأمور الخلافية شديدة الالتباس والغموض، ربما لقلة المصادر التاريخية وتضاربها أو لأسباب أخرى. وهنالك أيضا من كتب من السودانيين في تاريخالفونج مثل بروفيسور يوسف فضل في كتابه «تاريخ الممالك الإسلامية في السودان...» ومقاله المعنون «لمحات من تاريخ مديرية النيل الأزرق»، ودكتور جعفر ميرغني في عدة مقالات مبذولة في الشبكة العنكبوتية،

وهنالك أيضا كتيب من إصدار إدارة التخطيط والبحوث بوزارة الثقافة والإعلام في ولاية سنار بعنوان «قراءة في تاريخ الفونج»، وتناولت كثير من المواقع الإسفيرية ذات الموضوع، منها:

http://sudaneseonline.com/cgi-bin/sdb/2bb.cgi?seq=msg&board=240&msg=1253248474&func=flatview

http://www.singacity.net/vb/showthread.php?t=3864

ولخصت موسوعة الويكيبيديا أصول الفونج في هذه الجملة: «اختلف الباحثون كثيراً في تحديد أصل الفونج. وقد أدرج بعض علماء اللغات المقارنة والآثار، نظرية أصل الفونج التي ترجع إلى منطقة الشلك على النيل الأبيض وهم من المجموعة النيلية بالسودان وتحديداً الأصول القديمة للشلك، وهناك احتمال آخر ينسبهم إلى بلاد برنو في غرب أفريقيا، فيما ترجعهم نظريات أخرى إلى الأصل الحبشي.أما عن الروايات السودانية التي نشرها بعض المؤرخين وتداولها الأهالي أنفسهم فإنها تجمع على أن الفونج مجموعة من سلالة بني أمية التي هربت من قيد الدولة العباسية بعد سقوط دولتهم واتجهت نحو بلاد السودان عن طريق الحبشة».

المترجم

**** **** ****

أشار السيد آركل (A. J. Arkell) في مقالهعن أصول الفونج، والمنشور في هذه المجلة (أي «السودان في مذكرات ومدونات») في عام ١٩٣٢م إلى تعيين الشيخ محمد إدريس رجب ناظرا على قولي Gule. وقد كنت أنا شخصيا من ضمن الذين شهدوا الاحتفال بتنصيب ذلك الناظر بقولي في ديسمبر من عام ١٩٣١م. وشيخ محمدهذا هو سليل عائلة حكمت مملكة الفونج، وكان هو أحد الأحفاد المباشرين لمحمد أبو لكيلك، والذين فر حفيده من سنار ولجأ إلى قولي عقب

سيطرة الجيش المصري - التركي على سنار في عام ١٨٢٠م (لعل الصحيح هو ١٣/ ٦/ ١٨٢١م حين استسلم بادي السادس للجيش المصري- التركي الغازي، والذي عينه بعد ذلك شيخا على سنار ليجمع الضرائب ويسلمها للإدارة المصرية - التركية. المترجم).

ويتزعم شيخ محمد الآن نظارة دار الفونج، ويبغض أن ينسب إلى الهمج. ولعل في هذا ما يفسر ما صعب على السيد آركل فهمه عن همج قولي وناظرهم (كتب الأستاذ أحمد عبد الله حنقة عن «الهمج» ما نصه: «يميل كثير من المؤرخين الى ترجيح الرواية التي تقول إن أصل الهمج يعود إلى مملكة سوبا المسيحية، وهى المملكة التي قضى عليها تحالف عمارة دنقس زعيم الفونج وعبد الله جماع زعيم عرب القواسمة (العبدلاب)، وكان القضاء عليها أمثولة دخلت الأدب السوداني الشعبي باسم «خراب سوبا» كنموذج للخراب الشامل. وتمضي الرواية إلى القول بأن الكثير من سكان هذه المملكة المنكوبة قد هربوا إلى جبال الفونج المنيعة للاحتماء بها، وصار سكان مملكة الفونج الناشئة يطلقون عليهم اسم (الهمج) على سبيل الزراية...«المترجم).

ولما قبلت - إنابة عن الحكومة- بتعيين شيخ محمد، أجلسته على كرسي عادي من الخشب، من النوع الذي تراه في أي متجر صغير، وليس على «ككر» (الككر مقعد له ستة أرجل وسطح محدب، وله رمزية مهمة لسلطان سنار تعادل أهمية الصولجان للملك، إذ لا يجلس على الككر إلا ملك سنار، بينما يجلس بقية ملوك المناطق التابعة لها وكبار شيوخ الصوفية عند تنصيبهم على «ككر» له أربعة أرجل. وينسب البروفيسور الأمين أبو منقة كلمة الككر للنوبة. المترجم). ووضعت فوق ذلك الكرسي الخشبي قطعة من قماش ووسادة صغيرة. ثم أقبل الأهالي على الناظر واحدا بعد الآخر، وهم يحيونه كـ «مانجل»، وقبل بعضهم يده. وفي أثناء تلك الاحتفالية، وقفت ثلة من الرجال تقرع الطبول من دون توقف. ولم

تطلق رصاصة واحدة في ذلك الاحتفال، كما لم يكن هنالك أي أثر للخيول في قولي (أو على الأقل لم أر أي حصان بنفسي يومها).

وكنت قد سألت قبل فترة قصيرة المك حسن عن سبب إعطائه صورة مبالغة فيها للسيد آركل (عن حفل التنصيب)، فأجاب بأنه لم يصف لآركل ما حدث فعلا، بل ما كان ينبغي أن يحدث إن تم حفل التنصيب بحسب التقاليد والعادات القديمة. وبذا فإن شيخ محمد لم يكن قد صمت لمدة أربعين يوما (كما تقضي العادة الشائعة في منطقة الروصيرص، والتي كان يمارسها همج تلك المنطقة وفي فازوغلي حتى وقت قريب).

وتأكدت من معلوماتي حول الككر بسؤال المك نايل مك كيلي عما إذا كان الككر قد أخذ فعلا إلى قولي، فنفى المك حدوث ذلك. ولم يكن للهمج في كيلي ككر، فقد كان الككر هناك للمك نايل، والذي أخبرني بأن ذلك الككر ظل ينتقل من الآباء للأبناء في عائلته منذ أن تلقوه من ملوك سنار.

وليس لي من تعليق أساهم به في مسألة أصل الفونج كما طرحها السيد آركل والسيد ايفانز – بريتشارد غير تعليق قصير قد لا يخلو من سلبية. ففي ظني أن كل تراث سكان جنوب الفونج هو في الواقع تراث سناري. فليس في المنطقة مبلغ علمي أي تراث آخر أتى مباشرة من منطقة النيل الأبيض، أو من منطقة جنوب الفونج مع المهاجرين من الحبشة لسنار. فكل ما لدينا من دلائل تشير إلى تقاليد وتراث المنطقة كان كله مأخوذا بالكامل من سنار.

ولم يتوغل الفونج بفعالية، بحسب علمي، في منطقة الجنوب حتى تم لهم الاستقرار في سنار. ويقول الملوك الحاليون لفازوغلي وكيلي بأن جدودهم (المايا Mayas والجوابر Gabir) أتوا من سنار. وقال لي أحدهم: «لقد كانا إخوة، وانتصرا معا على قبائل البرتا التي تسكن التلال حتى وصلا السهول الحبشية، وبعد انتصارهما تقاسما ما حازا عليه من أراضي».

وأنا أرى أن جداول (أو شجرة) أنساب هؤلاء الملوك، وكما يزعمونها هم أنفسهم، متنافرة غير مترابطة ويصعب تصديق احتمال صحتها. فشجرة النسب التي رسمها ايفانز – بريتشارد لملوك كيلي تجعل المك الحالي يقع في الترتيب السادس من الملك الأول من المابة. وتضع شجرة نسب الفونج في فازوغلي التي وضعها نادلر المك حسين حسن على بعد أربعة أجيال فقط من جابر، والذي من المفترض أنه أتى من سنار. وهذا ما جعلني أخلص أن شجر الأنساب تلك لا قيمة لها البتة.

لا شك أن الشعور العام في هذه المنطقةهو أن أسلاف ملوك فازوغلي وكيلي وقوبا؟ (Gubba) وبني شنقول كانوا قد أتوا جميعا للجنوب من سنار، وأنهم انتصروا على سكان المنطقة المحليين واستقروا في أوساطهم. وكانهؤلاء عمليا مستقلين عن ملوك فونج سنار والذين لم يكونوا يتدخلون في شئونهم فيما يبدو. ولا شك في أنهم عاشوا في هذا الجزء من العالم لحوالي قرنين أو ثلاثة. ولا مشاحة كذلك في أن تاريخ المنطقة، كما سطره بعض المؤرخين، مشوش يسوده الخلط والالتباس. ويجب أن نتذكر دوما بأن حكام قولي ليسوا من الفونج، ولكنهم من أسلاف محمد أبو لكيلك. ويشيع البعض بأن لمحمد أبو لكيلك أصلا جعليا وجموعيا ووالدته من همج الدالي. وفي عام ١٧٥٤م قاد الرجل فرسان الفونج في حربهم ضد الأحباش، وفي عام ١٧٦٠م أغار على سنار من كردفان واستولى على السلطة وعزل ملك الفونج من عرشه. ولما جاء المصريون في عام ١٨٢٠م فر حفيده إدريس عدلان جنوبا للمنطقة التي يسكنها أهل والدته (الهمج) واستقر في قولي.

ويبدو أن نفوذ تراث الفونج في مناطق قولي قد بدأ فعليا بقدوم «ناس عدلان» إليها. وأخبرني مك قولي (وهو رجل سبعيني من الهمج) بأنه قبل وصول الشيوخ لجبال قولي، كان على قيادة كل جبل مكا مستقلا بنفسه، ويدفع بين كل حين وآخر

جزية لسنار. وأراني ذلك الملك بعض طبوله الخاصة (نحاسه) والتي أكد لي أنها أعطيت له قبل وقت طويل من صول الشيوخ لقولي. ولكان ذلك المك ككر خاص، غير أنه حطم بعد غزو أحمد فضيل لمنطقة قولي عند نهاية عهد المهدية (مما ذكر في موسوعة الويكيبيديا عن الفونج في عهد المهدية الآتي: « في عهد الخليفة عبد الله التعايشي وعند اضمحلال حكمه وإبان المجاعة والمطامع الخارجية حاول تور الجودي (حاكم بني شنقول) الانفصال بتلك المنطقة وذلك بعصيانه للخليفة عبد الله التعايشي وعدم دفع الضرائب والرسوم الحكومية التي كانت مقررة من قبل – ولضعف نفوذ سلطات الخليفة قام بإهداء نصف المنطقة وما فيها من تور الجودي لصديقه الملك الحبشي منيلك (عقابا) لتور الجودي، ورداً لجميل سبق أن قدمه له وكان عبارة عن هدايا اقتصادية وعتاد حربي يتمثل في عدد كبير من الحصين لمواجهة ذلك الخطر الخارجي. وفيما بعد أصبحت المنطقة التي أهديت لا حبشية ولا سودانية إذا اعطى فيها منليك صلاحية الحكم بعد تور الجودي وفي شكل نظام شبيه بنظام النظار والعمد للملكة آمنة وأخيها وأصبحت من الجانب الحبشي، أما عن الجانب السوداني كان يحكم الملك ود الجاز(خوجلي ود الحسن شقيق الملكة آمنة)» . المترجم).

وإن كان ما سبق ذكره يثبت شيئا، فهو يثبت أن الفونج لم يسيطروا فعليا على تلك المنطقة إلا بعد أن سقطت سلطنتهم.

وخلال سنوات العهد التركي عينت الحكومة شيوخ قولي كجامعي ضرائب وزعماء محليين في المناطق الممتدة من قولي إلى الجنوب، بمناطق الكرمك واولو (Ulu) والسلك (Sillak) والبرنو (thebarnus) وحتى إلى فداسي.

إن وصف مارنو لسكان اولو بأنهم خليط من الهمج والفونج هو في نظري الوصف الصحيح لعائلة عدلان، فنصف دمائهم أتت من الهمج، وهم يعرفون أيضا بأنهم من الفونج.

لا شك أن هنالك بعض التـأثيرات النيليـة عـلى لغـة المابـان (Maban)، وإلى درجة أقل في المناطق جنوب الكرمك. ولعـل هـؤلاء النـاس كـانوا قـد هجـروا بلادهم في الجنوب بسبب الضغوط التي مارسها عليهم النوير.

وأعتقد – خلافا لايفانز –ريتشارد– أن ليس للفونج أصلا شلكاويا. صحيح أن الشلك ربما يكونوا قد غزوا الأراضي التي تعرف الآن بدار فـونج، ولكـن يجـب تـذكر أن الفـونج أنفسـهم لم يحلـوا بمـا يسـمى «دار فـونج» حتـى نهايـات عهـد سلطنتهم، وربما عقب سقوط عاصمتهم سنار.

وربما يكون صـحيحا أن سـنار قـد غـزت فـازوغلي وقوبـا وكـيلي والممالـك الأخرى، وبسطت عليها سيطرتها، تحـت رايـة الخـديوي. وربمـا سـمح لـبعض الحكام المحليين (كما في حالة البرتا) بإدارة شئون مواطنيهم المحليين. غيـر أني لاحظت أن هنالك وشائج وعلاقات دم بين المكوك في هذه المنطقة. فمك حسن في سنجة والمك حسين في فازوغلي والمك حمدان أبو شوك في قوبا قد يكونـون في الواقع أقرباء كالإخوان.

وكل ما أريد قوله هنا أنه لم يكن للفونج نفوذ يذكر في المناطق الجنوبية لـــ «دار فونج» إلا مؤخرا. وربما كان الفونج أنفسهم يقومون بغزو تلك المناطق الجنوبيـة طلبا للذهب والرقيق. ولعلهم تركوا الهمج في جبالهم، ولم تظهر «دار فـونج» كمـا نعرفها إلا في بدايات القرن العشرين عندما تحالف الفونج مع الهمج.

١٨٧٧-١٨٨٠

ثلاث سنوات من الهيمنة السودانية على ساحل الصومال

1877 -1880: Three Years of Sudanese Domination in the Somali Coast

أليس مور هاريل

مقدمة: هذه ترجمة مختصرة لمقال للباحثة أليس موور – هاريل تم نشره في العدد الرابع من مجلة «دراسات شمال شرق أفريقيا» والصادر في عام ١٩٩٧م .وتعمل الدكتورة أليس مور – هاريل الآن – بحسب سيرتها المبذولة في بعض المواقع الإسفيرية - باحثة مستقلة، بعد أن تقاعدت عن التدريس في قسم الإسلام والشرق الأوسط في الجامعة العبرية في القدس. وهي مؤلفة لعدد من المقالات والكتب عن السودان منها كتاب عن المهدية صدر في عام ٢٠٠١م عنوانه « غردون والسودان» ومقال بعنوان «تجارة الرقيق في السودان في القرن التاسع عشر ومنعها بين عامي ١٨٧٧ – ١٨٨٠م» قمنا بنشر ترجمة موجزة لبعض أجزائه.

وليس بخاف أن «الهيمنة السودانية» المذكورة في العنوان لم تكن «سودانية» بحق، إذ أن السودان كان في تلك الوقت يرزح تحت نير استعمار «التركية السابقة».

المترجم

**** **** ****

تشير كثير من وثائق الإدارة المصرية والبريطانية في السودان والموجودة في

«دار الوثائق المصرية»، و«دار الوثائق العامة» بلندن، ووثائق غردون باشا حاكم عام السودان بين عامي ١٩٧٧ – ١٨٨٠م إلى تاريخ مثير لفترة استثنائية في تاريخ الإدارة المصرية في القرن الإفريقي، سيطرت فيه تلك الإدارة على مدن الموانئ الرئيسة على الساحل الصومالي من تاجورا (Tadjoura) وبربرة (Berbera)، وبينهما هرر (Harar). وفصلت إدارة تلك المدن من الإدارة المصرية ومنحت للسلطات السودانية، والتي كانت في تلك السنوات مستقلة تماما عن السيطرة المصرية.

وكانت مصر قد أحكمت سيطرتها الكاملة على الساحل الغربي من البحر الأحمر في مايو من عام ١٨٦٥م، عندما أصدر الخليفة العثماني فرمانا منح بموجبه الخديوي إسماعيل (١٨٦٥ – ١٨٧٩م) مينائي سواكن ومصوع. وفي عام ١٨٦٦م صدر فرمان آخر ملك هذين الميناءين للخديوي كهدية شخصية له طوال فترة حكمه، على أن تعود ملكيتهما بعد وفاته إلى الحكومة المصرية، وليس لورثته.

وأدعى الخديوي لاحقا أن ذلك الفرمان يشمل أيضا ساحل الصومال على خليج عدن. وقبل الديوان العثماني بذلك، فصدر فرمان سلطاني آخر في ١٨٧٥م بمنح الخديوي ساحل الصومال أيضا.

وليس هنالك تأكيد مباشر وموثوق به على أن منح الخديوي لتلك الأجزاء من الخلافة العثمانية في فرمان ١٨٥٦م قد حدث عن طريق توزيع الرَشَاوَى والهدايا للمتنفذين في البلاط العثماني في إسطنبول، بينما ثبت أن فرمان ١٨٦٦م قد صدر بتلك الطرق (الملتوية). أما منح السلطان العثماني لساحل الصومال هدية للخديوي فقد تم بعد أن دفع الخديوي رشوة بلغ مقدارها خمسة عشر ألفا من الجنيهات المصرية للسلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) لمنحه زيلع Zeila على ساحل الصومال. وسيطرت المصريون فعليا على ساحل الصومال من تاجورا إلى رأس حافون RasHafun على المحيط الهندي. واستقروا أولا على المدن

الساحلية، وضموا في عام ١٨٧٥ إمارة هرر في أراضي الصومال الداخلية.

وكان إصرار الخديوي على بسط السيطرة المصرية على تلك المناطق نابعا من طموحه في بناء امبراطورية مصرية في أفريقيا، ولحماية حدود مصر الجنوبية. وبالنظر إلى مستقبل المنطقة ووضعها الجغرافي السياسي، خاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩م، فقد كان من الضروري لمصر إتمام كامل السيطرة على البحر الأحمر والساحل الصومالي لضمان أمن السودان والذي وقع تحت السيطرة المصرية – التركية في عامي ١٨٢٠ – ١٨٢١م في غضون سنوات حكم محمد علي باشا.

ولم يواجه المصريون أي صعوبة في إحكام السيطرة على مدن ساحل الصومال، غير أن السيطرة على المناطق الداخلية فيه كانت عسيرة عليهم بسبب صمود رجال القبائل الصومالية ضدهم. ومما زاد الموقف تعقيدا أن القبائل الصومالية لم تكن على قلب رجل واحد، وكانت منقسمة إلى عشائر متخاصمة وتنازع بعضها البعض حول ملكية الأرض. ورغم صمود رجال القبائل الصومالية إلا أن الجيش المصري أفلح في إثبات وجوده في أراضي الصومال الداخلية. وظل الوضع على ذلك النحو حتى عام ١٨٨٤، حين قررت مصر الانسحاب من أراضي الصومال بسبب قيام الثورة المهدية في السودان، وعزل الإقليم عن مصر.

إخضاع الساحل الصومالي للإدارة السودانية

قرر الخديوي إسماعيل ضم مناطق الساحل الصومالي (تاجورا وبربرة وهرر وزيلع) ووضعها تحت الإدارة السودانية بقيادة شارلس غردون، والذي كان قد عينه حاكما عاما على السودان في فبراير من عام ١٨٧٧م. وبهذا فقد كانت تلك المناطق السودانية تتبع رسميا لمديرية البحر الأحمر السودانية، إلا أن إدارتها الفعلية كانت تتبع مباشرة للحاكم العام في الخرطوم، وليس لحاكم مديرية البحر الأحمر. وأصدر الخديوي إسماعيل مرسوما أعلن فيه تبعية الأراضي الصومالية

للإدارة السودانية، وأن يتبع حكام تلك الأقاليم لغردون مباشرة. وكان الخديوي يقدر غردون عاليا ويوليه ثقته الكاملة ويؤمن بأنه سيحافظ على «ممتلكات» مصر في إفريقيا، ويحميها من الاعتداءات الإثيوبية المحتملة. ولعلمه بصعوبة إدارة تلك المناطق قرر الخديوي التكفل بتمويل إدارة تلك المناطق من ميزانية الحكومة المصرية مباشرة. وسمح لحكام المناطق الصومالية المحتلة بالاتصال بالقاهرة مباشرة (وتخطي الخرطوم) للحصول على معونات مالية في حالات الأزمات الطارئة. إلا أن غردون كان مسئولا عن إدارة شئون المستعمرات الصومالية في الأحوال العادية. وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ الصومال التي تقع بعض مناطق شواطئها تحت الإدارة السودانية في الخرطوم.

وكان غردون يعي جيدا صعوبة بسط سيطرته الكاملة على تلك المناطق الصومالية بسبب الصراعات السياسية المحلية، واحتمال حدوث غزو إثيوبي، والأعباء الاقتصادية الإضافية التي تلقيها إدارة تلك المناطق البعيدة على السودان (الفقير نسبيا). ورفضت القبائل الصومالية القاطنة على ساحل الصومال وفي المناطق الداخلية في جنوب مصوع وحتى بربرة الاعتراف بالسيطرة المصرية. وثار الأهالي في بربرة أيضا بصورة مستمرة ضد الوجود المصري. وظلت إثيوبيا مصدر تهديد دائم للأمن في المنطقة. فقد كانت العلاقات بين إثيوبيا ومصر في حالة توتر دائم بسبب الصراع على إرتريا، وبسبب المعركتين اللتين دارتا بين الدولتين في ١٨٧٥ – ١٨٧٦م، والمرارة التي خلفها الصراع بين الدولتين، واحتمال هجوم إثيوبيا على مصوع وهرر، والتي كان إثيوبيا تدعي حقوقا تاريخية في ملكيتهما. وكانت مصر قد هزمت في المعركتين، ووجدت نفسها في نهايات سبعينيات القرن التاسع عشر مفلسة تماما، ولا ترغب إلا في تحاشي حرب مكلفة أخرى.

وشكلت العوائق الطبوغرافية والبعد الجغرافي للساحل الصومالي عن السودان

مشاكل عديدة في الاتصالات، وخلقت عائقا إضافيا بين الإدارة المحلية والسلطات في الخرطوم. وبالإضافة لذلك لم يكن غردون راضيا عن الحكام المصريين الذين عينتهم القاهرة في مدن الساحل الصومالي قبل وصول غردون للخرطوم. فقد كان بعض أولئك الحكام قد رفضوا مقدما تعيين غردون حاكما عاما على السودان، وهذا مما جعل العلاقة الشخصية بينهم وبين غردون في غاية السوء، وزاد ذلك من صعوبة عمل غردون في إدارة تلك المناطق.

وكان شيوع تجارة الرقيق على الساحل الصومالي من أهم الصعوبات التي قابلت غردون في إدارة الأراضي الصومالية. وقد كان من ضمن شروط عمل غردون في السودان والتي وضعها له الخديوي إسماعيل هو تثبيط تجارة الرقيق في السودان (وصارت حدود السودان الآن تمتد إلى ساحل الصومال). وقد كانت المنطقة شمال بربرة وحتى مصوع (والتي كانت تسكنها قبيلةالدناكل Danakil) تعد منفذا جيدا لتصدير المسترقين والمسترقات من جنوب إثيوبيا، وكان القاطنون بتلك المنطقة يعملون في تجارة الرقيق منذ قرون طويلة. وكانت هنالك أيضا تجارة نشطة للرقيق الإثيوبي إلى شبه الجزيرة العربية من منطقة زيلع.

لقد كان تثبيط تجارة الرقيق في الأراضي السودانية أمرا عسيرا، بيد أنه كان أشد عسرا في مناطق ساحل الصومال. ولم يكن لغردون أي أمل في منع أو تثبيط تلك التجارة دون توطيد أركان حكمه في الأراضي التي وضع على رأسها. ولم يكن له أن يفعل ذلك دون تعاون حكام المناطق المحليين.

ولم ينقطع غردون طوال فترة حكمه للسودان بين عامي ١٨٧٧ – ١٨٨٠م عن مطالبة الخديوي إسماعيل والحكومة المصرية مرارا وتكررا بفصل ساحل الصومال عن إدارة السودان بسبب كل ما سبق ذكره من الصعوبات الموضوعية في إدارة تلك المناطق، وبسبب المصاعب المالية والاقتصادية التي كان يكابدها هو شخصيا في إدارة السودان. ولم يكن هنالك أي أمل عنده في جمع أي ضرائب

من سكان ساحل الصومال التابع للإدارة السودانية. وقامت مصر بعقد اتفاق مع بريطانيا في عام ١٨٧٧م قضى بعدم فرض أي ضريبة استيراد أو تصدير من موانئ الساحل الصومالي. وبذا فقد السودان مصدرا مهما للدخل كان سيصلح من وضعه الاقتصادي المتردي، ويعنيه على تحمل تكاليف إدارة تلك المناطق الصومالية.

وكان الخديوي إسماعيل يدرك مدى الصعوبات التي كان يواجهها غردون، غير أنه كان يتحاشى اتخاذ أي قرار يحسم وضع الأراضي الصومالية التي أحتلها. وذات مرة اقترح الخديوي فصل تلك الأراضي عن سلطة غردون ووضعها تحت إقليم مستقل له ميزانية منفصلة. واقترح في مرة أخرى تعيين عالم الطبيعة الألماني يورغ اشفاينفورث، والذي عمل في استكشاف ساحل الصومال، حاكما لذلك الإقليم (عاش عالم النبات يورغ اشفاينفورث بين عامي ١٨٣٦ و١٩٢٥م، وقام برحلات استكشافية في مناطق السودان وإثيوبيا والصومال وجزيرة العرب ومصر، حيث عمل رئيسا للجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة. المترجم).

وبحثت الحكومة المصرية طلب غردون، غير أنها لم تعطه إجابة نهائية حتى نهاية عام ١٨٧٩م حين أخبرته برفض طلبه لفصل الساحل الصومالي عن إدارة السودان. بل وطلبت منه العمل على تطوير تلك المناطق حتى تصبح في يوم قريب مديرية من ضمن مديريات السودان الأخرى.

ورغم أن خطاب تعيين غردون حاكما عاما على السودان كان ينص على أن غردون ليس مسائلا أمام الحكومة المصرية، بل أمام الخديوي شخصيا، فقد وافق غردون على طلب الحكومة المصرية له بالاستمرار في إدارة الساحل الصومالي. وظل غردون يطالب الحكومة المصرية بين كل حين وآخر بفصل ساحل الصومال عن إدارة السودان، ولكن دون طائل. وعندما غادر غردون السودان في يوليو من عام ١٨٧٩م كان الساحل الصومالي ما يزال يتبع للإدارة السودانية. ولم

يغير المصريون من سياستهم تجاه ساحل الصومال حتى يوم استقالة غردون من حكم السودان في يناير ١٨٨٠م، حين قررت الحكومة المصرية أن تتولى أمر إدارة الساحل الصوماليبنفسها.

الإدارة السودانية للساحل الصومالي

شهدت مدن الموانئ الواقعة على الساحل الصومالي بحلول عام ١٨٧٧م حركة بناء وتعمير نشطة قام بها المصريون، واستمرت تلك الحركة خلال سنوات الإدارة السودانية للمنطقة. وتركز نشاط المصريين في مينائي بربرة وزيلع، ومدينة هرر الداخلية.

وخلال فترة حكم غردون للمنطقة، وبسبب مبادرات قام بها حكام المناطق المحليين، تواصل مد البناء والتعمير في هرر وبربرة على الرغم من الصعوبات المالية والاقتصادية التي كانت تحيط بهما، ورغما عن الاضطرابات الشعبية التي ظلت تندلع بين فينة وأخرى، خاصة في منطقة هرر.

وكان غردون يعارض باستمرار إلزام السودان (الفقير اقتصاديا) بدفع تكاليف حركة البناء والتعمير في الأراضي الصومالية التي أحتلها المصريون. فعلى سبيل المثال كان على السودان تولي دفع مبلغ سبعين ألف جنيه مصري من ميزانيته لبناء منارة lighthouseجديدةفي ميناء بربرة، رغم أن ذلك المشروع كان قد أجيز قبل أن تؤول إدارة الساحل الصومالي للإدارة السودانية بقيادة غردون. وكان غردون لا يرى أي جدوى لقيام الحكام المحليين المصريين الذين عينهم الخديوي لإدارة المناطق الصومالية المحتلة بالصرف على مشروعات تعمير ليس لها ما يبررها اقتصاديا. فقد كانت تكاليف إعاشة الحامية الحربية في ميناء بربرة، وصيانة السفن الحربية الراسية فيها تبلغ أربعين ألفا من الجنيهات المصرية سنويا، بينما لم يتعد الدخل الحكومي من الميناء مبلغ ١٧٠ جنيها مصريا فقط. وحرم السودان بموجب اتفاق مصري – بريطاني من الحصول على أية ضرائب أو جمارك على ما

يستورد أو يصدر من موانئ ساحل الصومال إلى عدن. وبدا وكأن السودان (الفقير) يدعم ما تستورده بريطانيا من طعام (رخيص) إلى مينائها في عدن.

وبحسب تقرير لخبير بريطاني اسمه موريس بيه كان قد قدم لزيارة ميناء بربرة في ١٨٧٧م في حملة لمنع تجارة الرقيق، فقد كان ذلك الميناء يتمتع بحماية طبيعية، وبرصيف طويل، ومياه عميقة تتيح له استقبال سفن كبيرة الحجم، وبمنارة جديدة وإمكانات فنية تجعله من أفضل الموانئ بالمنطقة. وذكر موريس بيه أن كل المباني الحكومية بالبلدة، وخاصة مسجدها الكبير، كانت في حالة ممتازة، وتدار بصورة حسنة. وكانت المدينة قبلة لعدد كبير من التجار الأجانب وذلك لعدم فرضها لأي ضرائب على كل ما يستورد أو يصدرها منها، ولتوفر الأمن فيها بفضل وجود قوة كبيرة من جنود الحكومة (المصرية). ولم يلحظ موريس بيه أي دليل على وجود تجارة للرقيق عبر الميناء في المدة التي قضاها في بربرة. وخلص الرجل إلى أن الأهالي قد قبلوا بالوجود المصري على أرضهم، وليست لديهم أي نية للثورة ضده. وازدهرت الأوضاع الاقتصادية أيضا في هرر برغم الاضطرابات الأمنية والاحتجاجات الشعبية على الوجود المصري بها، ربما بسبب الوجود العسكري المصري الكثيف بها (والذي كان يتكون من ٣٠٠٠ جنديا).

أما زيلع فلم تشهد مثل ذلك الازدهار الذي حدث في هرر وبربرة رغم مينائها الجيد، وعلى الرغم أنها مدينة صغيرة يقوم اقتصادها على تصدير المسترقين والمسترقات تحت سمع وبصر (بل وبعون) من السلطات المحلية، وعلى رأسها شيخ يقال له «أبو بكر» (وهو من قبيلة الدناكل)، والذي كان قد عينه الحكم التركي قبل وصول المصريين للمدينة.

وكما ذكرنا من قبل فقد واجه غردون وهو يدير شئون ساحل الصومال من الخرطوم عددا من المشاكل الخارجية كان يظن أن التهديد الإثيوبي هو أهمها. غير أنه - للغرابة - لم تقم إثيوبيا بأي هجوم على المناطق التي أحتلها المصريون

في الصومال وأوكلوا إدارتها لحاكم عام السودان، بل أتى التهديد من مصدر غير متوقع، وهو الحكومة البريطانية، والتي منعت غردون من فرض أي ضرائب على ما يستورد أو يصدر من بضائع من ميناء بربرة.

ولا ريب أن اهتمام بريطانيا بموانئ ساحل الصومال كان مصدره هو سيطرتها على ميناء عدن، والذي كانت قد استولت عليه في عام ١٨٣٩م كمحطة بحرية على البحر في الطريق إلى الهند. وبسبب فقر منطقة عدن من المواد الغذائية فإن البريطانيين كانوا في حاجة ماسة لاستيراد اللحوم وغيرها من الأغذية من الصومال لسد حاجة سكان عدن. وكانت السلطات في عدن والحكومة الهندية أحرص الناس على استدامة الأمن في الساحل الصومالي وعلى ضمان عدم فرض ضرائب وجمارك على ما يصدر ويستورد من بربرة وزيلع.

واعتبرت بريطانيا احتلال مصر للساحل الصومالي أمرا حميدا يتسق مع مصالحها، إذ أنه يمنع الدول الأوربية الأخرى من الوصول للصومال. ولذا عقدت بريطانيا اتفاقية مع حكومة الخديوي إسماعيل في عام ١٨٧٧م اعترفت فيه بريطانيا بحق مصر في تملك الساحل الصومالي حتى رأس حافون. ومن جانبها وافقت مصر على جعل ميناء بربرة ميناءً حراً لا تفرض على ما يستورد أو يصدر منه أي ضرائب أو جمارك، على أن تفرض ضرائب لا تتجاوز ٥٪ على البضائع المستوردة والمصدرة عبر موانئ ساحل الصومال الأخرى. ووافقت مصر على إعطاء المواطنين والتجار والبحارة البريطانيين أفضلية على كل الأجناس الأخرى في المنطقة في كل المجالات. ونصت الاتفاقية أيضا على عدم منح مصر لأي جزء من الساحل الصومالي لأي طرف ثالث في المستقبل (ويشمل ذلك الخلافة العثمانية). وأخيرا وافقت مصر على منع تصدير أو استيراد المسترقين عبر موانئ ساحل الصومال، وعلى السماح للسفن البريطانية بمراقبة وتفتيش كل السفن المغادرة لهذه الموانئ بحثا عن الرقيق، والقبض على تجار الرقيق ومحاكمتهم.

وكانت تلك الاتفاقية تحرم الحكومة المصرية في الخرطوم من الضرائب والجمارك التي كان من المفترض أن تجبى من تصدير ١٠٠٠٠ رأسا من الماشية و٦٠٠٠٠ رأسا من الضأن تصدر عبر ميناء بربرة سنويا إلى عدن. وخلق هذا عجزا في ميزانية بربرة بلغ في عام ١٨٧٨م وحده مبلغ ١٤٠٠٠ جنيها مصريا.

ورفض القنصل البريطاني في القاهرة والبريطانيون في عدن والحكومة الهندية (كما رفضت الحكومة المصرية والخديوي أيضا) كل طلب تقدم به غردون لفرض ضرائب على ما يصدر من حيوانات عبر بربرة، ورفضوا كذلك عرض غردون التخلي عن إدارة الساحل الصومالي. وبذا فقد استمر غردون في إدارة الإقليم بخسارة مالية واقتصادية ضخمة كان عليه تعويضها مما يجنيه من ضرائب ومكوس من مديريات السودان الأخرى.

وكان غردون دائم الشكوى من حكام مدن الساحل الصومالي من المصريين والأتراك والأوربيين. فقد كان تعليمه وشخصيته تفرض عليه معايير أخلاقية عالية لم تكن متوفرة عند مرؤوسيه من بقية الجنسيات، والذين كانوا لا يتورعون عن قبول الرشاوى واكتناز الثروات وأكل أموال الناس بالباطل. وكان كثير من هؤلاء الإداريين المصريين والأتراك لا يرغبون حقيقة في العمل بالسودان، ويعدون الفترات التي يقضونها فيه فترة «نفى» حقيقي. وكانوا، كنوع من التعويض عن فترتهم فيه، يقومون بكل الممارسات التي تضمن لهم جمع أكبر قدر من المال دون أدنى اعتبار لمصدره، حتى وإن كان تجارة في الرقيق. وكان هؤلاء الإداريون يبادلون غردون عدم الاحترام، ويقومون بمخاطبة القاهرة مباشرة دون استشارته.

وكان عمل حكام المناطق الصومالية المحتلة يتضمن أعباءً مدنية وعسكرية أيضا. فهم مسئولون عن القضاء وعن قيادة جنودهم، وحفظ الأمن والنظام في البلاد، وجمع الضرائب ومنع تجارة الرقيق.

ولم يكن غردون يتدخل في أعمال هؤلاء الحكام المحليين اليومية، غير أنه كان

دائم المراقبة لهم، ويتدخل أحيانا عندما يرى ذلك ضروريا. وزار غردون مناطق الساحل الصومالي في ربيع عام ١٨٧٨م وجمع كل الحكام المحليين وحذرهم من تخطيه والاتصال مباشرة بالقاهرة، وذكرهم بأنهم يعملون تحت إدارته في الخرطوم. وأيده في ذلك التحذير الخديوي في القاهرة. ورغم كل ذلك استمر بعض الحكام في الاتصال مباشرة بالقاهرة وتخطي غردون. ولم يتوقف العداء لغردون عند الحكام المحليين في الساحل الصومالي، بل شمل ذلك العداء أيضا ضابط بحري بريطاني اسمه مالكوم باشا، كان مكلفا بمراقبة وتفتيش السفن في الساحل بحثا عن الرقيق. ورغم أن راتبه كان يأتي من حكومة غردون بالخرطوم، إلا أنه كان لا يأبه البتة لغردون وسلطاته.

وكانت العلاقة بين غردون وأبي بكر حاكم زيلع متوترة بسبب ما عرف عن أبي بكر من المتاجرة بالمسترقين. غير أن غردون لم يوافق مالكوم باشا في مواجهته العنيفة لأبي بكر والتي كانت في نظر غردون تعوزها الحكمة، وقد تحدث تمردا عاما يصعب احتواءه. غير أن غردون كاتب لاحقا الخديوي إسماعيل (ثم الخديوي توفيق من بعده) مطالبا بنفي حاكم زيلع وعائلته إلى الحديدة، ولكن لم يجد غردون أي استجابة من كليهما. وجعل تمرد رجال بعض القبائل الصومالية ضد الوجود المصري – التركي وضع غردون كمسئول أعلى عن كامل الساحل الصومالي أعسر مما كان عليه قبل ذلك التمرد.

وختاما نخلص إلى أن ضم خديوي مصر لساحل الصومال كانت له أسبابه (الاستعمارية) التوسعية، والاستراتيجية والأمنية والاقتصادية. وكان غردون حاكم عام السودان، وعلى الدوام معارضا لضم ساحل الصومال لإداراته في الخرطوم، وكان يرى أن تتم إدارة ذلك الساحل من القاهرة. ولا ريب أن ثقة الخديوي في غردون كانت هي ما دعته ليوليه أمر ساحل الصومال. غير أن غردون فشل في تحقيق غالب مما كلف به، وكان على رأس قائمة ما كلف به وفشل فيه هو

منع تجارة الرقيق.

وشهدت فترة الاحتلال المصري - التركي لساحل الصومال (ورغم المصاعب الأمنية واللوجستية) حركة بناء وتعمير غير مسبوقة وزيادة في الانتعاش التجاري. ويمكن أن نعزي تلك التطورات في الأساس للحكام المحليين في مناطق ساحل الصومال المختلفة.

وعقب عزل الخديوي إسماعيل في يونيو من عام ١٨٧٩م، تقدم غردون باستقالته من حكم السودان في يناير ١٨٨٠م، فأعادت الحكومة المصرية سيطرتها على ساحل الصومال إلى أن اضطرت للتخلي عنها لاحقا بسبب قيام الثورة المهدية.

عرض لكتاب كينيث بيركنز

«نشوء وتطور مدينة استعمارية»

Book Review: «The Evolution of a Colonial City» by Kenneth J. Perkins

Prof. Leif Manger بروفيسور ليف مانقر

مقدمة: هذه ترجمة لعرض نشر في العدد الثاني من مجلة Northeast African studies والصادر في عام ١٩٩٥، بقلم ليف مانقر عن كتاب كينيث بيركيز المَوْسوم: «نشوء وتطور مدينة استعمارية»، والذي صدر عام ١٩٩٣م من دار نشر في بولدر بكولورادو بالولايات المتحدة. ويعمل مؤلف الكتاب أستاذا للتاريخ بجامعة كارولينا الجنوبية. أما ليف مانقر فهو بروفسيور الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة بيرجن بالنرويج، والذي زار السودان عديد المرات، وقام بدراسة مجتمعات النوبة في غرب السودان والهدندوة في شرقه، وله كتب ومقالات عديدة تدور معظمها عن الإسلام و«الشأن السوداني» والعربي (مثل الاغتراب عند الحضارمة) وغير ذلك. وبحسب ما جاء في سيرته الذاتية المبذولة في موقعه بجامعة بيرجن فهو يقوم حاليا بدراسة ميدانية عن «المجتمعات التجارية السودانية على الشاطئ الصيني.

وقد سبق لنا أن ترجمنا عرضا لذات الكتاب بقلم الدكتورة الأمريكية هيزر شاركي تم نشره في مجلة «دراسات السودان» البريطانية عام ١٩٩٤م، وترجمنا أيضا مقالا لكاتب بريطاني هو كولن ر. باتريسون بعنوان «قصة إنشاء ميناء بورتسودان».

المترجم

**** **** ****

لا ريب أن كتاب كينيث بيركنز عن تاريخ بورتسودان يعد مساهمة مقدرة، أتت في موعدها تماما، وإضافة مهمة للأدبيات المكتوبة عن منطقة البحر الأحمر في شرق السودان. وينطبق هذا الأمر أيضا على مجتمعات البجا التي تقطن المناطق الريفية في تلال البحر الأحمر، وعلى سكان مدن الشرق الصغيرة من مختلف الأعراق والمهن.

ولمعرفة المزيد عن بورتسودان أهمية خاصة، إذ أنها مدينة تجارية بالغة التأثير، وتلعب دورا مهما في عملية الاختراق الرأسمالي لمناطق البلاد الداخلية. وبما أنها الميناء الرئيس بالبلاد، فقد ظلت ذات أهمية كبرى للعاصمة (الخرطوم) وللسودان على وجه العموم. وبقيت بورتسودان بوابة للشرق، وممرا للبحر الأحمر ومنطقة خليج عدن، وبالتالي للمحيط الهندي.

ويضع كتاب بيركنز بورتسودان ضمن كل تلك السياقات المختلفة. إلا أن تركيز المؤلف إِنْصَبَّ على المدينة نفسها، وعلى نشأتها وتطورها.

بدأت القصة بإنشاء المستعمر البريطاني لهذه المدينة في عام ١٩٠٤م في موقع ما كان يسمى مرسى «الشيخ برغوث»، وهو المكان الذي كان ذلك الفكي مدفونا فيه، وانتهت في الخمسينيات، عندما بدأ أمر إدارة المدينة يؤول شيئا فشيئا للسودانيين. واختير موقع المدينة (الجديدة) لمناسبته لإنشاء ميناء. غير أن الكتاب يتناول بنظرة أوسع عملية نشوء وتطور المدينة. فقد قسم المؤلف تطورها إلى ثلاث مراحل زمنية (١٩٠٤ – ١٩١٨، ١٩١٩ – ١٩٤٢، ١٩٤٣ – ١٩٥٣م). وتناول المؤلف أيضا موضوعات شملت خلق مجتمع حضري منظم، وتوفير الخدمات الأساس بالمدينة، وكيفية إدارتها وحكمها، وكيف تم التحكم في نموها.

وقرر البريطانيون بعد نظر وتمحيص لوضع سواكن كميناء للسودان أنها لم تعد تصلح لأداء هذا الدور في القرن العشرين. وهداهم التفكير إلى اختيار «بورتسودان» بديلا مناسبا لذلك الميناء والمركز الحضري القديم. وظلت خطط إنشاء الميناء الجديد متداولة في مختلف أروقة الحكومة لزمن طويل نسبيا. وكان البريطانيون يعتقدون بأنه من حسن الحظ أن المدينة قد أنشئت في مكان «جديد» ليس به سكان، وبذا تم تحاشي التصادم مع أي مجتمعات سكانية قائمة، وهو الأمر الذي كان من الممكن أن يحدث شرخا في المجتمع. لذا يمكن أن تعد بورتسودان مدينة «مثالية» جديدة من صنع الاستعمار. غير أن ذلك التصور الاستعماري اصطدم –كما هو متوقع- بالحقائق على الأرض، فقام الرعاة البجا بالاحتجاج بأنهم كانوا في منطقة «بورتسودان» قبل البريطانيين، وأنهم أحق بأرضها. غير أن أحدا من المسئولين لم يلق بالا لاحتجاجاتهم تلك. وظهر البجا مجددا في مشهد تخصيص الأراضي للسكان في المدينة. وبدا أنهم قد «همشوا» في ذلك الجانب أيضا.

وفور إنشاء المدينة توافد عليها السودانيون والأجانب من كل أرجاء البلاد، فازدادت أعداد السكان فيها، وتنوعت العرقيات التي تقطن بها. وشملت الجنسيات التي جاءت إلى بورتسودان بغرض الاستيطان الرجال والنساء من السودانيين والأثيوبيين والسوريين والفارسيين والصوماليين والإرتيريين والهنود والإيطاليين والإغريق، بالإضافة بالطبع إلى البريطانيين أنفسهم. وهنا قرر الحكام البريطانيون مراعاة العرق والطبقة الاجتماعية عند توزيع السكان على مختلف مناطق المدينة. فخصصوا قطع «الدرجة الأولي» للصفوة من التجار الأوربيين الأثرياء، وتدرجوا (إلى الأسفل) حتى بلغوا مناطق «الديوم» التي كانت من نصيب السكان المحليين من البجا! وظلت مجموعات البجا السكانية المتزايدة تشكل هاجسا مستمرا، وعبر عقود طويلة، لمخططي المدينة. وظلت كذلك المشاكل المتعلقة بأمور الصحة العامة والنظافة والتعليم والأمن تراوح مكانها في كثير من

المناطق بالمدينة.

وأوضح المؤلف في كتابه كيف أن تطور بورتسودان عبر السنوات غدا مصدرا مستمرا ومتزايدا لاستنزاف مصادر الإقليم الشحيحة أصلا. وبقيت كثير من المشاكل المتعلقة بتطور ونمو المدينة، والتي بدأ النقاش حولها في بداية القرن العشرين، قيد النظر وحتى التسعينيات منه (صدر الكتاب في عام ١٩٩٣م). وذكر المؤلف أن مشاكل المدينة «قديمة كل القدم، جديدة كل الجدة»، وأخطرها هو توفير المياه للمدينة من «خور أربعات»، وتوفير حطب الوقود، وما تبعه من إزالة للغطاء الشجري، وما سبب ذلك من تصحر. وضرب المؤلف مثالا آخر بما أقيم من مشروعات زراعية مروية في المناطق التي تتمتع بقدر معقول من المياه وذلك لتوفير بعض احتياجات سكان المدينة من الخضر والفاكهة. وكذلك لعب الاحتياج لقوى عاملة بالمدينة (خاصة في الميناء) دورا مهما في تاريخ بورتسودان. فعلى سبيل المثال ذكر المؤلف في كتابه قصة علي يحى اليماني، والذي هاجر لبورتسودان عام ١٩٠٦م، وظل مهيمنا في سنوات الثلاثينيات على سوق العمالة بها (خاصة في الميناء). وقام بعض السودانيين في العشرينيات بمحاولة التصدي لهيمنة ذلك الرجل اليمني واقناع البريطانيين بإدخال السودانيين (البجا) في سوق العمل لمنافسة اليمنيين الذين دأب علي يحى اليماني على جلبهم للعمل معه في بورتسودان. وتردد البريطانيون في الاستجابة لمطلب السودانيين بحجة أن رجال البجا من الرعاة يأتون ويذهبون من المدينة، ولا يستقرون بها نهائيا، بحسب أحوال المناخ في مناطقهم الأصلية، فلا يأتون لبورتسودان إلا في مواسم الجفاف، ويغادرونها بأعجل ما تيسر حين تهطل الأمطار وتتحسن المراعي في مناطقهم الأصلية. وهنا أتت مبادرة لجلب عمال من غرب السودان للمدينة، لما ذلك من فوائد تتعدى العمل إلى التمازج الاجتماعي بين الأعراق المختلفة. غير أن حقيقة أن السكان في شرق وغرب البلاد (كانوا) ينتمون لطائفتين دينيتين متصارعتين، ولحزبين سياسيين مختلفين تماما، جعلت المستعمرين البريطانيين يتخوفون من

احتمال حدوث صراعات بين المجموعتين قد تؤدي لانفراط عقد الأمن بالمدينة. وقرر البريطانيون أخيرا محاولة حل مشكلة العمالة بالمدينة (خاصة في الميناء) باللجوء إلى جلب العمالة المصرية ومن وراء البحر الأحمر وغيرها من المناطق (في عرض الدكتورة هـ. شاركلي مناقشة أفضل لجانب العمالة الأجنبية بالمدينة. وتجد ذلك العرض في هذا الرابط:

http://www.sudaress.com/sudanile/33884 المترجم).

وتناول المؤلف في كتابه الصراعات التي دارت بين البريطانيين أنفسهم عند إنشاء المدينة، وكيف أن تلك الصراعات قد أحدثت كثيرا من التأثيرات على مجريات الأمور بها. ومن أهم الأمثلة في هذا الجانب هو الصراع (المزمن) بين إدارة السكة حديد ومعتمد بورتسودان. فقد كان أمر إدارة الميناء قد أوكل للسكة حديد، بينما ترك للمعتمد إدارة شؤون المدينة نفسها. وكشف ذلك الصراع والنزاع الظاهر (والمستتر) عن وجهتي نظر متباينتين حول كيفية تطوير المدينة. فقد كان هنالك من يرى في بورتسودان تجمعا سكانيا حضريا يقوم حول الميناء، بينما كان هنالك أيضا من يرى بورتسودان كميناء أضيفت له باقي المدينة.

وعند النظر إلى ما سجل في الأدبيات العالمية حول المدن ونشأتها نجد أن المدن الأفريقية تقسم عادة إلى مدن لها أساس وقاعدة (core) تقليدية، ومدن استعمارية خالصة أنشأها المستعمر نَشَأً جديدا. ويضع المؤلف مدينة بورتسودان، ودون تردد، في الفئة الثانية. وقارنها المؤلف بما بناه المستعمرون الفرنسيون في شمال أفريقيا (مثل مدينة « فيري فيل» في تونس. المترجم). غير أن الفرق هو أن مدن شمال أفريقيا «الجديدة» كانت قد أقيمت حول مدن «قديمة» مثل تونس وفاس والجزائر. وهنالك أمثلة أخرى كعدن وكازابلانكا ، وهي مدينة كانت صغيرة وقليلة الأهمية في بداية أمرها، ثم تحولت لمدن وموانئ مهمة جدا، وغدا بعضها «مدن تؤام Twincities». وفي أفريقيا جنوب الصحراء نجد أمثلة أخرى

منها مدينتي مومبسا ولاغوس.

لقد أعتمد بيركنز في كتابه عن تاريخ بورتسودان على مصادر بريطانية. غير أنه ضمن كتابه أيضا آراء كثير من المجموعات الناقدة للسياسات البريطانية. وكان المؤلف يدرك جيدا أن البريطانيين لم يقوموا بما قاموا به في تلك المدينة بمعزل عن الآخرين.

ويأمل المرء أن يقوم كتاب آخرون بتناول بعض النقاط الخلافية التي وردت في ثنايا هذا العرض بالبحث والتحليل، وأن يشمل ذلك التطورات اللاحقة التي حدثت بالمدينة بعد خمسينيات القرن الماضي. وسيظل كتاب بيركنز هذا على أية حال مصدرا مفيدا ومرجعا لا غنى عنه لكل من يكتب عن بورتسودان.

حياة مفتش مركز في عهد الحكم الثنائي

Background to the Life of a District Commissioner

K. D. D. Henderson كينيث دي دي هيندرسون

مقدمة: هذه ترجمة لبعض مما ما جاء في الفصل الثاني من كتاب الإداري البريطاني كي دي هيندرسون (١٩٠٣ -؟) والذي أعطاه عنوانا له مغزى وهو «SetUnderAuthority» ، والعنوان مأخوذ، كما ذكر المؤلف، من الاصحاح السابع لإنجيل لوقا:

For I also am a man set under authority, having under me soldiers, and I say to one, Go, and he goes; and to another, Come, and he comes; and to my servant, Do this, and he does it.

وترجمتها بحسب ما جاء في عدة مواقع اسفيرية مسيحية هي: «لأني أنا أيضا إنسان مرتب تحت سلطان، لي جند تحت يدي. وأقول لهذا: اذهب فيذهب، ولآخر: ائت فيأتي، ولعبدي: افعل هذا فيفعل» .

ويحكي الكتاب (والذي صدرت طبعته الأخيرة عام ١٩٨٧م عن دار نشر كاسيل كاري البريطاينة) مذكرات ذلك الإداري البريطاني العتيد، والذي بدأ عمله في مجال الإدارة بواد مدني في عام ١٩٢٦م (وعمره ٢٣ عاما فقط)، ثم عمل بعد ذلك بالنهود وكوستي والخرطوم وسنكات، ثم الخرطوم مرة أخرى (مساعدا للسكرتير الإداري)، ونائبا لحاكم كسلا، وأخيرا حاكما لدارفور بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٣م. وللرجل مقالات وكتب كثيرة منها كتاب «السودان» والذي صدر عام ١٩٦٥م.

وشملت هذه الطبعة من كتاب هيندرسون مقدمة بقلم الدبلوماسي البريطاني (الأسكتلندي) اليس ستيرلينق (١٩٢٧ – ٢٠١٤م).

المترجم

**** **** ****

سبق لاثنين من الإداريين البريطانيين هما هـ. سي. جاكسون (١٩٠٧م) و ريجيلاند ديفيس (١٩١١م) نشر مذكراتهما.

وسيعجب من يقرأ مذكرات جاكسون والمعنونة «السودان: أيام وعادات» والتي قامت دار نشر ماكميلان بنشرها عام ١٩٣٤م (والتي ترجمنا قليل من صفحاتها في أكثر من مقال. المترجم) من التشابه بين ما ورد فيها وبين الحال بعد ربع قرن في وصف ذات الرحلة الشاقة الأولى للإداري عبر الفيافي من نافذة ملونة لقطار بخاري بطيء الحركة. وسيعجب القارئ أيضا حين يقرأ في مذكرات المفتش البريطاني تلك أن اللغة العامية السودانية تختلف عن اللغة العربية الكلاسيكية التي تعلمها بشق الأنفس، تماما مثلما أن اللغة الإيطالية تختلف عن اللاتينية. وسيعجب أيضا من النظافة الشديدة والتهذيب البالغ للعاملين بالقطار.

وسيأخذك مركب صغير «معدية» لتمخر بك عباب النيل الأزرق في عام ١٩٠٧م، عوضا عن إكمال الرحلة بالقطار. وستكمل الرحلة لمقصدك النهائي على ظهر حمار بدلا عن عربة ميكانيكية buggy (١٩٢٧م) أو سيارة أجرة (١٩٣٧م). غير أن الصورة العامة للزيارات الميدانية الرسمية تظل كما هي.

وكان المفتشون المتدربون الجدد (probationers) يبقون لفترة أطول بالخرطوم على عهد جاكسون، إذ أنهم لن يجدوا أي عون أو إشراف حين يقذف بهم للعمل في الأقاليم. وحينها يجب عليهم أن يتدبروا أمورهم وأمور مناطقهم بأنفسهم. وصور لنا جاكسون كيف أن باخرة نيلية لفظته في منتصف ليل بهيم على

ضفة النيل الأبيض، وتحديدا في حلة عباس، ليكمل رحلته المقررة لسنار على ظهر جمل. وربما تشابه تلك التجربة ما يتذكره المرء عند عبوره لسهول البطانة في طريقه للقضارف، أو عندما يسير المرء في ذلك الطريق البالغ الوعورة الذي يربط الأبيض بالفاشر، والذي يحتفظ بكل عيوب ومناقص الصحراء دون أن يكون له حظ في جمالها وسحرها. وصَرَمَ شوليدهام ريدفيرن في عام ١٩٢٠م وفريدي كين في عام ١٩٢٦م ثلاثة أسابيع قبل أن يصلا للفاشر قادمين للأبيض عبر ذلك الطريق المرعب. ومعلوم أن شاحنة ذات عجلات ست تقطع تلك المسافة الآن في ثلاثة أيام، بينما تستغرق الرحلة بالطائرة ثلاث ساعات.

ولم يعد المفتشون الجدد ينصحون بما نصح به سلاطين باشا جاكسون المتأهب للسفر للأقاليم البعيدة وهو يودعه حين قال له: «إن شعرت ببداية ظهور أعراض الملاريا في جسدك، فسلم كل أسلحتك الفتاكة لخدمك». لقد كانت الملاريا بنوعيها «الحميد» (إن صح التعبير) والخبيث منتشرة جدا. غير أن الرعاية الصحية كانت متوفرة، وتصل للمرء سريعا، قبل أن يفكر المصاب جديا في الانتحار. وكانت إحدى عادات الملاريا المثيرة للغيظ هي أن تصيبك، ودون سابق إنذار، قبل وقت قصير جدا من بدء عطلتك السنوية. وهنالك ما يسمى بمرض «حمى الماء الأسود» والذي يقال إن سببه هو تناول جرعات كبيرة من عقار الكينا، وهو داءٌ عُضَالٌ أشد قسوة من الملاريا ذاتها. وفقد أحد الإداريين في منطقة أمادي Amadi (بالاستوائية) خدمات ثلاثة من مساعديه دفعة واحدة بسبب الملاريا و«الماء الأسود» والالتهاب الرئوي، ولكن لحسن حظه لم يلحق أحد منهم بالرفيق الأعلى بسبب تلك الأمراض. غير أن ذلك الإداري نفسه سرعان ما سقط فريسة لمرض مجهول، وتشبث بالحياة لأربعة أعوام كاملة إلى أن نقل بعدها إلى بورتسودان ليتلقى العلاج خارج البلاد.

وعلى أيام جاكسون لم يكن يسمح للمفتشين المدنيين بالعمل في أي منطقة جنوب سنار. فليس من المستحسن أن تشعر بأعراض تلك الأمراض المُمَضّة

والقاتلة وأنت بمفردك في تلك الأصقاع القصية. وأنزعج المفتش جون ويندر غاية الانزعاج وهو في لاو (Lau) في عام ١٩٣٧م حين أحس بأعراض ما ظنه مرض «حمى الماء الأسود»، إلى أن طمأنه بعض خدمه بأنه ربما يكون مصابا بشيء آخر!

وكان آربر، والذي كان غادر توريت لتوه مصابا باليرقان، قد كتب ما نصه: «كنت قد بدأت جولتي الشهيرة على ظهر بغل من رشاد إلى تلودي في خريف عام ١٩٣٧م حين شعرت فجأة بأن رأسي يدور، وأن سريري في الاستراحة يتأرجح بي. أدركت على الفور أن هنالك عرضا صحيا جللا قد ألم بي فرجعت لرشاد بالعربة وحاولت الاتصال بالأبيض غير أني وجدت أن اللاسلكي لا يعمل في الأبيض بسبب السماء الملبدة بالغيوم الكثيفة القريبة من الأرض. استلقيت على سريري ومضيت أقنع التمرجي (المضمد) وأقنع نفسي أيضا بأني مصاب بالتهاب الزائدة الدودية. وجلس بجانبي على طرفي السرير نصر الدين شداد وعبد الله الشافي (من المآمير السودانيين العاملين معي) كخالين بالغي الحنو والعطف. ولما تيسر بعد حين سبيل الاتصال اللاسلكي بالأبيض، نصحت بمحاولة الوصول لخور أبو حبل، حيث سيوافيني هنالك من سيقوم بتولي أمري».

وسافر الرجل بعد جهد جهيد وعدة محاولات يدوية لتشغيل اللوري (الشاحنة) ممن كان معه من العمال وقطع خور «أبو حبل» ونهرين فاض مائهما بمركب صغير، ووصل الخرطوم أخيرا حيث أجريت له عملية إزالة لزائدته الدودية المتبرمة. وأصيب في ذات العام (١٩٣٧م) دينيس فالدر بفيروس شلل الأطفال، وأنقذ من صقعه القصي بذات الطريقة التي أخرج بها آربر، وشفي بأعجوبة.

أما ريد فيرن، والذي كان يعمل مفتشا بالجنينة في أقصى غرب السودان وأفلح في البقاء على قيد الحياة هنالك، فقد قال إنه لو استقبل من أمره ما استدبر، وأمر بالعمل في الجنينة مستقبلا فسوف يقوم أولا، ومن باب التحسب، بإجراء عملية

إزالة الزائدة الدودية قبل السفر. غير أنه من المستغرب أن التهاب الزائدة الدودية لم يحصد أرواح عدد كبير من المفتشين.

أما عن الدوسنطاريا (الدوسنتاريا) فحدث ولا حرج. فغالب المفتشين كانوا قد أصيبوا بها، إن عاجلا أو آجلا، في غضون سنوات عملهم في أصقاع السودان المختلفة. ووصف سي. أي. لي في يومياته وهو يطوف على مناطق البطانة في عام ١٩٢٧م طرفا من معاناته المحرجة مع ذلك الداء.

وبخلاف منغصات المرض، فلم تكن الوحدة والعزلة عن الناس بذات أهمية كبيرةعند المفتش، خاصة عندما يكون في أثناء رحلة يطوف بها على مناطقه المترامية الأطراف، حيث يكون عنده ما يشغله (وبأكثر مما يجب). أما عندما يؤوب المفتش لمركزه ولا يكون عنده كثير من المشاغل فوحدته تكون مريرة. وكانت قامبيلا (وهي أرض تم استئجارها من إثيوبيا) خير مثال لذلك. فهي منطقة معزولة ومقطوعة تماما عن أي اتصال أو تواصل مع العالم بين شهري أكتوبر ومارس، حين يجف نهر السوباط. وليس للإداري البريطاني هنالك غير أن يبقى في مكانه و«يراقب الموقف». وفي تلك الشهور الطويلة ليس أمامه غير أن يعتمد على مصادر ثقافية متعددة تبقيه رابط الجَأْش وسليم العقل والجسم. وفي موسم فيضان عام ١٩٢٤م أتى للمنطقة كريستوفر تريسي على ظهر الباخرة الصغيرة «كيوليكس» وبقي لأيام كثيرة بباخرته التي ظل يتصاعد منها عامود من الدخان وهي راسية على رصيف الميناء دون أن يأتي أحد من البشر لاستقباله. وعجب الرجل من أن المفتش الذي أتى هو ليخلفه كان يجلس في مكتبه طوال المكتب وهو يعبث بقلمه الرصاص مرتعبا من لقاء من سيخلفه. ولكن ما أن «ذاب الجليد» بينه وبين القادم الجديد حتى بدأ في ثرثرة لا نهاية لها.

ومع مرور الوقت أصيب كريستوفر تريسي بذات الأعراض (الشعور بالوحدة والعزلة). فقد نقل من قامبيلا إلى الرنك (بأعالي النيل) حيث كان روتينه اليومي حين تهطل الأمطار هو المشي قبل تناول الإفطار على مسار ممهد إلى النيل،

وإزاحة ديدان العلق (leeches) من على رجليه، ومسح العفن (mould) من على كتبه، ثم تناول الإفطار والتوجه للمكتب حيث يقضي سحابة يومه في تعليم كاتبه أساسيات نظام الأرشفة كما تمارس في مكتب السكرتير الإداري (صار ذلك الكاتب فيما أقبل من أيام موظفا كبيرا).

ويصاب المرء في تلك الأصقاع بما يسميه الفرنسيون ««Sudanite وهي حالة أخف وأقل وطأة من حالة الـ «Le cafard» (وحالة ال «Lecafard» هذه تصيب الرجال الذين يفتقدون لأي مصادر ثقافية. وضرب لها أحد الإداريين مثلا برئيس عمال في منطقة أمادي كان يسهر الليل كله وهو مسلح بعلب البيرة وفي حالة تأهب واستعداد لصد هجوم كان يتوهم أن من تحته من العمال سيشنونه عليه. وذكر مثالا آخر لرجل في دارفور كان في سنوات الخمسينيات يقضي يومه في تصويب بندقيته نحو المارة دون تمييز).

وأنغمس كثير من المفتشين في اهتمامات ثقافية واجتماعية وفي هوايات متعددة. فمنهم من غاص في العادات المحلية للسكان المحليين، أو في تاريخ قبائلهم، أو في الحيوانات البرية الموجودة في منطقته كالطيور والغزلان والثعابين (نشر دبليو. ام. كولي مقالا عن أنواع الثعابين في مدينة الجنينة بمجلة «السودان في رسائل ومدونات» عام ١٩٤٦م، ولم يقم – مبلغ علمي- أحد من السودانيين أو الأجانب قبله أو بعده بدراسة مشابهة. المترجم). وتشهد صفحات مجلة «السودان في مذكرات ومدونات» بما سطره هؤلاء الإداريون (وهم من الكتاب الهواة الذين يفتقدون الأساس النظري Pettheory في الموضوعات التي يكتبون فيها) في كل تلك المجالات. وقال لي السيد الصادق المهدي ذات مرة أنه يعد ما صدر من أعداد من تلك المجلة هو أفضل إرث (legacy) لنا في السودان.

وبذا صار هؤلاء الإداريون أعلاما في المجالات التي غاصوا فيها، فغدا شارل آرمبريستر (١٩٠١م) حجة في اللغة الأمهرية، وأ. جي. آركل (١٩٢٠م) أحد

أعلام علم المصريات البارزين، ورواتون سيمسون (١٩٢٨م) خبيرا في تسجيلات الأراضي، وبول هاول (١٩٣٨م) مرجعا في شئون التنمية، بينما ألف بيتر هوق وجون بورز (١٩٣٥م) كتابا عن الطيور في السودان، وأصدر تي. آر. هـ. اوين (١٩٢٦م) كتابا يضم صورا للحيوانات البرية بالسودان.

وفي بعض الأحايين كانت اهتمامات المفتشين خارج دائرة عملهم تفوق اهتمامهم بعملهم الرئيس. فقد كان دي. أتش. كتشن (١٩١٩م) مثلا خبيرا لغويا، وكان كثيرا ما كان ينحرف عن سير قضية كان يحكم فيها بين متخاصمين ليستجوب أحد الشهود عن المعاني الدقيقة لكلمة نطق بها أو عن مترادفاتها أو أضدادها. وكان ويلفرد ثيقير (١٩٣٥م) ابن الرحالة الشهير والكاتب المجيد للنثر الإنجليزي ثيقير، يجوب الصحراء الليبية على ظهر جمل، ويهجر عمله الرئيس كمفتش في شمال دارفور (سبق لنا نشر مقال بعنوان «من ذكريات الإداري البريطاني ويلفرد ثيقير في السودان». المترجم).

غير أن السكرتيرين الإداريين البارعين هارولد ماكمايكل ونيو بولد كانا قد أفلحا في إشباع اهتماماتهم الثقافية وهواياتهم الشخصية دون إهمال لعملهما المهني الرئيس. فقد نشر ماكمايكل مثلا كتابا من جزئيين عن «العرب في السودان» يعد رائدا وحجة في مجاله البحثي، ومرجعا رئيسا واصيلا لمن أتى بعده من الباحثين.

أما نيوبولد فقد كانت اهتماماته تدور في فلك علم الآثار واستكشاف الصحارى، وسجل ، رغم مشاغله المتعددة كثيرا من المعلومات المهمة عن فترة ما قبل التاريخ في السودان، وعن سكانه عبر العصور التاريخية المتعاقبة.

لقد كان المفتش البريطاني العادي، سواء أكان من ذوي الهوايات والمواهب المتعددة أو غير ذلك، عادة ما يختار (أو يفضل) العمل في محطة إدارية بعيدة عن المدن والمراكز، ربما ليصبح «سيد نفسه» وليتحرر من السلطات الإدارية المتعددة التراتيب. وفي تلك المحطات النائية تنعدم الحياة الاجتماعية المعتادة في المناطق الحضرية. غير أن غالب الموظفين الذين عملوا في تلك المحطات النائية

لم يفقدوا القدرة على الاستمتاع بصحبة الزملاء والرفقاء، وكانوا يندمجون بسرعة حين يجدون أنفسهم مرة أخرى أعضاء في مجتمع حضري. وكان عدد من كانوا «لاجتماعيين anti-social» في أوساط المفتشين قليلا جدا.

كانت إحدى طرق علاج الوحدة الأوضح والأسهل هي الزواج. غير أن السلطات في بداية الحكم الثنائي لم تكن تشجع (بل لعلها كانت تمنع) زواج من كانوا في محطات نائية. فوجود امرأة بريطانية في صقعٍ نائٍ كان يعد مسئولية وعبئا ثقيلا على الخدمات الصحية بالبلاد. وكانت السلطات تذكر المفتش الصغير السن بأن مهمته الأولى هي خدمة السودانيين، وليس الاهتمام بالنساء البريطانيات (أو ربما الرجال البريطانيين)! وعلاوة على ذلك فقد كان الافتراض العام هو أن وجود زوجة سيشغل المفتش صغير السن وسيصرفه عن عمله وعن التعامل والتفاعل مع السودانيين، وقد تحول زوجته بينه وبين القيام بجولاته الميدانية المعتادة إن كانت تلك الزوجة من النوع الذي لا يحب ركوب الأخطار. وفي ذلك كتب المفتش سيلدهام ريدفيرن ما نصه: «عندما كنت أعمل مفتشا في منطقة النيل الأزرق تزوجت وأنا في الثلاثين من عمري. وكانت الأحوال في السودان حينها محفوفة بالمخاطر. وكانت السلطات تمنع تجديد عقودات عمل من يقدم على الزواج في خلال السنتين الأوليين من عمله بالبلاد، وتطالبهم بالاستقالة. وكان الأزواج يفصلون عن زوجاتهم في ثلاثة على الأقل من شهور الصيف. غير أني أقول رغم ذلك أن الغالبية العظمى من المتزوجين من المفتشين عاشوا حياة زوجية سعيدة - وبما أني كنت مسئولا عن شئون الأفراد، فإني كنت على علم بما يجري في أوساطهم».

وفي أجواء مجتمع العشرينيات كانت القدرة على كبح جماح النفس ورغباتها الجسدية أكبر من تلك الموجودة في ايامنا هذه. غير أن الاحتياجات الجسدية للمرء تظل كما هي دوما. لذا كانت السلطات البريطانية لا تشجع صغار المفتشين على الزواج، غير أن كبار الموظفين كانوا ينصحون - سرا بالطبع -

صغار المفتشين تحتهم باتخاذ ضجيعات مؤقتات (temporarybed-fellow) عوضا عن الزواج. غير أنه حدث تغير في تلك السياسة بعد عام ١٩٢٤م، حين صدر توجيه من السلطات الصحية للموظفين الجدد الذين تقرر إرسالهم لمناطق نائية بأن الحكومة لا تمانع في زواجهم من فتيات سودانيات. وكانت السلطات تنصح الموظف الجديد بالقول: «لا تتوقع أن تعثر على فتاة حلوة صغيرة عذراء، فأحرص على أن تكون من اخترتها للزواج في حالة صحية جيدة. ولا تقم باختيار امرأة من المنطقة التي تدير شئونها، وإلا اتهمت بالتحيز وعدم الانحياز». ولا بد أن تلك النصيحة قد سربت للخارج، وأثارت ضجة «غير مستحبة»، فتوقفت الحكومة بعد ذلك عن التبرع بمثل تلك النصائح.

ولعل الخوف من الاتهام بـ «التحيز عدم الحياد» المذكور في النصيحة السابقة هو ما أعطى بعض الإداريين سببا وحجة وعذرا لرفض بعض العروض المقدمة من ذلك النوع. فالعزوف عن الزواج (celibacy) من الأمور غير المألوفة في السودان، وقد تثير بعض الشكوك في سلوك وتوجهات وخيارات الرجل.

وقال زعيم أحد القبائل للمفتش البريطاني: «نعلم أنكم معشر المسيحيين تتزوجون زواجا يدوم باقي العمر كله، لذا من الطبيعي أن يفكر الرجل منك مرتين قبل الإقدام على الزواج. ولكن يبقى السؤال هو: لماذا لا تتزوج في هذا الأثناء واحدة من فتياتنا،، ولك أن تطلقها عندما تغادرنا لبلدك وتسترد ما دفعته من أبقار ، وسيتزوجها واحد منا بعدك». غير أن ذلك العرض، رغم كرمه الظاهري، كان محفوفا بالمخاطر. فقد كان على ذلك المفتش أن يحسم في نزاع حدودي بين القبيلة التي عرض عليه زعيمها الزواج بإحدى فتياتها وقبيلة أخرى. وخوفا من «تضارب المصالح» وما يمكن أن يصيبه من اتهام بالتحيز والمحاباة لتلك القبيلة، فضل الرجل رفض ذلك العرض شاكرا. (لعله ورد في كتاب «قيود من حرير» لفرانسيس دينق ودالي قصة القبيلة التي قرر رجالها سؤال مفتشهم عن

سبب عدم زواج رجل ذي مال وصحة ومنصب رفيع مثله، وعرضوا عليه الزواج بمن يشاء من فتياتهم، لكنه آثر الاعتذار. المترجم).

وكانت مثل تلك الزيجات تثير الكثير من الاحراج في أحايين كثيرة. منها ما حكاه المفتش باث عن أن فتاته المحلية التي اختارها للزواج قضت الليل كله وهي مختبئة في شجرة كثيفة، ورفضت النزول لاعتقادها بأنها سوف تسلق في ماء حار وهي حية، ومن العجيب أن ذلك كان قد أثار عاصفة من الضحك المتواصل ممن كانوا يعملون معه من سكان المنطقة! ووردت قصة أخرى عن مفتش عرض الزواج على إحدى الفتيات المحليات، ووضع خاتما في أصبعها وسط زغاريد صويحباتها، غير أنها أطلقت ساقيها للريح، وعندما أرجعت بعد يوم لبيتها قالت بأنها تخشي أن تتزوج ذلك المفتش، والذي سيأخذها لأمدرمان حتما، وهنالك ستقوم زوجاته هنالك بضربها. وفي ذات السياق حكى لي أحد الصدقاء من المفتشين بأنه تزوج من فتاة حلوة في المنطقة التي كان يعمل بها. وذات يوم وبينما كان المفتش يتراس محكمة أهلية مع بعض كبراء المنطقة أقبل شاب وهو عار تماما وهو يحمل أكوبا من الماء لأعضاء المحكمة من بحيرة ماء قريبة. وحيا الشاب أفراد المحكمة باحترام شديد، ولكنه وهو في طريقه لخارج مكان المحكمة ضرب بيده على ظهر المفتش بود ظاهر وفي غير ما تكلف. وغضب المفتش بالطبع لذلك السلوك وصرخ في أعضاء المحكمة: «من يكون هذا بحق الشيطان؟». وهنا أنفجر الجميع في عاصفة من الضحك المتواصل وقالوا له: «ألا تعرف صهرك يا جناب المفتش؟»

لقد كان جانب الرفقة والعشرة (companionship) في زواج المفتش البريطاني بامرأة محلية أهم بالتأكيد من جانب الممارسة الجنسية. فوجود أنثى في بيتك يمكنك أن تفضي إليها، وتأنس بها، وتتبسط معها في الحديث، وتنسى، ولو لساعات قليلة، أنك الآمر الناهي وممثل الحكومة الشخصي، هو أمر في غاية الفائدة النفسية والجسدية.

وبخلاف الوحدة والعزلة، فمن أقبح ما يمكن للمفتش أن يصادفه في عمله هـو أن يصطدم مع رئيسه المباشر. وقد حدث لي ذلك في مـرتين. كانـت المـرة الأولى نتيجة لسوء تفاهم وقع بيني وبـين رئيسـي لم يـنجح في حلـه إلا رجـل فطـن وهـو المفتش البيطري الذي كان يزور يومها تلك المنطقة. ولم تكن تلـك المـرة الأولي التي أدين فيها بالعرفان لأفراد تلك المهنة الرائعة. وكانـت الحادثـة الثانيـة لي مـع رئيسي في العمل، وكانت أكثر خطورة وإيلاما، لأني كنت دومـا عـلى علاقـة طيبـة برئيسي هذا. وكاشفني الرجل فيما بعد تلك الحادثة بزمن طويل أن شخصا بعينـه قد «حرف» عمدا ملاحظة عابرة كنت قد قلتها عن عدم احتفـاظ محكمـة الرجـل بسجلات واضحة للحالات القضائية، وتعمد تضخيم ذلك النقد العابر.

وكان أحد معاصري ماكمايكل (وهو سي. اي. ويليس) قد سجل عـدم قدرتـه على التعايش مع سافيل باشا (هو روبرت فيسي سافييل، ١٨٧٣ – ١٩٤٧م، وكان ضابطا بالجيش المصري وعمل حاكما لمديرية بحر الغزال ثـم مديريـة كردفـان، وشارك في ضم دارفور للسودان عام ١٩١٦م ، وصار حاكما لها من ١٩١٧م حتى عام تقاعده في ١٩٢٣م. المترجم). غير أن سي. اي. ويليس كان معروفا بأنه رجلا غضوبا لا يكف عن الاحساس بأنه مظلوم أو مضطهد.

معلوم أن السودانيين يعجبون بالمسئول الصارم المتشدد (martinets). وخير مثال لذلك النوع من الرجال هو الرائـد برامبـل (أو «أبـو شـوك» كمـا كـان يلقبـه الأهالي)، أشهر مفتش مر على مدينـة أمـدرمان طـوال عهـد الحكـم الثنـائي عـلى الإطلاق. وقد أتى برامبل لأمدرمان قادما من مديرية أعالي النيل في عام ١٩٢٠م، وتقاعد في عام ١٩٢٣م. غير أنه – وبمطالبات ملحة من الأهالي- أعيد إلى الخدمة بأمدرمان وبقي بها حتى تقاعد مرة أخرى في عام ١٩٣٥م. وحكى اليـوت بـالفور (١٩٣٢م) الذي كان يعمل تحت إدارة برامبل عنه ما يلي:

«لقد كان برامبل ضابطا سابقا في المارينز. ولم تكن له خبرة عمليـة كبيـرة في الخدمـة

المدنية العامة، ولكنه كان واسع الخبرة في عمليات (عسكرية) خاصة في مختلف أرجاء العالم. لقد حكم أمدرمان بقبضة حديدية وكان كل سكان المدينة يحبونه جدا. وعندما حان يوم مغادرته للمدينة متقاعدا (وكان عمره الحقيقي يومها ٥٣ عاما) تظاهرت حشود كبيرة من مواطني أمدرمان مطالبين الحكومة بتمديد بقائه. غير أن الحكومة رفضت ذلك المطلب لآن عمر براميل كان بحسب سجلاتها ٦٥ عاما.

وأعتقد أن سر نجاح برامبل يكمن في أنه، ورغم تشدده في تطبيق القوانين وصرامته الظاهرية، هو عدله بين الناس، وشخصيته التي تميزت بالاتزان والاستقامة وعفة اليد. فقد كانت كل أعماله موجهة لخدمة من كان يدير شئونهم، ولخير المجتمع السوداني على وجه العموم. وقام هو وزوجه بأعمال خيرية (غير رسمية) عديدة بأمدرمان.

وكنت قد أمرت بأن أجلس في مكتبه، وأن أراقبه وهو يعمل، ومع مرور الأيام بدأ يكلفني بقضاء بعض الأعمال. وفي صباح كل يوم وعند السادسة والنصف تماما كنا نقوم سويا بطواف على ربع أحياء المدينة. وكان يلقانا عند مدخل كل حي المأمور (المامور) وشيوخ المنطقة التي نتفقدها، وطابور من رجال الشرطة وهم يرتدون زيا أبيضا كاملا بالغ النظافة. وكانت مهمتي هي مرافقة برامبل، ومراقبة توقيت حضور المتأخرين من الموظفين أو شيوخ المنطقة عن المشاركة في ذلك الطقس اليومي، وأن أنذرهم من مغبة تكرار التأخير والاهمال. وذات مرة حضرت مسرعا لمقر العمل وأنا على ظهر جواد للشرطة يركض بأسرع ما يمكنه، وشاء حظي العاثر أن كان برامبل هو أول من ألقاه، فجحدني بنظرة باردة ذات معني وصرخ في وجهي قائلا: «يا أيها الخنزير. عليك اللعنة! لم تركت إحدى أزرار بدلتك مفتوحا؟». ولم أجرؤ بعد ذلك اليوم على أن أحضر متأخرا أبدا. وفي خلال جولته في المدينة كانت برامبل يقف مستمعا لشكوى كل مواطن أو مواطنة تتقدم نحوه مهما عظم أو صغر عمر أو قدر الشاكي، وبغض النظر عن أهمية الشكوى نفسها. وكان يحرص على أن تكون شوارع المدينة نظيفة دوما، وأن يراعي السكان فيها قوانين ولوائح البلدية فيما يتعلق بالمباني وغير ذلك. وكان برامبل

يحرص بصورة خاصة على تفقد الأسواق (خاصة أماكن بيع اللحوم) ويعاقب على الفور كل من يخالف الأنظمة الصحية المقررة. وكان الرجل قد خاض معارك عديدة مع «لوبي» الجزارين القوي، وليس هنالك متسع لرواية تفاصيل كل تلك المعارك، ولكن يكفي أن نقول بأن برامبل قد انتصر في كل تلك المعارك (ومن الحكايات الأمدرمانية القديمة عن برامبل أن جزاري السوق اتفقوا ذات مرة مع بعض النسوة في مقدمة السوق على أن يطلقن زغاريد عالية جدا عند رؤيتهن من بعيد لموكب برامبل وهو يتفقد السوق بغتة حتى يتسنى لهم تغطية اللحوم التي يعرضونها للبيع بقطع من الشاش الأبيض النظيف كما يريد برامبل. غير أن حيلة ذلك «الإنذار المبكر» لم تنطل على برامبل عند استجوابه لأولئك النسوة. المترجم).

وفي المكتب لم أكن أفعل شيئا يذكر غير مراقبة شخص عظيم وهو في حالة عمل لا ينقطع. ورغم أن معرفتي باللغة العربية حينها كانت بالغة التواضع، إلا أني أعد فترتي مع برامبل كانت هي فترة دراسية مفتوحة تعلمت منها الكثير. ولم يكن برامبل يخوض أبدا في نقاشات لا طائل ورائها مع أحد من المواطنين. وإن حدث واستطرد أحدهم في نقاش طويل في مسألة من المسائل لا يوافق عليها برامبل، فإنه يصرخ مناديا هاشم رئيس الكتبة (الباشكاتب) ويأمره بأن يشرح لذلك المواطن وبتفصيل شديد لماذا رفض طلبه. وما أن يكمل هاشم الشرح حتى يردد برامبل جملته الشهيرة باللغة العربية لذلك المواطن: «داير ممنوع... مش ممكن»، وإن الحف المواطن في الطلب فسيسمع الجملة الأخيرة:« أنت مهبوس هسع (أنت محبوس الآن) ». وبعد عام من عملي مع برامبل تصادف أن قابلته ذات نهار في الخرطوم فصاح في وجهي قائلا: «ماذا تفعل هنا؟» أخبرته بأني سأجلس لاختبار في اللغة العربية. هز رأسه ساخرا وقال: «أي اختبار!؟ كلمتان خفيفتان هما كل ما تحتاجه لإدارة هذه البلاد ». وهنا توقعت أن يكرر أمامي ما ظللت أسمعه يوميا لعام كامل:«داير ممنوع» ...أو«مش ممكن»...ولكنه أجابني بما ما ورد في مسرحية لشكسبير: «Severitytemperedbyjustice صرامة يخفف من غلوائها العدل»، وأنصرف مثقل الخطو.

وحاولت بعد ذلك بسنوات أن أجرب طريقة برامبل في الإدارة غير أني أخفقت في تحقيق المراد. وأيقنت حينها بأنك يجب أن تكون «برامبل» كي تجعل تلك الطريقة التي تمزج الصرامة والعدل تؤتي ثمارها. وتلك القصة تلخص الكيفية التي كان يدير بها البريطانيون السودان. كانت طريقتهم هي: «الحكم بالأفراد». وكان لكل فرد منا طريقته الخاصة في إدارة شئون من نحكمهم، بيد أن هدفنا النهائي كان بالطبع واحدا.

ويجب أن نذكر هنا أن كثيرا من السودانيين لم يكن يحبون تلك السياسات الفردية. كان بعضهم يقول متبرما: «لقد تعودنا للتو على السيد «س» وسلوكه العجيب وغرابة أطواره، والآن تودون تغييره بالسيد «ص»، والذي لا نعرف عنه شيئا، وعلينا أن نبدأ معه من الصفر». غير أني كنت أعتقد حقيقة أنهم في الواقع يحبون ذلك النوع من التغير، فتغيير المسئولين فيه من الإثارة والترقب والغموض ما فيه».

وخلاصة الموضوع هو أن السودانيين لم يكونوا يرغبون في مغادرة برامبل لمدينتهم. ولا يزال بأمدرمان والدلنج والنهود ودارفور والجنوب من لا يزال يذكر برامبل ويحبه رغم صرامته وغرابة بعض طباعه.

وهنالك من يشكك في صحة ودقة نظرية الحكم الاستعماري التنويري / المثقف (enlightened). وكنت كثيرا ما أؤمن في أيامي الأولى في الإدارة بأن رؤسائي من كبار الإداريين لا يخطئون. كانوا يعلموننا مثلا بأنه من الضروري عدم رفض كوب من الشاي أو القهوة يقدمه لك أحد الأهالي. بل ويتبعون ذلك بقصص كنا نسمعها ونحن نسمر ليلا بينا كنا نعبر الفيافي والقفار عن أحد الباشوات قديما والذي رفض أن يتناول كوب قهوة قدمه له مضيفه السوداني، فما كان من أن المضيف إلا أن أوسع ضيفه غير المهذب طعنا بالسكين! ونترك في حيرة عما يجب أن نفعله في مناسبات احتفالات الأهالي عندما يقدمون لنا الشاي المغلي في ماء الآبار العميقة الذي يخزنونه في قرب جلدية تجعل رائحته كريهة جدا. رغم ذلك فإني أتذكر شيخ الخوالدة في مدني يصيح لمن حوله: «كفانا من هذا الشاي. لقد ملئتم بطوننا بالشاي. احضروا لنا

بعض البسكويت». ولا أذكر أن أحدا من مضيفيه قام بطعنه!

وعلى وجه العموم، فإن شرب القهوة مع الأهالي كان أمرا ممتعا ومن مستلزمات الاتصال الاجتماعي معهم. وسجل تي. هز ماينورز (١٩٣٠م) ما يذكره في هذا الصدد:

«توقفت في مكان قفر بإحدى مناطق الجزيرة لأسأل عن الطريق الصحيح. خرج لي أحد الرجال وهو بادي الفقر، وأصر على أن يقدم لي شيئا. ولما لم يكن لديه شاي أو قهوة، بل كان كل ما لديه هو قليل من السكر. فقام بوضع قليل منه في كوب ماء بئر مالح وقدمه لي. وقفت عاجزا تماما عن مجازاة ذلك التقليد والسلوك الودي. وهو سلوك كنت –وغيري من الإداريين- يشاهدونه باستمرار حتى مع أكثر الأهالي عوزا. ولا يخفى أن هؤلاء الأهالي كانوا يفعلون ما يفعلون دون أدنى شعور بالصغار أو الخنوع، وبصورة تلقائية وبكل حرية وعزة وكرامة وشعور قوي بالمساواة بينهم وبين ضيوفهم. وهذا ما يقوي روابط الاحترام والود لهذا الشعب. ويحافظ هؤلاء الناس على قواعد اللياقة والتهذيب وتكتيكات النهج غير المباشر (في المخاطبة)، غير أنهم لا يترددون أبدا في الجهر بأمانيهم وآرائهم، وأحيانا بصورة قوية.

ومن النصائح التي كانت تقدم لنا هي ألا نفقد أعصابنا وأن لا ننفعل، وكان بعض الانجليز قد اشتهروا بذلك، خاصة عندما يتعرضون لأقل استفزاز.

وقد فقدت أعصابي بالفعل مرة واحدة بسبب مشكلة لا مجال هنا لشرح تفاصيلها، ويكفي أن أقول إنها كانت بسبب توزيع دية على أصحاب دم قتيل، وجشع بعض هؤلاء ورغبتهم في الاستئثار بكل المال وحرمان غيرهم. وهنا ثار الدم في عروقي فلم أملك نفسي من شدة الغضب وأسمعتهم ما لا أتفوه به عادة. وبعد أن هدأت قليلا قال لي مساعدي السوداني يوسف سعد: « الحمد لله على أنك استثرت أخيرا! لقد بدأ الناس هنا يقولون إن قلبك أسود وأن «بطنك غريقة» تقوم بتخزين حقدك وحنقك على المرء ولا تظهر له شيئا من ذلك حتى تحين لك الفرصة فتنتقم منه في وقت لاحق». وبالمناسبة،

فيوسف سعد هذا كان من أفضل أصدقائي الذين صادفتهم في الحياة، وكان لي نعم الناصح الصدوق، ويداوم على تنبيهي إن لاحظ خطأ في موقفي أو فشلا في أداء عمل ما كان يجب على أدائه. وأذكر أنه عمل معي مرتين. وقال لي عندما التقاني في كوستي للمرة الثانية إنه سعيد جدا بالعمل مع رجل يعرفه جدا للحد الذي يمكنه معه تنبيهه للأخطاء التي يرتكبها.

ونعود الآن إلى جاكسون في عام ١٩٠٧م.

عند وصول جاكسون إلى سنار أقام في بيت صغير يشبه الصندوق بني بالطوب الأحمر. وكان كل سكان النيل الأزرق يعرفون ذلك البيت ويطلقون عليه «بيت قورنجي بيه». وعمل العقيد قورنجي بيه حاكما لسنار بين عامي ١٩٠٢ - ١٩٠٤م، وكان قبل ذلك مسئولا عن إعادة بناء القصر في الخرطوم، ومبنى السكرتارية، وكلية غردون، ورئاسة المديرية في واد مدني وسنجة. وأشتهر الرجل بتصميم معماري لمبان تحمل بعض الشبه بمباني مصر القديمة، وهذا ما أشار إليه مؤخرا البروفيسور اليك بوتر أستاذ المعمار بجامعة الخرطوم وزوجهالتشكيلية مارجريت في كتابهما (المشترك) الممتع المعنون «كله ممكن Everythingispossible» والذي نشرته دار الن سيتون في عام ١٩٨٤م.

وكانت مباني موظفيه تشبه الصناديق الصغيرة، إلا أنها صممت بطريقة تخفف من حرارة الشمس العالية، وبسقوف عالية كي تحتفظ ببرودة معقولة. غير أن أنواعا كبيرة وشرسة من «الذبابة الرملية» غزت تلك المباني وتوطنت بها. وكان بمكتب جاكسون كرسي خشب (من النوع الذي يستخدم في المطبخ)، استبدل لاحقا بكرسي مريح عليه وسادة جلدية، وطاولة متهادية (غير ثابتة على الأرض) مغطاة بقماش عليه آثار حبر قديم، وعلبة أقلام رصاص، وعلبة حبر يشبه الوحل، وأوراق نشاف. وعلقت على الحائط خريطة للمنطقة. وكان على المكتب أيضا كتابان للمدونات القانونية، وكتاب يضم مراسيم القضاء المدني، ونسخة من القرآن الكريم ليقسم عليه الشهود. وكانت

تلك النسخة ملفوفة بعناية في قماش بني اللون ولكنها موضوعة – للأسف – في داخل صندوق يشبه الصناديق التي يوضع فيها السيجار. ولم يلحظ أحد ذلك التشابه (غير المقصود) حتى وقف ذات يوم شاهد أمي قصير النظر من كوستى أمام جاكسون. وعندنا قدم له جاكسون ذلك الصندوق ليقسم على الكتاب المقدس داخله أزاحه الشاهد جانبا قائلا: «شكرا جزيلا ولكني لا أدخن».

وكان الزي المعتاد للمفتش في عام ١٩٢٧م هو البنطال (السروال) الطويل والبدلة (المعطف) وربطة العنق. وكان ذلك الزي مفروضا على المفتش حتى حينما يكون مسافرا يطوف على أنحاء منطقته. وبالاضافة لذلك الزي غير المريح يجب على المفتش ألا يخلع القبعة (غير المريحة) المسمية WolseleyHelmet أبدا وهو في سفرته تلك. ولا يطالب (بل لا يحبذ) المفتش بارتداء الطربوش والاسطمبولي. ولكن سمح للمفتشين فيما أقبل من سنوات بالتخفف في الملابس أثناء ترحالهم وارتداء القمصان والأردية القصيرة.

ويقول جاكسون أن يومه بسنار كان يبدأ في الصباح الباكر بمقابلة طلاب الحاجات والمشتكين والمتظلمين. وهو عمل كان في بعض الأحايين – في نظره – يثير الملالة' فغالب من يمثلون أمامه كانوا يعدون زيارتهم لـ «المركز» نوعا فريدا من الترفيه. غير أنه من الواجب أن نذكر أن السماح لكل مواطن (ومواطنة) بالمثول أمام أعلى سلطة في المنطقة، والتعبير الحر عن مظلمته (مظلمتها) كان من أهم أسباب غياب السخط والاستياء العام من الحكم الثنائي.

ومن غريب ما ذكره المفتش البريطاني مايكل بمفري (١٩٣٠م) أنه كان ذات يوم يستقبل عددا من المتظلمين كل على حده، في مدينة نيالا. وفي أثناء تلك المقابلات خرج المفتش لمكتب الباشكاتب ثم عاد بعد دقائق ليجد أحد المتظلمين وهو يقف وحيدا أمام طاولة المفتش وهو ينتحب ويحكي مظلمته. وعندما لمس المفتش كتف الرجل المتظلم بادر الرجل بالاعتذار بأنه كان في حالة

نفسية سيئة بسبب ما حاق به من ظلم لدرجة أنه لم يلاحظ خلو المكتب من أي مخلوق بينما هو مسترسل في شكواه.

وكان غالب من مثلوا أمام جاكسون من المسترقين الذين يودون الحصول على أوراق حكومية تفيد بأنهم غدوا أحرارا. وواجه المفتش جي ساندرز في أم روابة بشرق كردفان ذات الموقف في عام ١٩٢٤م، وعجب كثيرا من أن الرق كان لا يزال ممارسا حتى ذلك التاريخ، خاصة بين العرب الذين كانوا يقيمون في غالب شهور العام في منطقة رشاد، والذين كانوا يغيرون على جيرانهم ويسترقون بعضهم ويستخدمونهم رعاة لقطعانهم من الأبقار والضأن. وكانت شرق كردفان هي الملاذ الآمن لهؤلاء المسترقين الهاربين من مسترقيهم. وربما كان «سادتهم» يقدمون في ذات الأيام طلبات لمفتش رشاد (والتي كانت تتبع لمديرية أخرى اسمها مديرية جبال النوبة) لإرجاع «رعاتهم» الآبقين. وكان أمر إرجاع المسترقين لـ «مالكيهم» يثير قضايا واشكالات أخلاقية واقتصادية معقدة، إذ أن هؤلاء المسترقين كانوا يقومون برعاية قطعان كبيرة من الحيوانات، وغيابهم عن عملهم في رعاية تلك القطعان يعرضها للهلاك المحقق لعدم توفير الماء والكلأ لها، ويعرض الملاك لخسارة اقتصادية كبيرة. والأهم من ذلك هو مستقبل أولئك المسترقين، وهم أناس لم يعرفوا أبدا معنى الحياة الحرة، ولم يتخذوا في حياتهم قرارا مستقلا يخص حياتهم. لذا كان من الأوفق للمفتش البريطاني أن يعقد صفقة مع أصحاب المواشي من العرب ومسترقيهم يمنح بموجبها المسترق حريته القانونية الكاملة، على أن يعين راعيا (أو عاملا زراعيا) حرا عند «مالكه» السابق بمرتب معلوم متفق عليه. وإن ثبت أن ذلك أمر غير ممكن فعادة ما يمنح المفتش المسترق (السابق) حرية الإقامة بشرق كردفان في قرى محددة، تكون بعيدة عن حدود المنطقة.

ومثلت قضية المسترقين السابقين معضلة أمام الحكم الاستعماري، فقد كان كامل اقتصاد البلاد يقوم على عمل هؤلاء الناس. ولم تبدأ تلك الأزمة في الانفراج

قليلا إلا حين بدأ تنفيذ مشروع الجزيرة.

وكان المسترقون عاجزون عن العمل في أشغال حرة أو اتخاذ أي مبادرات فردية، فالعبودية، كما لاحظ مفتش النهود تقتل في المسترق روح الابتكار وصفات أخرى حميدة. وضرب لذلك مثلا بأطفال مسترقين كان قد حررهم ووفر لهم مسكنا آمنا، وكان يلاطفهم ويلاعبهم ويتحدث معهم. وكانوا في غاية اللطف والأدب في وجوده، ولكن ما أن يدير لهم ظهره حتى كانوا يظهرون روحا عدوانية غريبة، ويحطمون كل ما يقع تحت أيديهم. وكان أمر تحرير الفتيات يثير مشاكل من نوع آخر. فليس أمام اولئك المسترقات (إن لم يمكن تزوجيهن لرجال محررين) غير مهنة واحدة، خاصة وإنهن لم يكن يمتلكن أي مهارات عملية، ولا يجدن أي أعمال (شريفة) يمكن أن يعملن فيها.

وكانت للمسترقين بعض الحقوق عند «مالكيهم»، وتشمل تلك الحقوق الرعاية عند كبر السن. وذلك ما يفتقده المسترق عند نيله لحريته. وعلى وجه العموم فقد كان الرقيق في المناطق الحضرية (خلافا لمناطق العرب الرحل) يعاملون معاملة غير سيئة (يمكن النظر في مقال هيزير شاركي المعنون «أهمية الرق في شمال السودان في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين»، والذي يذهب إلى أن المسترقين في شمال السودان كانوا يقدمون لـ«سادتهم»، إضافة لأعمالهم الرئيسة، أعمالا أخرى غير منتجةوخدمات كمالية. وكانت تلك الخدمات تعد عند اولئك «السادة» مؤشرا للثراء والدعة ورمزا للهيبة والنفوذ. المترجم). ويذكر هنا أنه ورد في «مذكرات بابكر بدري» أنه بعد هزيمة الخليفة لم تسجل أي حوادث للثأر قام بها المسترقون ضد «مالكيهم» سوى حالة واحدة قام فيها مسترق بالتوجه لبيت «مالكه» القديم وأمطره بوابل من الرصاص.

أما فيما يتعلق بجهود المفتشين في بناء الحكم الذاتي أو الإقليمي (devolution) فيجب ذكر ريجلاند ديفيس كأحد رواد تلك السياسة بعد أن بعث

به لنيجيريا ليدرس نظام الحكم الفيدرالي مع أمراء بعض المناطق هنالك، وكان يأمل في تطبيق ذلك النظام في دار مساليت.

وقدم ديفيس وصفا لما يحدث في دار كبابيش عند مقتل أحد الرجال في معركة ما، وذكر أن الحكومة المركزية كانت لا تتدخل بتاتا في مثل تلك الأمور. ولا شك بأن دار كبابيش كانت تعد منطقة «فريدة في نوعها suigeneris»، غير أني أتذكر جيدا مدى امتعاض أحد كبار ضباط الشرطة بالخرطوم (والذي كان يعمل مفتشا سابقا لأحد المراكز) عندما أخبر بأن أحد الشيوخ المحليين في ريفي كوستى قد أفلح، وفي خلال ٢٤ ساعة فقط، في القبض على رجل ارتكب جريمة قتل في منطقته، وأرسل الفاعل مع مجموعة من الشهود إلى المركز. وكان ذلك في منتصف الثلاثينيات. ولم يكن للشيوخ بحسب القوانين السائدة حينها أي سلطات لاعتقال أي شخص آخر تفوق ما لدى المواطن العادي، والذي ينبغي عليه طلب الشرطة للقيام بعمليات الاعتقال. غير أن الشرطة كثيرا ما كانت تستفيد من خدمات قصاصي الأثر المحليين.

وروى ديفيس وجاكسون قصصا كثيرة عن مهارة العربي العادي في قص الأثر، وذكرا أن هذا الرجل العربي العادي يتمتع بمهارة قد تفوق مهارة أي قصاص أثر محترف. وخص جاكسون رجلا اسمه على دفع الله بذلك الثناء.

وأشار جاكسون إلى الفرق الكبير بين عام ١٩٠٩م و١٩٢٩ فيما يتعلق بتقدير وجمع الضرائب. ففي عهد جاكسون لم يكن هنالك من يجمع الضرائب من السكان. ولكن منذ ذلك العهد خبر الناس مزايا انتخاب شيخ يكون خادما للحكومة (ورد في النص حرفيا «يكون كلبا للحكومة GovernmentDog». المترجم)، وعادة ما يختار ذلك الشيخ من بين المسترقين السابقين، وذلك لسهوله تحميله وزر الفشل في تحقيق العائد من الضرائب الذي يتوقعه مفتش المركز. وتحسنت الأوضاع بالطبع بعد ذلك. غير أنه كان مستحيلا في مدني مثلا

في عامي ١٩٢٧ – ١٩٢٨م اقناع اللجنة المنوط بها تقدير وجمع الضرائب عمل أي تقديرات معقولة على أي شيء سوى على منزل أو محل تجاري لأحد «الأجانب». ولكن بعد عام وعامين من ذلك خصصت للمدينة ميزانية منفصلة فتحسنت طرق تقدير وجمع الضرائب تحسنا كبيرا.

وسجل جاكسون ملاحظة غريبة عن زوار المدينة من الأرياف (ووصفهم بالسذج unsophisticated! المترجم) والذين كانوا – بحسب قوله- لا يعيرون انتباها للأشياء التي تقع خارج دائرة تجاربهم السابقة. فقد لاحظ اندهاشهم البالغ من الماء الآتي من الصنبور، وعدهم له اختراعا مدهشا ورائعا، بينما تجاهلوا تماما الترام (الترماج) باعتباره شيئا لا أهمية أو علاقة له بالحياة العادية.

وفي أحد أعوام الثلاثينيات عقد وفد من قبيلة النوير اجتماعا مع زعماء قبائل كردفان على شط بحر العرب. ولم يبد النوير أي دهشة من العربة التي أقلت مفتش المركز، ولا من الطائرة التي وصل بها حاكم المديرية، بل دهشوا كل الدهشة من الحصان الذي كان يركبه أحد رجال كردفان، فقد سمعوا الكثير عن ذلك الحيوان ولكنهم لم يروه أبدا في حياتهم.

وكان ذلك الاجتماع دراميا بكل المقاييس. فقد وقعت عينا أحد شباب النوير فجأة على مترجمي الدينكاوي فوقف وصاح مشيرا للرجل: «هذا الرجل، ومعه لص آخر اسمه حامد امبرداب قاموا بخطف أمي وأخواتي عندما كنت طفلا صغيرا. أريد تعويضا عن ذلك الجرم وإلا...». وكان حامد المقصود هو درويش عجوز تم العفو عن جرائمه السابقة بعد الاستيلاء على دارفور في ١٩١٦م. وعينته الحكومة منذ ذلك الحين مرشدا للقبض على اللصوص. رد حامد بأنه بالفعل يذكر تلك الحادثة ويعترف بها، إلا أنه ذكر بأن النسوة المختطفات قد هربن منه ووقعن لاحقا أسرى عند رزيقات دارفور. وقال أيضا إن الحكومة قد عفت عنه، ولذا يجب على الحكومة أن تتولى دفع ما يطلبه الشاب النويراوي من تعويض.

وبالفعل أقنع السيد بيردن نائب حاكم المديرية (والذي يلقبه الأهالي بالفكي بيردن لحصوله دوما على ما يريد!) الحكومة بدفع التعويض المناسب، وقد كان.

وأخيرا نتعرض لبعض حالات السحر في بعض المناطق. فقد قام في عام ١٩٢٧م جندي بسجن واد مدني مشهور بقدرات «سحرية» خارقة بتهديد زميله بالموت عن طريق السحر. وبالفعل وجد الرجل ميتا بعد أيام قليلة من ذلك التهديد. فقدم الجندي «الساحر» للمحاكمة بتهمة القتل. غير أن تشريح الجثة لم يثبت أي سبب لموت الرجل. ورغم ذلك قررت المحكمة إدانة الجندي «الساحر» بتهمة القتل بالتخويف. ولكن تمت تبرئة الجندي «الساحر» لاحقا عقب بعض المداولات والاستئنافات. وعزز ذلك الحكم من إيمان العامة بقدرات الجندي السحرية الخارقة. وكان من رأي بعض القانونين في لندن أن ذلك الرجل كان سيحاكم بالسجن لو جرت تلك الحادثة في بيئة أقل تحضرا (!؟ المترجم).

وهنالك قصة أخرى عن «ساحر» آخر أعتقل في النهود بتهمة القتل. غير أنه استخدم قدراته الخارقة في «إقناع» جندي ممتاز كان يقف على حراسته بإطلاق سراحه. والعجيب أن ذات الرجل أعاد نفس المشهد حينما أعتقل في سنار، وكرر نفس الفعلة للمرة الثالثة في مدينة أخرى!

وفي الخرطوم بحري أقنع منوم مغنطيسي بارع أحد الرجال بأن بمقدوره أن يجعله رجلا خفيا لا يراه أحد (invisibleman). فقام الرجلمطمئنا بعدة سرقات ناجحة. ولكن ذات مرة أفلح صاحب البيت الذي كان «الرجل الخفي» يقوم بسرقته بالقبض عليه. وكان تفسير اللص الوحيد لما حدث هو أن مفعول السحر لابد أنه قد انقضى!

الوثائق الحكومية في شمال السودان

Government Archives in Northern Sudan

Susan Grabler سوزان قرابلير

مقدمة: هذه ترجمة لما جاء في العدد الثاني عشر من مجلة «التاريخ في أفريقيا History in Africa والصادر عام ١٩٨٥م، عن تاريخ الأرشيف الحكومي في شمال السودان.

وبحسب موسوعة الويكيبيديا فقد أنشأ المستعمر في عام ١٩١٦م مكتبا اسماه «مكتب محفوظات السودان»، ثم تغير الاسم إلى «دار الوثائق المركزية» عام ١٩٥٦م، ثم إلى «دار الوثائق القومية» في عام ١٩٨٢م (للمزيد عن تاريخ دار الوثائق يمكن الاطلاع على مقال البروفيسور أحمد إبراهيم أبو شوك المعنون «دار الوثائق القومية السودانية: إرث تليد ... ومقر جديد» والمبذول على شبكة المعلومات الدولية.

وكاتبة المقال متخصصة في تاريخ السودان وحاصلة على الدكتوراه فيه من جامعة وسكنسن الأمريكية بمدينة ماديسون. وكان قد قامت بزيارة السودان بمنحة دراسية في منتصف الثمانينات. وفي هذا المقال تصف الكاتبة تجربتها الشخصية في «دار الوثائق» في تلك الفترة. وليت بعض البُحّاث السودانيين الذين استفادوا في أيامنا هذه من خدمات تلك الدار يكتبون عن تجاربهم فيها لنرى الفرق إن كان هنالك من فرق.

المترجم

**** **** ****

أتى على طلاب علم التاريخ بالسودان الراغبين في دراسة الوثائق اللازمة لأبحاثهم عن الحكم الثنائي زمن (ليس بالبعيد) كانوا لا يسمعون فيه غير نصيحة واحدة لا أخت لها هي: «شد الرحال لإنجلترا». وبالفعل، فإن مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درام لا تزال تحتفظ بأغنى مجموعة عن السودان، وكذلك هو الحال هو مع مكتب الوثائق / السجلات العامة بلندن. غير أنه بدأت في السنوات الأخيرة بالخرطوم حركة نشطة هدفها تجميع كل الوثائق السودانية في دار واحدة تحت القيادة الماهرة للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم. ووضعت كل الوثائق السودانية في قصر (صادرته حكومة نميري من صاحبه. المترجم) السيد عبد الرحمن المهدي، والذي هو واحد من أشهر شخصيات السودان في القرن العشرين. وفي هذا القصر بحديقته الوارفة الظلال ينعم الباحث في علم التاريخ بالاطلاع على ما يرغب في الاطلاع عليه من الوثائق منذ بدايات الحكم الثنائي وحتى الوقت الحالي، وذلك في أجواء تاريخية historical ambience يزيدها تاريخ المقر وصاحبه ألقا. وللراغبين في البحث في تاريخ مشروع الجزيرة فهنالك مركز لوثائق المشروع في بركات.

دار الوثائق المركزية

لا ندعي أن الوصف الذي سنقدمه عن المواد المتوفرة في دار الوثائق المركزية سيكون شاملا لأسباب كثيرة أهمها هو عدم وجود فهرس (كتالوج) أو قائمة شاملة بكل المواد التي توجد بدار الوثائق المتاحة للاطلاع. ويقضى النظام المعمول به أنه عندما يتقدم الباحث (أو الباحثة) بطلبه للاطلاع على وثيقة ما، فيجب عليه أن يفصح عن عنوان بحثه، وبعدها يتاح له الاطلاع على عدد محدود من الملفات / الأضابير. ويلتزم الباحث بما يقترحه عليه دكتور أبو سليم، والذي يبقي مكتبه مفتوحا دوما أمام البحاث ليسألوه عما يعن لهم. وبالطبع كان من الممكن أن تساهم معرفة الباحث المسبقة بمحتويات الملف في تحضير الأسئلة الملائمة.

وتعتمد القائمة التالية على عام ونصف من الخبرة البحثية والملاحظات عن دار الوثائق. وهي بهذه الكيفية محصورة في نطاق اهتماماتي البحثية، والتي تتعلق بموضوعات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بين عامي ١٨٩٨ و١٩٢٥م. ولا تتعداها. ولعل ذلك القيد الزمني كان له دور في إنقاذي، وفي تحاشي كثير من المصاعب والمتاعب التي كنت سألقاها لو شمل بحثي فترات زمنية أكثر قربا، وبالتالي أكثر حساسية. وتقضيني الأمانة أن أذكر أنني لم أصادف في طوال فترة بحثي أي نوع من الحظر على أي وثيقة طلبتها سوى في موضوعين لا ثالث لهما، وهما موضوع الرق وموضوع السيد علي الميرغني والطائفة الختمية. غير أن انطباعي العام عن دار الوثائق السودانية ومديرها أن أي موضوع بحثي شرعي / مشروع، مختار بدقة، ومخطط له بعناية لن يقابل بالرفض بغض النظر عن الفترة الزمنية التي يقوم بدراستها.

ويجب علي كذلك أن أضيف هنا أنه، وفيما يتعلق بشمال السودان، فإن قائمة كل الوثائق الخاصة بغرب السودان (كردفان ودارفور) تكاد تكون مكتملة. أما وثائق الجنوب فمستبعدة تماما لأن أعداد الوثائق عن الجنوب تعد بالآلاف، وليس بالإمكان وصف كل أو حتى بعض محتوياتها في هذا المقام.

لقد أنشئت دار الوثائق القومية في ١٩٥٦م، عام الاستقلال، وورثت تلك الدار كل ما كان موجودا في مكتب الوثائق التابع للسكرتير الإداري لحكومة السودان. وكان ب. م. هولت، بحسب ما فهمت، هو الذي تولى أمر تنظيمها قبيل نيل السودان لاستقلاله، وكتب، بالمناسبة، كتابه الشهير «دولة المهدية في السودان» في تلك الفترة أيضا. وأعتمد هولت في ذلك الكتاب على وثائق المهدية التي كانت قد نقلت حديثا للدار الجديدة. أما تاريخ فترة ما بعد المهدية، فقد قسم لسلاسل متنوعة حملت اسماء مختصرة مثل CIV وINTEL وSECو CAIRINT وغير ذلك. وما زالت تلك المجموعات مصدرا غنيا بالمعلومات. وتم تنظيم كل تلك الوثائق بحسب الترتيب المعروف عند الإداريين البريطانيين. لذا رتبت الوثائق بحسب الموضوعات، وتبدأ من المرتبة الأولى (إدارة) والمرتبة الثانية (زراعة) والمرتبة الثالثة

(متنوعات). ويعمل هذا النظام، وعلى وجه الإجمال، بصورة طيبة، ولا يعزى وضع بعض الوثائق المفهرسة في المكان الخطأ إلا لإهمال أو تقصير من جانب الموظف الذي رتب تلك الوثائق في المبتدأ. وقد تكون النتائج في بعض الأحوال مضحكة نوعا ما. ففي وثائق مديرية كسلا على سبيل المثال كانت الوثيقة الأولى في المرتبة الثانية (زراعة) مرتبة تحت عنوان «زراعة الموالح»، ولكني وجدت فيها وثيقة عن طريقة تحضير مشروب الليمون المسكر Limecordial! ولكن الأكثر إزعاجا وإحباطا هو عدم القيام بتسجيل تاريخ فتح الملفات في الفهارس التي قام بتحضيرها موظفو الأرشيف. غير أن ذلك العيب قد تم تلافيه في الفهارس المحضرة مؤخرا.

وتحتوي أضابير CAIRINT (وهي اختصار كلمتي مخابرات القاهرة) CairoIntelligence على وثائق قسم مخابرات الجيش المصري، وهي المتعلقة بالمعلومات المخابراتية التي تم جمعها من السودان إلى تاريخ «استرداده» في عام ١٨٩٨م، وفي أثناء شهور تلك الحملة أيضا. ولا تخفى بالطبع أهمية تلك الوثائق للباحث في تاريخ المهدية. وهي مهمة أيضا لمن يبحث في شأن تاريخ السنوات الباكرة من الحكم الثنائي.

أما INTEL فهي فرع من مخابرات القاهرة وتتكون من وثائق مكتب مساعد مدير المخابرات والذي كان له فرع في الخرطوم. وتغطي تلك الوثائق فترة الخمسة وعشرين عاما الأولى من عمر الحكم الثنائي، وتتوقف عند منتصف العشرينيات، عندما تمت عملية إعادة تنظيم مكاتب المخابرات، وجمعت كثير من الوثائق تحت إدارة مكتب السكرتير الإداري. وتحوي تلك الوثائق على المجموعة الكاملة لتقارير المخابرات الشهرية، وكذلك على مكاتبات مكتب العمل، والذي أنشئ في عام ١٩٠٨م لتسجيل المسترقين الذين تم تحريرهم من نير العبودية، وللقيام بتنظيم عملية تبادل العمال قبل بدء الحرب العالمية الأولى.

وهنالك مجموعة أخرى من الوثائق مسجلة تحت اسم DAKHLIA (داخلية) كان مخزنة في وزارة الداخلية. وبما أن وزارة الداخلية كانت في الأصل هي مكتب

السكرتير الإداري، فليس من المستغرب أن تكون وثائق الداخلية تشابه الوثائق الموجودة تحت اسم CIVSEC (السكرتير الإداري). كذلك توجد تحت ذلك التصنيف وثائق أنثروبولوجية وتاريخية فيها كثير من المعلومات عن المجموعات السكانية المختلفة بالسودان.

أما الوثائق المصنفة تحت LANDS 1 و2 LANDS في تخص مصلحة الأراضي. ويبدأ تاريخها من سنوات الحكم الثنائي الأولى وإلى عام الاستقلال. وفيها تجد كل تصديقات الأراضي التي منحت في القرى والبوادي وطرق شرائها. وليس هنالك من منطق في تقسيم تلك الإضبارَة إلى جزء أول وثاني، فهما في الواقع سلسلة واحدة ممتدة ، غير أن الأول منهما كان هو الذي بدئ به!

أما الوثائق المضمنة تحت مسمى AGRICULTURE فهي تشبه وثائق الأراضي المذكورة أعلاه، وتضم أيضا وثائق عن مشروع القاش، وعن ورخص الطلمبات الزراعية، والعوائد المفروضة على المياه، وعددا آخر من وثائق مشروع القاش.

أما الوثائق المضمنة تحت مسمى FINANCE فهي خليط من أصناف مختلفة من الوثائق صدرت عن مكتب السكرتير المالي في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. وهنالك وثائق تحت مسمى FINANCE 1 وأخرى تحت مسمى FINANCE 2، وهنالك فرق جوهري في الأهمية بين النوعين. وكنت قد شاهدت شخصيا تلك الوثائق تنقل ذات يوم على شاحنة ضخمة من وزارة المالية لمقرها الحالي بدار الوثائق في أبريل من عام ١٩٨٢م. وأكتمل تصنيف تلك الوثائق وفهرستها في سبتمبر من عام ١٩٨٣م، وقت مغادرتي النهائية لدار الوثائق.

أما الوثائق المفهرسة تحت اسم DEPREPORTS فهي مجموعة كبيرة من الوثائق المفهرسة لتقارير الحكومة المركزية والتقارير السنوية لمختلف المصالح مثل الثروة الحيوانية والزراعة والتعليم والصحة والري والتجارة. ويبدأ تاريخ غالب تلك التقارير من منتصف الثلاثينيات وحتى خمسينيات القرن الماضي. وهنالك سلسلة متخصصة أخرى من الوثائق مصنفة تحت اسم REPORTS،

وهي تقارير للجان متخصصة مثل تقارير لجان مشاريع النيل. وهنالك وثائق مصنفة تحت اسمي «منشورات PUBLICATION» و«متنوعات MISCELLANOUS»ينبغي على المرء أن يجرب حظه وأن يطلع عليهما علّ وعسى أن يجد فيهما شيئا مفيدا (grab -bag)!

وعند النظر إلى وثائق المديريات، نجد أنها مقسمة إلى ١١ مجموعة. منها وثائق المديرية الشمالية (NORTHERN) وبها ثلاثة أضابير، وجلها تغطي الفترة بين عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي. وكانت المديرية الشمالية قد أنشئت في منتصف الثلاثينيات بعد أنتم ضم المديريات (القديمة) حلفا ودنقلا وبربر في مديرية واحدة اسمها «المديرية الشمالية». وبما أن الدامر قد اختيرت لتكون عاصمة لتلك المديرية (الجديدة) فلا غرو إن أتت غالب الوثائق عنها من مديرية بربر السابقة وليس وثائق حلفا ودنقلا، والتي لا يستبعد أن تكون وثائقهما القديمة مخبوءة في مكان ما بوادي حلفا أو مروي. ولاحظت، على وجه العموم، أنه كلما هبط الترتيب الإداري لمنطقة أو مدينة ما، كلما قلت الوثائق القديمة المحفوظة عنها.

أما وثائق الخرطوم (KHARTOUM) فهو يحوي كل المراسلات الرسمية للمديرية. غير أنه مكون من ملفين، اولهما لا يحتوي إلا على صفحات قليلة، وثانيهما ملف آخر به مئات الصفحات.

وتشمل وثائق بورتسودان PORTSUDANملفات مديرية البحر الأحمر، والتي كانت «إدارة بورتسودان – سواكن» جزءا منها في أواخر عشرينيات القرن العشرين. وبعض تلك الوثائق قديمة نسبيا ويعود تاريخها إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر حين كانت سواكن هي الموقع الحربي الوحيد الذي تسيطر عليه القوات المصرية – البريطانية. بينما كانت أغلب بقية الوثائق عن الفترة بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٣٠م (وينطبق ذات الشيء على وثائق كسلا KASSALA. المترجم).

أما أضخم مجموعات الوثائق فهي وثائق النيل الأزرق (BNP)، فهي تشمل كل ما ضم لتلك المديرية من مديريات كان اسمها في السابق مديريات الجزيرة

والفونج والنيل الأبيض. وتضم تلك الوثائق أيضا ملفات عن الدويم بين عامي ١٩٢٠ و١٩٥٠م، وأخرى صادرة من مكتب معتمد الجزيرة، وهو منصب أستحدث لمن كان يقوم على أمر انشاء مشروع الجزيرة في نهايات عشرينيات القرن العشرين.

أما وثائق كردفان (KORDOFAN)، فهي رديئة الفهرسة فيما يتعلق بوثائق ما قبل الحرب العالمية الثانية. وينطبق ذات الوصف على الوثائق الفرعية الخاصة بمدن الأبيض والنهود وبارا. غير أن وثائق دارفور (رغم عدم معرفتي اللصيقة بها) مكتملة تقريبا بحسب ما سمعت ممن استخدموا فهارسها.

وفي الفترة التي قضيتها في البحث بدار الوثائق كانت ساعات العمل تمتد من الثامنة صباحا وحتى الثانية ظهرا من السبت إلى الخميس. وكانت هنالك آلة وحيدة للتصوير تعمل أحيانا، وأخرى للمايكروفيلم تعمل من وقت لآخر. ويجب على الباحث هنا أن يدرك أن هنالك فرصا لتصوير المواد الموجودة في الدار، غير أنه من الخطأ أن يتوهم الباحث أن بمقدوره القيام بذلك فعليا، إذ أن السماح بذلك يعتمد بالطبع على موافقة المدير.

دار وثائق مشروع الجزيرة في بركات

توجد وثائق مشروع الجزيرة في مركز المشروع في بركات بالقرب من واد مدني. وهي تحتوى على كل ما له علاقة بتاريخ المشروع وجميع مراسلاتمشروع المزارع السودانية SudanPlantationsSyndicate والتي كانت تدير مشروع الجزيرة قبل عام ١٩٥٠م. ويقوم على دار وثائق مشروع الجزيرة الآن عبد المتعال حسين الدالي، والذي وجدته رجلا شهما هميما لا يضن على أحد بوقت أو عون. وكان السيد دالي هو أول من عبر لي عن أسفه للنقص الواضح في فهرسة أرشيف الوثائق. فالفهرس لا يغطي إلا جزءا صغيرا من الوثائق الكثيرة الموجودة. ولا يمكن بالطبع الاستفادة البحثية من كل ذلك الكم الهائل من الوثائق غير المصنفة أو المفهرسة. وكنت مهتمة بالحصول على أسماء أبكار المزارعين الذين بدأوا العمل في مشروع الجزيرة. وبعد جهد جهيد وعون مقدر من مدير الدار عثرنا على

نحو ثلاثين ملفا (بها أوراق غير مثبتة loose -leaf) فيها كل المكاتبات الخاصة بتخصيص حواشات لعدد من المزارعين في بدايات المشروع. وفي ظني أن كثيرا من الباحثين سيوفقون هنا في الحصول على وثائق مهمة كثيرة إن كانت لديهم أفكارا بحثية محددة. وتفتح هذه الدار أبوابها في حوالي الساعة السابعة والنصف وتغلقها عند الواحدة والنصف ظهرا يوميا من السبت إلى الخميس. ولا توجد بالدار آلة للتصوير، غير أني علمت أنه يمكن لأي باحث عمل مايكروفيلم شخصي، رغم أني لم أستقصى تفاصيل تلك النقطة تحديدا.

السكن والترحيل

يجدر لي قبل اختتام هذا المقال أن أذكر شيئا عن سكني بالخرطوم.

تقع دار الوثائق في موقع استراتيجي بشارع الجمهورية، في منتصف المنطقة بين جامعة الخرطوم ومركز المدينة (انتقلت الدار في ديسمبر ٢٠٠٦م لموقع جديد في شارع السيد عبد الرحمن. المترجم)، وبذا كانت الدار على مسافة قريبة نسبيا (يمكن قطعها مشيا بالأقدام) من أماكن السكن التي كانت متوفرة لي. ولقضاء أيام قليلة يمكن للباحث (الأجنبي) السكن في فندق الشرق أو آسيا (وسكن فيهما بالفعل بعض من عملوا بدار الوثائق)، وأسعارهما معقولة جدا. غير أنه يحسن بمن يرغب في العمل البحثي بالدار لعدة شهور أن يدبر مع عميد الدراسات العليا بجامعة الخرطوم أمر العثور على غرفة خالية من غرف الطلاب أو الأساتذة. وكنت أنا من المحظوظات اللواتي ظفرن بسكن في داخليات الطالبات، وهي بالطبع أرخص من أي فندق بالمدينة.

وليس ببركات مبلغ علمي أي فنادق، غير أنه توجد في واد مدني فنادق معقولة منها فندق كونتيننتال Continental (أو «الكوتنتيتل» عند بعضهم! المترجم). وبركات هي على بعد مسافة قصيرة من واد مدني يقطعها «بوكسي التويوتا» في دقائق قليلة.

مذكرات عن رحلة إلى كردفان

Notes on a Journey to Kordofan

آرثر توود هولرويد Arthur T. Holroyd

مقدمة: هذه ترجمة لبعض ما جاء فيمقال طويل نشر في العدد التاسع من مجلة الجمعية الملكية الجغرافية في عددها التاسع الصادر بلندن عام ١٨٣٩م عن رحلة لكردفان قام بها البريطاني آرثر توود هولرويد بين عامي ١٨٣٦ – ١٨٣٧م.

ولد كاتب المقال بلندن في ديسمبر من عام ١٨٠٦م لعائلة ثرية، وتلقى تعليمه العام في مدارس خاصة، ثم درس الطب في أدنبرا، وتخرج طبيبا في عام ١٨٣٠م. ثم واصل دراسته في جامعة كمبردج وتخرج فيها عام ١٨٣٢م. ومارس مهنة الطب حينا من الدهر، ونال في ذات الوقت عضوية عدد من الجمعيات الطبية والعلمية (مثل جمعية علم الحيوان بلندن والجمعية العلمية LinneanSociety). ولما لم يجد في مهنة الطب ما يرضي طموحه آثر أن يهاجر لروما لتعلم اللغة الإيطالية، ثم غادرها لمصر لتعلم العربية ولاستكشاف المنطقة جنوب الشلال الثاني. وأفلح في عبور صحراء بيوضة (وكان أول أوربي يفعل لك) والوصول إلى الخرطوم ثم كردفان. وهو يعتبر أول رجل إنجليزي يطأ أرض كردفان ويسجل ملاحظاته عنها، خاصة ما شاهده فيها من أهوال تجارة الرقيق بها، وقام بلفت نظر محمد علي باشا لشناعة ممارساتها. ثم غادر السودان متجها لسيناء وفلسطين. وعاد إلى لندن عام ١٨٤١م لممارسة مهنة القانون هذه المرة. وبعد ذلك هاجر إلى نيوزيلندا وأستراليا حيث قضى بقية حياته ممارسا مهنة المحاماة. وفي تلك

السنوت نشر كتابا عن السودان بعنوان SuakimandtheCountryofSoudan (كتبت سواكن هكذا! المترجم). وتوفي الرجل بأستراليا عام ١٨٨٧م.(يمكن قراءة المزيد عن حياة هذا الرحالة فيما سجله المؤرخ البريطاني تي هولت عنه في قاموس الشخصيات في أستراليا).

أشكر كل من ساهم في ترجمة بعض اسماء القرى التي ذكرها الكاتب (غالبا بطريقة خاطئة) وبعض تلك القرى ما زال قَائما وبعضها حَصِيدٌ. وأخص بالشكر هنا الأخ الدكتور خالد فرح.

المترجم

**** **** ****

لم أقرر الدخول إليأرض السودان (بلاد السود) حتى وصلت إلى وادي حلفا بقرب الشلال الثاني على النيل في خط عرض ٢٢ درجة شمالا. ولم أكن أتصور أني سأواصل المسير حتى أطلال المصورات بالقرب من شندي، ثم الخرطوم (عاصمة الحكم التركي لمديريات ما وراء الشلال الثاني) على أقصى تقدير. ولكن شاءت الأقدار أن أبلغ سنار ثم أواصل مسيرتي غربا إلى الأبيض عاصمة كردفان (أشار الكاتب في الحاشية إلى أن مؤرخا ذكر أن اسم تلك المدينة ينطق ويكتب هكذا اللبيض L'obeyet، وقال إنها تعنى العبيد أي «العبد الصغير thelittleslave»، وهذا بالطبع ليس بصحيح، إذ المعروف – كما أفادني خبير بالمنطقة وتاريخها- هو أن الأبيض مشتقة من صفة حمار أبيض صغير « ابيّض ». المترجم).

وفي أصيل يوم ٥/ ١٢/ ١٨٣٦م غادرنا وادي حلفا على ظهور جمال (ابتعناها بمبلغ ٣٥ قرشا لكل جمل) برفقة مترجمي الحاج سليمان، وخادمي علي. وعبرنا النيل لنسلك من بعد ذلك الطريق إلى دنقلا الجديدة (دنقلا). ومررنا بقرى عديدة منها أبو سر وتاهتى وكاجمي وسمنا وعسكور وملك النصر وأكمة، وكلها قرى صغيرة ليس فيها غير قليل من الأكواخ. ووجدنا على مقربة من قرية أكمة نبعا حارا

لا يبعد كثيرا عن النهر.وفي ذلك النبع الحار وجدنا بقايا آثار غرفة رباعية الشكل مبنية من الطوب المحروق، وليس لها باب أو نافذة ولكن بها فتحة من الأعلى كادت أن تسدها الرمال الآن. ولا ريب عندي أن تلك الغرفة كانت تستخدم حماما عاما.

ومضينا في طريقنا من أكمةعبر دال وساقية العبت وديار حمد وصدينقا ودوش وصولب وكويه وتانيرا والقرقود وسيسا وماركول وحنك والحفير إلى أن وصلنا دنقلا الجديدة (وتسمى بالتركية «العرضي») في منتصف نهار يوم ٢٢ / ١٢ / ١٨٣٦م. وقد اكتسبت دنقلا أهمية كبيرة في السنوات الاثني عشر الماضية، ويقدر عدد سكانها الآن بستة آلاف نسمة، منهم ٨٠٠ من الجنود مع زوجاتهم وعائلاتهم، مع مائة من الأقباط. وسوق دنقلا عامر بالبضائع المجلوبة من مصر مثل الأحذية والأقمشة المطبوعة والمشجرة والسكر والأرز والخردوات (hardware) وغيرها، إلا أن اسعار البضائع فيه يماثل أربعة أضعاف سعرها في مصر بسبب الجمارك العالية المفروضة عليها. وتمتاز دنقلا بجودة قهوتها، فهي في الواقع «مقهى كبير Coffeehouse» ويقام بها الآن مصنع لثياب الزراق. وجوها حار. ففي يوم عيد الفصح بلغت درجة الحرارة فيها ٨٦ درجة فهرنهايت نهارا، و٨٠ درجة فهرنهايت ليلا (٣٠ و٢٧ درجة مئوية، على التوالي). واستأجرنا مركبا في ٣١/ ٢/ ١٨٣٦م لعبور النهر للوصول لدنقلا القديمة، والتي وصلناها يوم ٣/ ١/ ١٨٣٧م. ولم نجد فيها غير أطلالها ومسجدا قائما وعدد سكان لا يتجاوز ٣٠٠ فردا. ولم نر أي أثر لزراعة أو خضرة بين دنقلا الجديدة والقديمة، إذ أن الرمال الصفراء كانت تغطي كل شيء تقريبا.

ولم نمر في رحلتنا بعد ذلك بأي مكان يجدر ذكره هنا غير أم بكول والتي وصلناها في الثامن من يناير. وعلى بعد ثمانية أميال غرب تلك القرية عثرنا في منطقة يسمونها Haagbarlak على أشجار أحفورية fossiltrees يبدو أنها كانت لشجار الدوم. وفي أمبكول أصبت بالحمى، فلزمت مكاني حتى برئت قليلا. ثم

غادرتها في ٢٤ / ١ تحت درجة حرارة بلغت ٧٠ درجة فهرنهايت (٢٤ درجة مئوية) متجها إلى صحراء بيوضة (وسميت بذلك لشدة بياض رمالها) بهدف الوصول للخرطوم. ولم يسبق – مبلغ علمي- لأي أوربي أن قطع تلك الصحراء بالجمال. وكانت المسافة التي قطعتها في يومي الأول (كما هي العادة في الشرق) قليلة نسبيا، إذ لم أسر غير ٢.٧٥ ساعة فحسب، خلدنا بعدها للنوم. في مكان يسميه العرب «برج القرآن».

وفي يوم ٢٥/ ١ مضينا في رحلتنا لمدة سبع ساعات ونصف الساعة دون توقف، وأنخنا ليلتنا في خور الغانم. وفي اليوم التالي مضينا في رحلتنا لمدة تسع ساعات إلى أن وصلنا أبو صمود.

وفي يوم ٢٧/ ١ بلغنا آبار صحراء بيوضة، والتي غارت مياه معظمها، ولم نعثر على ماء إلا في ثلاثة من تلك الآبار، وكانت كميته قليلة رغم أنه كان جيد النوعية وصافي اللون بعكس حال الماء الذي جلبناه معنا من النيل والذي كان قد صار آسنا ومقرفا. وتأخرنا كثيرا في تلك الآبار لأن العرب كان قد سبقونا في الوصول إليها، واستغرقت عملية نزعهم للماء من الآبار لسقاية بهائمهم وقتا طويلا، وكان علينا الانتظار لساعات عديدة.

وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف فارقنا الصحراء في يوم ٣١ يناير ووصلنا للنيل بين جبلين: جبل الحجر على يميننا (وارتفاعه ١٥٠ قدما) وجبل الرويان على يسارنا (والواقع في جزيرة تحمل ذات الاسم ويبلغ ارتفاعه ٢٥٠ قدما).

لقد قطعت صحراء بيوضة تلك في سبعة أيام (وكان يمكن أن أقطعها في ستة أيام)، فهي أرض سهلة منبسطة ليس فيها غير الرمال والحصى وكثير من النباتات العشبية وأشجار السنط. وبها أيضا عدد من الحيوانات المثيرة للانتباه من الناحية العلمية مثل الفهد والمارية (نوع من البقر الوحشي) والغزال. ويسكنها عدد قليل من البشر كلهم من عرب الكبابيش. ومضينا في طريقنا لساعتين ونصف قبل أن

نصل إلى جاكجوك (Jagjoke) والتي قضينا بها الليل.

وفي صباح اليوم التالي (الأول من فبراير) تحركنا نحو كرري والتي بلغناها بعد ثمان ساعات وأربعين دقيقة. وفي اليوم التالي، وبعد مسيرة أربع ساعات بلغنا شاطئ النيل الأبيض، ومنه مضينا نحو الخرطوم ووصلناها في أقل من ساعة.

لقد جاء في العدد الثاني من مجلة الجمعية الملكية الجغرافية أن إحداثيات الخرطوم (حيث يلتقي بحر أبيض (النيل الأبيض) مع بحر أزرق (النيل الأزرق) هي خط عرض ٣٤ ١٥ شمالا، وخط طول ٣٠ ٣٢ شرقا. وهذه الأرقام تختلف قليلا عنما أتى به نفس كاتب ذلك المقال من قبل حين ذكر أن إحداثياتها هي خط عرض ٤٠ ٣٤ ١٥ شمالا، وخط طول ٢٥ ١١ ٣٢ شرقا.

تقع الخرطوم (theProboscis) على الشاطئ الغربي للنيل الأزرق، وعلى بعد ميل ونصف من اقترانه بالنيل الأبيض. وهي مركز حكومة بلاد السودان، والتي يرأسها الآن خورشيد باشا. وكانت مجرد قرية صغيرة عندما سيطر محمد علي باشا على البلاد، ولكنها نمت مع مرور السنوات وتزايدت أهميتها على حساب شندي وسنار. وهي تعد الآن مركزا للتجارة بمختلف أنواعها، فهي ملتقى طرق ملائم لقوافل تجارة الرقيق القادمة من الحبشة وسنار وكردفان. ويبلغ عدد سكان الخرطوم الآن ١٥٠٠٠ نسمة، منهم ١٦٠٠ من الجنود مع عائلاتهم. وبني جزء من المدينة على نحو منظم مرتب. وكثير من المنازل الكبيرة فيها منعزلة وبها حدائق. وهي مبينة في غالبها بالطوب المحروق. وللحاكم خورشيد باشا قصر عادي لا يميزه شيء. وبالمدينة سوق (بازار) صغير محدود وغير منتظم، وعندما لا يكون الجنود بالمدينة يفرغ غالب السوق من البضائع. وأكثر البضائع استهلاكا في المدينة هي الأحذية والأقمشة الملونة والمشجرة والسكر والأرز وأحزمة المسدسات والسروج والشاي وقمر الدين والمشمش المجفف والخردوات المختلفة. ويتم التعامل في تجارة الرقيق في السوق بمزادات علنية وبعقود خاصة

كذلك. وبقرب السوق تجد سوقا للخضروات والفواكه يباع فيه أيضا الخبز وقصب السكر والسمن والتمر والحبوب والقش ودهن للشعر الخ الخ. وتوجد في السوق أيضا منصة الإعدام شنقا لمن يحكم عليهم من المجرمين تسع لثلاثة أشخاص.

وتعد التربة التي أقيمت عليها مدينة الخرطوم تربة غرينية (alluvialsoil) غنية مثلها مثل التربة المترسبة حول النيل. وأرضها منبسطة وتخلو من الأشجار. وأعتقد أن النيل يفيض هنا بعلو يبلغ عشرين قدما. والحرارة هنا مرتفعة. فهي لم تقل في شهري هذا (فبراير) عن ٧٠ درجة فهرنهايت، وبلغت في يوم ١٠/ ٢ تسعين درجة فهرنهايت.

وفي يوم ١١/ ٢ قمت، وبفضل مركب جيد وفره لي الحكمدار خورشيد باشا، برحلة نيلية على النيل الأزرق أوصلتني إلى أبو حراز (AbuKharraz) على شاطئ النيل الأزرق الشرقي، وحيث يلتقي ذلك النهر مع الرهد، أحد فروعه. وأبو حراز قرية صغيرة بها نحو ٣٠٠ من جنود سلاح الفرسان المغاربة. وبنيت غالب بيوت القرية من القش على نحو دائري فيما عدا قليل جدا من البيوت بنيت بالطوب الطيني يسكن في أكبرهما الكاشف (حاكم البلدة). وبالقرية سوق متواضع الحجم وبه بضائع من نوع أردأ مما هو في الخرطوم. وفي نفس اليوم عبرت للضفة الأخرى للنيل الأزرق إلى واد مدني، وبعد مسيرة ساعة وصلت للمركز الحربي بها، وكان به نحو ٨٠٠ من الجنود. وفي وداي مدني وجدت سوقا يقام يوميا، وهو سوق صغير لا تتوفر فيه إلا بعض البضائع الرديئة.

وبالقرب من واد مدني يوجد سوقان كبيران يقامان مرة كل أسبوع، أحدهما شمال المدينة في سليمة، والآخر إلى الجنوب الغربي منها في قرية السوريبة، والتي تبعد بنحو ستة أميال عن النيل الأزرق. وتزرع حول القرية بعض المساحات بالذرة والدخن بعد موسم الخريف، وتترك غالب الأراضي دون زراعة رغما عن

جودة التربة في هذه المنطقة، ربما لقلة رأس المال أو اليد العاملة. وذهبت لتفقد سوق السوريبة في يوم ١٦/ ٢ فوجدته مكتظا بالبضائع وبالمشترين (وكانوا من البدو) ويبدو أنه أفضل من السوق بأب حراز ووواد مدني.

وفي الساعة الرابعة عصرا من يوم ١٧/ ٢ غادرت واد مدني متجها إلى سنار. وأرسيت مركبي في منطقة قريبة منها في أحد ثكنات الجيش. وهنالك توافد علي كثير من التجار وهم يعرضون بضاعتهم آملين في أن أشتري بعضها على الأقل. وشملت تلك البضائع حصائر وسجادات جميلة الشكل، وأطباق منسوجة من القش المصبوغ (طباقة) وبعض المنحوتات المصنوعة من خشب وثمر الدوم، وسكاكين وحراب، ومصنوعات يدوية مزركشة توضع عليها أكواب القهوة (zerfs) و«وقايات الجبنة»، وأخيرا بعض التمائم و«الحجبات» للحماية من كافة أنواع الأمراض والعوارض، ومن فكوك التماسيح أيضا!

ووجدت في سوق سنار (اليومي) أماكن لبيع اللحوم والتبغ والدهون والذرة وأنواعا من الخمور مثل البلبل (Bilbil) والمريسة. وفي قرية تقع جنوب سنار، وعلى بعد ميل ونصف منها، اسمها كاديرو، يقام أيضا سوق عامر بالناس والبضائع كل يومي أثنين وخميس يشهدهما كثير من الخلق من داخل وخارج سنار. ويوجد بالقرب من سوق سنار مسجد كان يلاصق قصر السلطان (ولم يعد ذلك القصر موجودا الآن). وبالقرب من ذات المكان يوجد مقهى يرتاده ضباط الجيش وعلية القوم.

والغالبية العظمى من سكان سنار من ذوي البشرة البنية الداكنة. والنساء أفتح ألوانا من الرجال، وأفراد الجنسين على درجة كبيرة من الوسامة. ويرتدي الرجال سراويل وقمصان (عراريق) تصل إلى الأَعْقَابِ، أو قطعة قماش يلفها الرجل حول وسطه أولا ثم يربطها، ثم يضع باقيها مفكوكة فوق كتفه. ويضع كثير منهم سبح خشبية سوداء حول أعناقهم. ويحمل بعضهم محفظة (جزلان) تتدلى من العنق،

ويضع الواحد منهم وتمائم و«حجبات» حول عَضُده اليمين، ومدية حول اليسرى. ويدع الرجال شعر رؤوسهم ينمو ويطول، ولا يضعون على رُءوسهم الطواقي البيضاء (المعتادة في الخرطوم).

أما النساء في سنار فيرتدين قطعة قماش قطنية حول أجسادهن، ثم يلقين بباقي قطعة الثوب على الكتف. وقد يغطين رؤوسهن بذلك الثوب أيضا. ولا ترتدي الفتيات العُزْب ولا الإماء غير «الرحط». وتقوم النساء بتمشيط شعر رؤوسهن على هيئة ضفائر في سماكة أذيال الجرذان. وتسبق عملية «المشاط» تنظيف الشعر من الطفيليات الخارجية التي تكثر في هذه المناطق. وتتم تلك المجزرة الحشرية مرة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. بعدها ينقض الشعر ويمشط وتوضع فوقه ثلاثة أو أربعة أرطال من شحم الغنم أو الإبل. وتضع المرأة السنارية في عنقها ويديها عددا كبيرا من التمائم والسلاسل والأساور الفضية، وختما من الأبنوس أو قرون الحيوانات. وتضع بعضهن خاتما أو خرزة في فتحة يصنعنها في فتحة الأنف اليمنى. وتقص النساء أظافر أيديهن اليمنى، ولكنهن يدعن أظافر أيديهن اليسرى طويلة بصورة كبيرة، ربما تصل لأكثر من بوصة بعد طرف الأصبع. ويشابه هذا ما تفعله النساء والنبلاء في الصين.

وللرجال والنساء في منطقة سنار أسنان جيدة. ولثاتهم عادة ما تكون سوداء أو بنية داكنة، ربما نسبة لاختلاطهم بالزنوج. وكان من المعتاد أن يكون في بيوت أفراد الطبقات الفقيرة واحدا أو أثنين من الرقيق.

وأعد المنطقة حول سنار كنزا ضخما بالنسبة لعالم الأحياء والطبيعة، فهي تحوي عددا هائلا من مختلف أنواع الحيوانات الوحشية (مثل الأفيال وفرس البحر والتماسيح) والطيور (مثل الصقور واللقالق والدجاج المزركش والبط والوز)، خاصة في فصل الخريف، وعندما يحين وقت حصاد الذرة.

وفي الخامسة من صباح يوم ٢/ ٣ عدت عن طريق النيل الأزرق إلى واد مدني،

والتي وصلتها في العاشرة من صباح يوم ٣/٥. وفي عصر يوم ٣/٩ غادرت واد مدني متجها إلى منقرة بقرب واد شلعي على النيل الأبيض. وفي العاشر من مارس وبعد مسيرة ساعتين بلغت هجليج، وبعدها إلى أبوت (ربما كان المقصود هو «عبود» المترجم). وفي يوم ٣/١١ وصلت لقرية المناقل حيث تناولت وجبة مكونة من الحليب الرائب والفطائر والعسل مع قائمقام/ حاكم القرية (وهو جندي تركي). وبالمناقل سوق أسبوعي يقام كل يوم أحد، وهو أفضل من كل الأسواق المقامة في المنطقة. والماء بالمناقل به طعم حديدي ولكنه مقبول. وبعد مسيرة خمس ساعات من المناقل بلغنا قرية الفكركير؟، حيث وجدنا مياه الآبار بها جيدة الطعم. وبعد تلك القرية وصلنا إلى أم دغت، والتي وجدنا ماء الشرب فيها عكرا.

(ذكر الكاتب بعد ذلك عددا كبيرا من القرى التي مر بها، ولم يشر فيها لغير جودة أو رداءة الماء بها. المترجم).

لاحظت أن الأراضي الشاسعة بين أبوت/ عبود والمناقل غير مزروعة. وأعتقد جازما بأن هذه ستكون أرضا خصبة تصلح لإقامة مشروع زراعي كبير إن وجدت من يعمل عليها وتوفر لها الري الكافي. وأعتقد أن شق قناة من وادي مدني للمناقل سيوفر الري المطلوب، وبسهولة، لزراعة البقوليات والقطن والتبغ والسكر والحبوب. كذلك يمكن جمع مياه الأمطار في الخريف واستخدام مياه الآبار. غير أن كل ذلك قد لا يكفي لري تلك الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة.

وتذخر المنطقة بين المناقل وواد مدني بغطاء نباتي من أشجار الأكيشيا (acacia) ذات الشوك. وتوجد بمنطقة منقرة العديد من الأشجار التي يمكن استخدامها في صنع الأخشاب. وبالفعل أقامت الحكومة بالمنطقة مركزا لصنع القوارب الخشبية. وكذلك تكثر الأخشاب بقرب الليس (وهي الاسم القديم

للكوة. المترجم) وفي مناطق الشلك. وفيها يتم بناء القوارب بمعدل ثلاثين قاربا في العام الواحد. ويعمل في مناشير الخشب وبناء تلك القوارب نحو مائة من المساجين، ولاحظت أنهم كانوا من المسترقين الزنوج.

وينبغي على الزائر لهذه المناطق عدم تعريض جلده لأشعة الشمس، وإلا فسيصاب بتورم والتهاب مؤلمين. ولقد كنت متهورا بعض الشيء عند ترحالي في منطقة المناقل بتركي لساقي دون غطاء وأنا على ظهر دابتي. فقد أصبت بتورم وآلام فظيعة أقعدتني لعدة أيام في فراش المرض قبل بدء رحلتي لكردفان.

وفي صبيحة الخامس عشر من شهر مارس قمت من منقلة إلى كاجبي، وهي مستوطنة صغيرة للعرب الحسانية (والذين لم أر لهم مستوطنة من قبل إلا في منطقة غرب بربر)، وجدنا فيها خيام سليمان كاشف، والذي كان يجمع الضرائب والعشور في هذه الأنحاء. وفي غضون أيامي في كاجبي بلغت حرارة الجو في داخل خيمتي ١١٢ درجة فهرنهايت (تعادل ٤٤.٤ درجة مئوية). والحسانية قوم لطفاء وألوانهم أفتح قليلا من سكان سنار، وألوان نسائهم أفتح من رجالهم. وهم اجتماعيون ومرحون ولهم حيوية عالية. وتجيد النسوة عندهم الرقص على أنغام الغناء والتصفيق.

وفي تلك الأيام أيضا حضرت للمنطقة جماعة من قبيلة الشلك كانوا في طريقهم للخرطوم لمقابلة الحكمدار خورشيد باشا والتفاهم معه حول شروطه للصلح، وضمان عدم تعدي جنوده على مناطقهم وأخذهم كمسترقين، واسترداد الأراضي والممتلكات التي سلبهم إياها جنود الخديوي. وكان زعيمهم يرتدي قميصا أزرقا من النوع الذي يرتديه فلاحو مصر. وعلمت فيما بعد أن الحكمدار وقع معهم معاهدة كان من أهم بنودها ضم كامل أراضي الشلك تحت إمرة خديوي مصر.

والشلك قوم رائعون وطوال القامة (لا يقل الرجل منهم عن ستة أقدام). غير

أن أجسادهم خلقت بصورة خرقاء (clumsy) يعوزها الصقل، إذ أن رجلي الواحد منهم قصيرة بالنسبة لباقي جسمه. ويحلق بعضهم شعر رأسه، ويتركه البعض الآخر طويلا. وشعر رؤوسهم مجعد ويشبه الصوف. وطلعتهم وحشية قاسية، وعظمتا وجنتي الواحد منهم عالية، وأنفه ضيق عند الجذر وواسع فَطِسَ عند فتحي المنخرين. ويقومون (مثلهم مثل الدينكا) باقتلاع قواطع الفك السفلي. وليس عندهم من سلاح خلا العصي والحراب والدروع بدائية الشكل. وكان بعضهم يضع حلقة من العاج حول عضده الأيمن. غير أن أميرهم كان يميز نفسه عنهم بوضع حلقتين من الفضة في معصم يده اليسرى. وهم يحبون التدخين ولكن بغير إفراط. وقد أمتعونا ذات ليلة بغنائهم الجماعي والذي أدوه بصورة محببة، وحافظوا فيه على الزمن ونظم الايقاع بصورة ممتازة. والشلك يجيدون أيضا بعض أنواع الرياضة وقتل التماسيح وأفراس النهر بذات الحراب التي يحملونها للدفاع عن النفس.

وفي صباح يوم ٢٢ مارس الباكر بدأت رحلتي من كجيبي لكردفان عبر صحراء Habshabeh وفي تلك الرحلة ضل دليلنا الطريق وأخذنا في اتجاه الجنوب الغربي إلى طرة، والتي وصلناها عند الساعة السادسة والنصف. ولاحظت آثار أقدام أفراس النهر. في أماكن عديدة في مسار الطريق الرملي. وربما كانت تلك الحيوانات قد أتت عبر الجداول الضحلة والتي تجف في مثل هذا الوقت من العام. وكانت طرة قرية مكونة من عدد من قطاطي القش وبها أربعة آبار جيدة الماء. وفي المساء اتجهنا غربا نحو «أبو قرض» حيث قضيت الليل. استغرقت رحلتي اليوم ثمان ساعات ونصف.

ووصلت لأبي قرض في صبيحة اليوم التالي قافلة لأبي مدين الأخ غير الشقيق لسلطان دارفور، والذي كان في طريقه للخرطوم، ويأمل (بعد حصوله على موافقة الحكمدار خورشيد باشا) على السفر لمصر ومقابلة محمد علي باشا ومحاولة

إقناعه بتزويده بجنود وعتاد للانقلاب على أخيه السلطان وجعل دارفور إحدى توابع خديوي مصر. وكان أحد معارفي من علية القوم في الخرطوم قد أعطاني رسالة تقديم لذلك الأمير الأسود، ولم أضع وقتا للقائه في ديوانه. كان شابا في نحو الخامسة والعشرين من العمر، شديد سواد البشرة، قصير القامة، ويميل إلى البدانة، وعلى وجهه سيماء الصراحة والحذق والظرف، وصفات أخرى قلما تجدها عند الرجل الزنجي. وعلمت من الأمير أن أخيه السلطان كان يأمر بالقبض على أي أوربي يدخل لمملكته ويتهمه بالتجسس على مملكته وجمع معلومات قد يستفيد منها جيش أو جيوش غازية تطيح بحكمه. وأخبرني الأمير أيضا بأن من يأسره السلطان من الأوربيين كان يعامل معاملة طيبة فيوضع في بيت مريح فيه خدم وحشم وحريم وخيول، ولكن لا يسمح له بالخروج من الدار إلا مخفورا بحارس.

ويقيم السلطان بالفاشر، والتي تسمى أيضا تندلتي، وله جيش مزود بالسيوف والحراب والدروع، ولكنهم لا يمتلكون أي أسلحة نارية. وكل سكان دارفور (ودار مرة التي تقع جنوبها) هم من المحمديين.

وأخبرني أبو مدين بأن المسافة من الأبيض (عاصمة كردفان) إلى الفاشر هي مسيرة ثلاثة عشر يوما بالجمال، ومن كوبي إلى كبكابية مسيرة ثلاثة أيام، ومن كوبي إلى الدبة (المقابلة تقريبا لدنقلا العجوز) خمسة وعشرين يوما.

وفي المساء واصلت في رحلتي في اتجاه الجنوب الغربي، وبلغت بعد ثلاثة ساعات قرية العدير، وكان الماء فيها عكِرًا مالحا بعض الشيء، بعكس ما كان عليه ماء الشرب في أبي قرض.

وفي صباح يوم ٢٤/٣ الباكر استأنفت رحلتي وسرت لخمس ساعات ونصف لأصل إلى شجرة منعزلة، بين العدير والهشابة. ومن تلك النقطة سرت لنحو ساعتين قبل أن أبلغ جبل الشاور(والذي يبلغ ارتفاعه ٢٥٠ قدما).

وفي ٢٦ مارس وصلت للكويمات (في الأصل ElKowermat)حيث وجدت مائها جيد النوعية. وقابلت هنا رجلين من برنو في طريقهما للحج عن طريق دارفور وكردفان، وذكرا لي أنهما بدأ رحلتهما قبل سنة كاملة. ولم يقدما لي الكثير من المعلومات عن بلدهما غير أنها تقع على نهر اسمه شاري (Sha'ri) وأن سلطانهما الحالي اسمه محمد.

وفي اليوم التالي (٢٧/ ٣) وصلنا إلى قرية الدومة، وقد نال التعب من جمالنا وبغالنا غايته، فأقمنا فيها باقي ذلك اليوم بأكمله. ولم نجد في كل الأراضي بين الكويمات والدومة غير الرمال، وقليل جدا من الأراضي القابلة للاستزراع. ولا يزرع السكان هنا غير الدخن، والذي يبدو أنه يمكن أن ينمو جيدا في التربة الرملية. ووجدت كل السكان في القرى التي مررت عليها من غير المتعلمين، ويحمل بعضهم أفكارا غاية في التخلف. فعلى سبيل المثال سألني أحد الصبية في الدومة: كم يوما في الساعة الواحدة؟

وبدأنا رحلتنا في صباح اليوم التالي (٢٨/ ٣) باكرا، وبعد مسيرة أربع ساعات بلغنا قرية ود الزاكي. ومنها اشتريت خروفا ذبحته لنطعم منه. ولاحظت أن من معنا من عرب الحسانية قاموا بالتهام كرش وأمعاء الخروف وهي نيئة. ولما سألتهم إن كانت تلك هي عادة العرب أجابوا بأنهم لم يأكلوا مثل تلك «المطايب» الشهية (delicacies) من قبل. ولاحظت أن الدخن يزرع بكميات كبيرة في منطقة «ود الزاكي»، وتوجد فيها أيضا كمية كبيرة من معدن الحديد، على بعد ٣ – ٦ أقدام تحت سطح التربة. ويعمل كثير من السكان هنا في استخراج الحديد لحسابهم الخاص، ويبعثون به للأبيض، أو حيث تبنى القوارب والبواخر في منقرة. والماء في ود الزاكي جيد النوعية.

وفي يوم ٢٩/ ٣ وصلنا لقرية خُرسي وهي أكبر قرية تقع بين النيل الأبيض ومدينة الأبيض، ويبلغ عدد سكانها نحو ٥٠٠ نسمة، وبها كاشف (مسئول حكومي) وشيخ وبعض الجنود. وبالقرية سوق يقام يوميا، ولكنه لا ينشط إلا في

يومي الاثنين والخميس حين يرتـاده عـرب وبـدو المنـاطق المجـاورة. وتنـتج المنطقة بين ود الزاكي وخُرسي الكثير من الـدخن، ومـاء آبارهـا جيـدة النوعيـة. وغادرت خُرسي عند العصر وأنا محمل بالماء، فالطريق إلى الأبيض مـن خُرسـي يخلو تماما من الآبار.

والأبيض هي عاصمة كردفان، وعدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠٠٠ نسمة (بعـد أن زاد عددهم بنحو ١٨٠٠٠ فردا منذ عام ١٨٢٨م). وتمددت المدينة لنحو ميلـين من الشمال للجنوب، ولميل واحد من الرق للغرب. وبيوت الأبيض قطاطي مبنية بـالقش أو قصـب الـدخن. والبيـوت الوحيـدة التـي بنيـت في المدينـة بـالطوب المحروق هي بيوت الحاكم محمد بيـه، وسـليم الكاشـف، والقائـد العسـكري، وبعض الأوربيين الذين يعملون في خدمة الباشا.

وينتمي سكان الأبيض لعدد مـن القبائـل. فـأغلبهم مـن الكنجـارة مـن أتبـاع السلطان فضل، وبعضهم من المسبعات التابعين لسلطان كردفان السـابق هاشـم، ومن الفونج أتباع السلطان إدريس بن أدهم (المعـروف بـالفنجراوي، مـن جبـل فنجي)، وأتى بعضهم من قبائل في دنقلا.

ولا يلزم للرجل في كردفان أن يتـزوج امـرأة مـن كردفـان (والعكـس صـحيح أيضا). وجرت العادة عند كثير من القبائل العربية ألا يسمح للرجـل بـالزواج مـن نساء قبيلته إن كان قد تزوج من قبل من غير قبيلته وماتت تلك الزوجـة «الغريبـة» أو طلقها. ولكن لا تمارس كثير من القبائل في كردفان تلك العادة.

خضعت كردفان لحكم محمد علي باشا قبل نحو ستة عشر عاما، وكانـت قبـل ذلك تحت سيادة سلطان دارفور إلى أن استولى عليها الـدفتردار بيـه مـن حاكمهـا الطواشي مسلم (دخل الدفتردار مدينة الأبيض في شهر إبريل من عام ١٨٢١م دون مقاومة بعد أن خرج حاكمها لبارا، وفيهـا جـرت معركـة يـوم ١٦ أبريـل ١٨٢١م انتهت بانتصار الدفتردار، واستيلائه على كردفان قبل سنار. المترجم).

ويقام في الأبيض سوق في الرابعة من عصر كل يوم تباع فيه البضائع من كل صنف مثل الدهن والماء (والذي يباع بسعر مرتفع خاصة في شهري أبريل ومايو، أي قبل هطول الأمطار). وتستخدم في ذلك السوق عدد من العملات الأجنبية مثل عملة الباشا (المصرية / التركية) والدولار الإسباني وجنيه الذهب الإنجليزي. وبما أن البضائع كانت رخيصة نسبيا، فقد كان إيجاد عملات صغيرة (فكة) من الأمور العسيرة حقا. لذا صنع السكان المحليون عملة معدنية صغيرة من حديد وادي الزاكي سموها hasshashah، وكانت أربعين قطعة من تلك العملة المحلية تعادل قرشا تركيا واحدا. وتتم كل المعاملات المالية على أساس عملة متخيلة، هي الريال، وهو يساوي خمسة عشر قرشا.

وكان الجنود الحكوميون في كردفان يقومون بعد انتهاء فصل الخريف بحملات سنوية في جبال النوبة (يسمونها «غزوات») لاصطياد الرقيق. وصادف وجودي في الأبيض عودة الجنود من إحدى تلك «الغزوات». وكانت المليحات من المسترقات يبعن للأتراك أو العرب لضمهن لحريمهم، ويجند للخدمة العسكرية من يصلح الرجال. أما من كانوا لا يصلحون للخدمة – من الجنسين – مثل النساء الحمل وصغار الأطفال فقد كانوا يعطون للجنود عوضا عن متأخرات مرتباتهم الرسمية. وشهدت في إحدى المرات عملية توزيع هؤلاء على الجنود، ورأيت ما أنفطر له قلبي من بشاعة بعض المواقف تلك. فلم يكف هؤلاء السود ما تعرضوا له من اختطاف وسلب للحرية لشهرين أو ثلاثة أشهر، بل كان عليهم تحمل ألم الفراق الأبدي والعزلة الدائمة عن عائلاتهم وأصدقائهم ومعارفهم. ولما كانت متأخرات هؤلاء الجنود كبيرة نسبيا، فقد كان المسترقون (والمسترقات) الممنوحين لهؤلاء الجنود يباعون لاحقا بأسعار تقل كثيرا عن الأسعار التي وضعتها الحكومة لهم. فعلى سبيل المثال فقد تعطي الحكومة لجنديين من جنودها مسترقا واحدا، عوضا عن إعطائهم ٣٠٠ قرشا من متأخرات راتبهما. وللحصول على نقد يقوم الجنديان ببيع ذلك المسترق في السوق بمبلغ قد لا يصل لنصف المبلغ الذي قررته الحكومة. ويمتلئ سوق الأبيض

بالمزادات المفتوحة لبيع المسترقين.

وكانت أثمان المسترقين في سوق الأبيض كما يلي: يباع الطفل في عمر ٣ – ٥ سنوات بنحو خمسين أو ستين قرشا. ويباع البالغ من المسترقين بنحو أربعة إلى ستة ريالات. وكان الطلب على الفتيات المليحات (خاصة الحبشيات) كبيرا جدا، لذا كان ثمن الواحدة منهن ثلاثة أو أربعة أضعاف ثمن الرجل المسترق. غير أن المشترين كانوا يفضلون المسترقات المحليات لأغراض الخدمة المنزلية. (ذكر الكاتب في حاشية مقاله أنه سعى للحصول على وعد من محمد علي باشا بإيقاف «غزوات» جلب الرقيق في بلاد السودان، وبمعاقبة من يقوم بها من الجنود. وزعم أنه سمع لاحقا بأن «أوامر الباشا قد تم تنفيذها. المترجم).

وفي غضون أيامي في كردفان كانت جثث المسترقين الزنوج والمجرمين ترمى خارج المدينة لتأكلها الجوارح والحيوانات الوحشية، ولا تدفن في المقابر أبدا. غير أن محمد بيه (والذي خلف مصطفى بيه في حكم كردفان) أمر بحرق كل العظام البشرية المتناثرة حول الأبيض، وأمر كذلك بدفن كل المسترقين المسلمين المتوفين في مقابر المسلمين بعد إقامة صلاة الجنازة عليهم.

غير أنه من بين كل أهوال ومخازي تجارة الرقيق التي شهدتها في كردفان، لم أر في مثل فظاعة عملية الإخصاء التي تتم في الأبيض، والتي كان يحتكر اجرائها الملك تامار (MelikTamar) شقيق سلطان دارفور السابق، وهو من الكنجارة. وكانت عملية الإخصاء تلك تضاعف مرات عديدة من القيمة المادية للمسترق. ونسبة لشهرة ذلك الرجل قررت أن أزوره في بيته فوجدته رجلا سبعينيا واهنا، أسود اللون وله لحية بيضاء مصبوغة بالحناء. وكان يغطي فمه بيده عندما يتحدث، ربما لإخفاء فكه الخالي من الأسنان. وذكر لي الرجل أنه أتى لكردفان من دارفور قبل ٣٦ عاما، وبقي بها حتى غزاها الدفتردار (في ١٨٢١م)، وبعدها غادر إلى سنار حين أحس بأنه «شخص غير مرغوب في وجوده»، وأنه ربما يقتل غِيلةً. ولكنه عاد للأبيض بعد أن

استقرت الأوضاع بها، وصار يتلقى مرتبا شهريا من حكومة محمد علي باشا قدره ٦٠٠ قرشا. وأخبرني الرجل بأنه كان يجري ١٠٠ – ١٥٠ عملية إخصاء بالأبيض في العام (وهو ذات الرقم الذي كان يقوم به كافة الذين كانوا يقومون بإجراء تلك العملية في سائر أرجاء كردفان). غير أننا يجب أن نذكر هنا أن الملك تامر هذا كان رجلا جَوَّاداً بَيْنَ أَهْلِهِ، وله بيت مفتوح يطعم فيه كل من يزوره، وقيل إنه كان يجلب لبيته ٥٠٠ أردبا من الدخن (أو الذرة) سنويا لإطعام ضيوفه الذين كان يقوم على خدمتهم ٢٠٠ من مسترقيه. وكان جل من تجرى عليهم عملية الإخصاء في سن تتراوح بين ٧ إلى ١١ عاما، وفيها تزال كل الأعضاء التناسلية (للمزيد عن مثل تلك العمليات يمكن الرجوع للمقال المترجم بعنوان: تجارة الرقيق في السودان في القرن التاسع عشر ومنعها بين عامي ١٨٧٧ – ١٨٨٠م، للدكتورة اليس موور – هاريل. المترجم). ويموت نحو ٥٪ ممن تجرى عليهم تلك العملية (غير أن الكاتب أشار في الحاشية إلى أن «الطريقة العربية» في إزالة كامل الأعضاء التناسلية عادة ما تصاحبها نسبة وفيات أعلى بكثير. المترجم).

وبالأبيض قلعة عسكرية (بنيت بالطين اللبن) وعلى قمتها وضع مدفعان، ومستشفى عسكري ومسجد أقيم حديثا. وبني حاكمها روستان بيه مخزن ماء كبير وأقام بجانبه بيته الصيفي، والذي كان يقضي فيه جل وقته بين حريمه.

ورجال الأبيض يتميزون بالنحافة والطول ولون البشرة البني الداكن، وبهم وسامة لا تخطئها العين. ويترك غالبهم شعر رؤوسهم ينمو ثم يقومون بتضفيره، بينما تضع قلة منهم طواقي على الرؤوس. ويرتدي رجال الأبيض في الغالب القمصان (العراريق) أو قطعة واحدة من قماش قطني (ثوب) مع السراويل الطويلة، ويضعون «حجبات» فوق مرفق اليد اليمنى، وسكينا في اليد اليسرى.

أما نساء الأبيض فهن على قدر كبير من الجمال، وألوانهن أفتح قليلا من الرجال. وهن يمشطن شعورهن ويضمخنه بالدهن الغزير، ويتحلين بأساور

وعقود وحلق فضية حول العنق واليد والكاحل وفي الأذن. وقليل جدا منهن يتحلين بالذهب. وتكتفي الإماء والفتيات غير المتزوجات بارتداء «الرحط». ويسير الأطفال من الجنسين بين ٦ إلى ٨ سنوات من العمر عراة تماما.

ولاحظت في كل بلاد السودان التي زرتها – وخاصة في كردفان- مختلف أنواع الشلوخ (العامودية) على خدود الرجال والنساء. وهم يعدون هذا التشويه (disfigurement) بابا من أبواب الجمال الفائق.

ويقوم الرجال والنساء بتعطير أنفسهم (أنفسهن) مرة أو مرتين في الشهر. والنساء مغرمات بالرقص على أنغام الطبول (الدربوكة)، بينما يعزف الرجال على الفلوت والصفارة المصنوعة من القصب. وتعزف النساء والرجال الربابة (المكونة من خمسة أوتار).

وطعام الناس في الأبيض في غاية البساطة، فهو لا يزيد عن عصيدة الدخن مع البامية واللبن الرائب وثمار الحسكنيت (والذي يسبب إسهالا شديدا لمن لم يتعود عليه). ويشرب بعضهم العرقي من التمر أو الذرة المخمرة، أو البلبل أو المريسة.

أما الأمراض الشائعة فهي تشمل الإسهالات والحمى والزحار (الدوسنطاريا) والجدري (والأخير من الأمراض الخطرة). غير أن داء الطاعون وأمراض العيون ليست معروفة هنا.

وتوجد بالأبيض أعداد كبيرة من حشرة الأرضة (النمل الأبيض)، وعددا أقل من الكلاب الضالة مقارنة بما هو موجود في سنار والخرطوم، وتشاهد الضباع أحيانا ليلا في بعض الأحياء. وتوجد بالمدينة أعداد من مختلف أنواع المعز، والتي جلبت من جبال النوبة.

وتحتكر الحكومة كل الصادرات مثل الذهب والفضة والجلود والعاج والصمغ العربي، وتستثني تجارة الرقيق، ولكنها تفرض عليها ضريبة عالية.

طريقة عيش الهدندوة - بقاء تقاليد ثقافية

The Hadendowa Way of Life- Survival of a Cultural Tradition

بروفيسور ليف مانقر Prof. Leif Manger

مقدمة:

هذه ترجمة لجزء يسير عن «الهدندوة والإسلام» ورد في الفصل السادس من كتاب عن «العيش بموارد شحيحة Survival on Meager Resources» والمكون من عدة فصول ألفها عدد من الخبراء في عدة مجالات منها التأثيرات الثقافة والتنمية الريفية والأنثروبولوجيا الاجتماعية وغير ذلك.

والفصل من تأليف ليف مانقر، بروفسيور الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة بيرجن بالنرويج، والذي زار السودان عديد المرات، وقام بدراسة مجتمعات النوبة في غرب السودان والهدندوة في شرقه، وله كتب ومقالات عديدة تدور معظمها عن الإسلام و«الشأن السوداني» والعربي (مثل الاغتراب عند الحضارمة) وغير ذلك. وبحسب ما جاء في سيرته الذاتية المبذولة في موقعه بجامعة بيرجن فهو يقوم حاليا بدراسة ميدانية عن «المجتمعات التجارية السودانية على الشاطئ الصيني.

fieldwork on Sudanese trade communities on the Chinese coast

والرجل - كما ذكر لي أحد معارفه من السودانيين- مجيد للعربية العامية السودانية.

المترجم

**** **** ****

دور الإسلام The role of Islam

يعد الإسلام هو الجانب الأساس الثاني لهوية الهدندوة (الجانب الأول الذي ذكره المؤلف في أجزاء سابقة من فصله كان هو «نظم النسب» Descentsystem). وكان دخول الإسلام إليهم عن طريق الاتصال بمجموعات عربية عديدة. وجاء دخول تلك المجموعات العربية لمنطقة الهدندوة متأخرا نسبيا عن قدماء الهيلينين والمصريين والإغريق والرومان والشعوب المروية والأحباش (Axumites) الذين قدموا للمنطقة قبل العرب بحثا عن الذهب ولضمان مرور القوافل عبر المنطقة.

وحدث التأثير العربي على الهدندوة أولا عن طريق أفراد قلائل يعملون بالتجارة أو مجموعات قليلة من الرعاة. وبحسب ما أورده يوسف فضل في «العرب والسودان» فقد عقدت معاهدة في عام ٨٣١ بين الهدندوة وهؤلاء العرب لتنظيم العلاقات والصلات بين المجموعتين. غير أن العرب انتصروا في نهاية المطاف على البجا (والهدندوة من أكبر القبائل في هذه المجموعة)، وتداخلوا معهم بالتزاوج وبالانصهار في مجتمعهم. وأثمر ذلك التداخل عن ظهور عدد من «خيوط النسب linesofdescent» (فصل المؤلف في أجزاء الفصل الأخرى في أنساب الهدندوة وفروع قبيلتهم وعدد أفراد كل فرع بالتقريب الخ). غير أنه لم يحدث أبدا أن غلبت الهوية العربية على الهدندوة في أي وقت من الأوقات، وظلت تلك الهوية على الدوام مختلطة بالهوية المحلية. ولكن دين الإسلام ضرب بجذوره في مجتمع الهدندوة وصار أحد أهم عوامل تعريف هويتهم. ويقدر كثير من المؤرخين بأن التداخل بين البجا والعرب ودخول الهدندوة في

الإسلام قد حدث في القرن التاسع الميلادي. وهنالك من الشواهد ما يؤيد ذلك مثل القباب الاسلامية المبنية بالحجر، وجامع سنكات القديم وغيرها.

وهنالك عامل آخر لانتشار الإسلام في المنطقة، ألا وهو ظهور مينائي سواكن وباضع Badi (لعله ميناء مصوع الحالي والذي كان قد خضع لاستعمار عدة دول منها مصر والدولة العثمانية وإيطاليا وتركيا وإثيوبيا وهو الآن في أرتيريا. المترجم) كمنفذين مهمين على ساحل البحر الأحمر. وكان لموقع الميناءين الاستراتيجي والتجارة الرائجة حولهما أثرا مهما في جذب التجار من مصر وتركيا وكردستان واليمن والهند. وقام بعض أثرياء التجار من هذه البلدان – وهم في مكة للحج – بدعوة بعض كبار علماء المسلمين وشيوخهم (خاصة من أتباع المذهب الشافعي) لزيارة مناطق شرق السودان. وبهذا غدت سواكن، بالإضافة لكونها ميناءً مهما، مركزا دعويا اسلاميا / ثقافيا له تأثير كبير على ما حوله من المناطق مثل سنكات (تاج السر ومساجد المجاذيب) ومناطق أخرى. وبذا لعبت مساجد الشافعية والأحناف والمجيدي والشناوي أدوارا مهمة في نشر المذهب الحنفي والشافعي في شرق السودان، بينما بقي المذهب المالكي هو المذهب الغالب في بقية أجزاء السودان.

ووقعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ثلاثة أحداث مهمة كان لها كبير الأثر في تلك الصورة التي تقدم رسمها عن تاريخ الاسلام عند الهدندوة. وكان أول تلك الأحداث هو فقدان سواكن لوضعها كمركز مهم نسبة لتقدم صناعة السفن وصناعة أنواع جديدة منها أخذت لها مسارات وطرقا تجارية وموانئ مختلفة. وكان ثاني تلك الأحداث هو انتشار الصوفية وطرقها المختلفة في المنطقة، خاصة الطريقة الختمية في سنكات، والمجاذيب في أركويت. أما ثالث تلك العوامل فقد كان هو الحركة المهدية، والتي كان ظهورها عاملا مهما في

تأجيج الصراع بين طوائف المسلمين (مثل صراعها مع الختمية، وتحالفها مع المجاذيب).

ويعد الهدندوة اليوم من أهم مكونات طائفة الختمية (وهي طائفة / طريقة ذات طابع قومي)، غير أن لدى الهدندوة أيضا مجموعات إسلامية محلية (ريفية الطابع). وتنتشر في أوساط الهدندوة في المراكز الريفية الصغيرة جماعات دينية صغيرة متنوعة، يتبع كل منها لشيخ ديني محلي (وضرب الكاتب أمثلة لهذه «المشيخات» بـ السامريندواب Samirindiwab والشابيندواب Shabindowabوالحسندواب Hasindowab والكنجار Kanjar والأبشار Ibshar والأشرافAshraf والهكولاب Hakulab والكاميلاب Kamilab). وهنالك تخصص في مهام وخدمات شيوخ تلك المجموعات المذكورة. فعلى المثال يختص الأبشار Ibshar بعلاج الأمراض العقلية. وفي مراكز أماكن تلك المشيخات تعقد غالب المناسبات الاجتماعية المهمة مثل مراسم عقد القران والمآتم والاجتماعات العامة والاحتفالات الدينية في الأعياد وغيرها. وفيها المدارس الدينية (الخلاوي) والتي يتعلم فيها الهدندوي الريفي الكتابة والقراءة.

وبذا يقدم البعد الإسلامي المنظم organizedIslamicdimension للهدندوة عن طريق منظمات دينية أكبر وذات أهمية قومية، وكذلك عن طريق تنظيمات دينية محلية ذات علاقة بالتنظيم الاجتماعي بهم. وتخصصت بعض أنساب lineages القبيلة في وظائف ومهام دينية محددة.

ويجب هنا أن نذكر أن مجموعة الأشراف Ashrafالمذكورة أعلاه لا تدعي أصلا هدندويا بل تزعم الانتساب إلى آل بيت النبي مباشرة، وهم بذلك يمثلون «حلقة وصل» للختمية.

وهنالك علاقات أساسية بين ما يمكن أن نطلق عليه «الثقافة البجاوية /

الهدندوية المحلية» والثقافة الإسلامية. وتبدو مثل تلك العلاقات جلية عند النظر لقضايا النسب والأصل. وهنالك أيضا بعض الأمثلة للتنازع / التوتر tension بين مفاهيم الهدندوة والمفاهيم الاسلامية، خاصة فيما يتعلق بانتمائهم للطريقة (الاسلامية) الختمية. فعلى الرغم من التقدير العالي والاحترام الكبير الذي يبديه الهدندوة للختمية ورموزها، إلا أنهم لا يتمثلون ذلك دوما في اتباع الواجبات الاسلامية التقليدية المفروضة. ولديهم إيمان عميق وتصديق مطلق بالطريقة الختمية ويلجأون إليها (ولرموزها) لتفسير ما غمض عليهم من أحداث الحياة وتصاريف الدهر. ويبدو ذلك أيضا في تعظيمهم لرموز الطريقة الختميةواحتفالاتهم (الدرامية) بحولية بعضهم مثل الشريفة مريم – حفيدة محمد عثمان الميرغني (انظر مقال مزدلفة محمد عثمان المعنون : «أم البركات : الشريفة الميرغنية.. ستي مريم يا منجدي» في هذا الرابطhttp://www.sudaress.com/alahdath/20883 والمنشور في صحيفة «الأحداث» بتاريخ ١٠/ ٦/ ٢٠١٢م. المترجم). وفي تلك الحولية يتقاطر الهدندوة من كل أطراف المنطقة لقبة الشريفة في وسط مدينة سنكات. ويأتي إليها زعماء القبيلة محملين بالهدايا (والتي توزع على الفقراء) باسم الشريفة دليلا على الولاء والحب. ولا يعد يوم تلك الحولية يوما عاديا عند الهدندوة ، بل هو مناسبة متفردة (تشابه العيد) يقوم فيها الرجال والنساء والأطفال بارتداء الملابس الجديدة ويجوبون شوارع المدينة وهم في غاية الحبور، ويتبادلون الزيارات مع الأهل والمعارف ويتمنون لهم مرور العام عليهم بكل خير وهناء. وتدل تلك الصورة الجزلة ليوم تلك الحولية على عمق العاطفة الدينية عند الهدندوة، وهي عاطفة تقف في مقابل عواطف أخرى عندهم مثل وحدة الدم (الانتساب لفرع القبيلة) والالتصاق بالأرض والتعلق بها.

والختمية – كما هو معلوم- ليست طائفة دينية فحسب، ولكنها دخلت عالم السياسة بتأييدها للحزب الاتحادي الديمقراطي (في هذا الأمر تفصيل كثير.

ويمكن النظر لتاريخ نشأة الأحزاب السودانية في كثير من المصادر «المحايدة» مثل كتاب بشير محمد سعيد عن «السياسة السودانية». المترجم). وخلق ذلك التأييد بعض الشقاق مع الحزب المحلي (Hadotهل المقصود هو «مؤتمر البجا»، أول حزب إقليمي، والذي تكون في عام ١٩٥٧م؟ المترجم)، والذي خاض انتخابات عام ١٩٨٦م ضد الحزب الاتحادي الديمقراطي بشعارات بجاوية / هدندوية خالصة. وفي المقابل وجد ختمية سنكات أن وقوف الهدندوة (خاصة «الأشراف») ضدهم أمرا غريبا، بالنظر إلى أنهم ختمية وينسبون أنفسهم للعترة النبوية (توسع الكاتب هنا في ذكر تاريخ العلاقة والصراع بين هؤلاء «الأشراف» وبقية الهدندوة، خاصة المتعلمين منهم. المترجم). وتلخص الأغاني المحلية التي يتغنى بها بعض«الختمية» و«الهدندوة من غير الختمية » أسباب الصراع بينهما. فقد جاء في أغنية مشهورة للختمية ما معناه (تقريبا): «الأرض هي أرض الله ورسوله... وبما أن الختمية هم أحفاد الرسول، فإن لهم الأحقية في ملكية الأرض ومصادرها». ويجيء الرد على تلك الأغنية من «الهدندوة من غير الختمية» بأغنية مضادة يقول نصها «o' hash hasoun, balad buladoun

ومعناها بلغة العرب: «الأرض هي أرضنا، والبلد بلدنا». وفي هذا تأكيد على أحقيتهم التاريخية في ملكية الأرض التي يعيشون عليها.

ويمكن أن نخلص هنا إلى أن الهدندوة يفرقون بين عاطفتين: عاطفة علاقة ذوي القربى (kin – ties) وهي علاقة ضاربة الجذور في ثقافتهم المحلية، وتتماهى مع ارتباطهم الشديد بالأرض، والعاطفة الدينية، وهي فرع نتج عن تداخلهم مع ثقافات خارجية.

وهذا مثال آخر قد يوضح تصور الهدندوة لأنفسهم ولنظرة الآخرين عنهم. والمثال هو حوار بلسان امرأة هدندوية (اسمها س) وأخرى (اسمها ص) يشرح

نظرة الهدندوة للختمية (المسلمين) وللخواجات غير المسلمين (البيض الذين جلبوا لهم إغاثة - مساعدات غذائية وغيرها - في سنوات المجاعة التي ضربت مناطقهم).

تقول س: «في أيام المجاعة أمرنا الختمية بوضع سنكاب (أوراق شجرة الدوم الجافة) في خيمنا لحمايتنا من شرور المجاعة، ولجلب المطر. وأمرونا كذلك بعدم تناول أي طعام يقدمه له الخواجات، ويقولون لنا بأن هؤلاء الخواجات سيصيبوننا بالعين (سيسحروننا) ويحصون أطفالنا.»

وترد عليها ص بالقول: «هذا ليس صحيحا، فالخواجات هم الذين الوحيدين الذين وقفوا مساندين للهدندوة في ساعة ضيقهم. قولي لهم عندما يعودون للخرطوم بأننا سننتخب خواجة في المرة القادمة».

وترد س في استغراب: «لا. لا يمكننا فعل ذلك. كيف ننتخب رجلا غير مسلم يا ص؟»

وتجيبها ص بالتالي: «الاسلام شيء في القلب وفي المعاملة. أعد الخواجة مسلما لأنه أنقذ حياتنا» وأضافت ضاحكة:«ولماذا أعطيت صوتك لمؤتمر البجا وليس للختمية إن كنت تحبين الشريفة لتلك الدرجة».

ترد س بالقول: «أعطيت صوتي لهم لأنهم أقربائي (من دمي). وحب الشريفة شيء في قلبي».

وبعد أن أخرجا ما في دواخلهما شعرا بالراحة فمضيا يغنيان أغنية مادحة للخواجة جاء فيها بلغتهم:

Hira rair whiaf te gerbat loiga… enadiri krida … Hira raira hok … talama Bashota

ومعناها (التقريبي) بالعربية أن الخواجة الآتي من دول بعيدة يعتني بالناس من

حوله، ويتحلق حوله الذين يتلقون الإغاثة، وهو عادل في توزيع إغاثته فلا يفرق بين قبيلة وأخرى.

ولعل تلك الأغنية كانت قد ألفت في البدء في مدح «العريس المثالي doba». فالزوج أو العريس المثالي عند الهدندوة هو ذلك الذي يمتاز بصفات الشرف والمروءة والرجولة والكرم والثقة الخ. وفي أيام المجاعة حرفت بعض نساء الهدندوة كلمات تلك الأغنية وأدخلن فيها «الخواجة» الذي كن يعتقدن بأنه «أنقذ حياتهن». وتصف كلمات الأغنية رجلا أجنبيا قدم من بلد بعيد وتحمل مشاق السفر والاغتراب من أجل مساعدتهم. وكان متصفا بالعدل في توزيع المساعدات، إذ لم يحاب قبيلة على أخرى.

عرض لكتاب البريطانية ماري كينان

«تلك الأرض القاسية الحارة»

That Hard Hot Land

Jack Davies جاك ديفيز

مقدمة: هذه ترجمة لعرض مختصر لكتاب من تأليف البريطانية ماري كينان عن رحلة علمية قام بها، وبمبادرة فردية، ثلاثة من العلماء البريطانيين في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤م إلى السودان (وتحديدا دارفور وجبال النوبة والجنوب) لجمع عينات من التربة والنباتات وتصنيفها. واستغرق تأليف ذلك الكتاب عقدا كاملا من الزمان. وسنعرض قريبا لمقال بقلم ذات الكتابة عن قيامها بتتبع آثار تلك الرحلة الطويلة التي قام بها ذلك الفريق العملي (وأحد أفراده يمت لها بصلة قرابة) في عام ٢٠٠٧م، أي بعد أكثر سبعين عاما من الرحلة العلمية الأولى. وكان ذلك العمل هو أحد أحلام حياتها، واضطرت كي تحققه لتغيير تخصصها في الجامعة لتدرس علوم الأحياء والبيئة كي تدرك تماما أبعاد مهمة تلك الرحلة العلمية.

ونشر هذا العرض في العدد الرابع والأربعين المجلة البريطانية «دراسات السودان Sudan Studies»، والصادر عام ٢٠١١».

المترجم

**** **** ****

هذا عمل رائد ينم عن حب فائق من جانب ماري كينان، قامت فيه، وبإخلاص عميق وقدر كبير من العزيمة والإصرار، بتتبع مصادر المعلومات التي شملها

الكتاب.

ويبحث هذا المُؤَلَّف في شأن حملة بريطانية لجمع (وتصنيف) النباتات وعينات التربة قام بها بين عامي ١٩٣٣ – ١٩٣٤م فريق بريطاني بقيادة سيسيل جريهام موريسون (من جامعة أكسفورد) في صحبة دينستات سكيلبيك (من جامعة أكسفورد أيضا) وجيمس إدجار داندي (ابن خالة المؤلفة، والذي غدا فيما بعد مسئولا عن قسم علم النبات بالمتحف البريطاني).

وأفلحت ماري كينيان في الحصول على مذكرات داندي الغزيرة المعلومات، والتي سطرها بخط يده في مئات الصفحات، والتي ضمنها أيضا نحو ٣٥٠ صورة فتوغرافية التقطتها خلال تلك الحملة العلمية بكاميرا كانت دوما في رفقته حيثما ارتحل. وقامت ماري كينان أيضا بتحرير تلك المذكرات وضمنتها ذلك الكتاب مع غالب الصور التي التقطها داندي. وبالإضافة لذلك بحثت ماري كينان عن مذكرات سكيلبيك عن تلك الرحلة العلمية، وعثرت عليها وقامت بتحريرها أيضا.

ويبدو أن سيسيل جريهام موريسون لم يقم هو شخصيا بكثير من الأعمال الحقلية (شأن كل القياديين! المترجم) بل ذهب مع فريقه لمدة قصيرة، وآب لبريطانيا على عجل تاركا مهمة جمع التربة والنباتات وتصنيفها لزميليه!

واتصفت مذكرات داندي بأنها ركزت على الحقائق المجردة، وما تم إنجازه بالفعل في تلك الحملة. غير أن مذكرات سكيلبيك كانت أكثر استطرادا في جانب الملاحظات العامة والآراء الشخصية عن مصاعب الحياة بالنسبة للمسئولين البريطانيين والسودانيين في ذلك الوقت (ثلاثينيات القرن الماضي). واقتبست المؤلفة عنوان الكتاب من جملة وردت في مذكرات سكيلبيك هي: ThatHardHotLand.

لقد كان سكيلبيك معجبا، على وجه العموم، بما تم إنجازه من عمل بحثي رفيع

المستوى. غير أنه أبدى تبرمه وضيقه الشديدين من سلوك بعض الموظفين البريطانيين الأبوي والمتعالي والمتعجرف. ووبخته ذات مرة الرحالة الرومانية (واسمها الأميرة هنداري) على ما سجله من انتقاد لاذع للموظفين البريطانيين وقالت له: «أنتم يا أيها الإنجليز تبعثون بأفضل ما عندكم من موظفين لبلاد كهذه (وتقصد تحديدا جنوب السودان)، بينما ترسلون أسوأ ما لديكم لأماكن أخرى».

وبدأ الفريق البحثي عمله بعد وصوله للأبيض بالقطار. ومنها ساروا غربا نحو الفاشر عبر طريق بري شديد الوعورة مليء بالقيزان الرملية. ووصف سكيلبيك ليلة عيد الفصح (الكريسماس) والتي مرت عليهم وهم في «ود بندة» بأنها كانت ليلة «قاسية البرودة». ووصلوا أخيرا إلى «جبل مرة» والتي أعجبوا بها كثيرا، ووصفها سكيلبيك بأنها «منطقة جميلة ومثيرة للانتباه بجبالها، ولا تخلو من بعض توحش». ووجدوا قمة «جبل مرة» منطقة شديدة البرودة يكسو سطحها الصقيع. غير أن ذلك لم يثنهم عن الاستحمام في أحد بحيراتها البركانية. وأورد سكيلبيك في مذكراته أن فراش استراحة كبكابية كان يحمل أربع ميداليات نالها من العمل أولا جنديا في جيش هكس باشا، ثم «حول رحله» وهجر جيش ذلك الجيش وأنضم للمهدي.

وتأمل سكيلبيك في حال التعليم في السودان وتساءَلعن أهدافه ومراميه وغاياته. وكتب في مذكراته ما يلي: «التعليم ... نعم. ولكن كيف ولم؟ لا ريب عندي أن كلية غردون عمل خاطئ. سيصعب جعل الشاب السوداني الذي تثقف / تحضر في مصر، ثم في إنجلترا لاحقا أن يتوافق أو ينسجم (مع مجتمعه السوداني). لا يوجد لمثل ذلك الشاب مكان في بلده ... يجب أن يأتي التعليم الفني أولا... يجب أن يسبق كل ما عداه». وتأمل أيضا في أمر «خلق دولة سودانية» وكتب يقول في مذكراته: «ليس في جبل مرة أي نوع من الولاء للأمارة ... و«السودان» هنا لا يعني شيئا».

ثم رجع أعضاء الفريق البحثي إلى الفاشر، ومنها توجهوا إلى جبال النوبة ليكملوا عملهم في وسط البلاد. ثم استقلوا بعد ذلك الباخرة من تونجا إلى جوبا ليكملوا أبحاثهم في أكثر المناطق ثراءً بالغابات في السودان، ومنها صوبوا نحو الغرب إلى «ياي». وشملت جولات تلك البعثة العلمية منطقة«أبا» في الكنغو البلجيكي لمقابلة بعض العلماء من أصحاب الاهتمامات البحثية المشتركة. ثم ارتحلوا غربا ووصلوا إلى «يوبو» حيث التقوا هنالك بمسئولين فرنسيين. وبعد ذلك آبوا إلى واو حيث أضطر داندي لترك سكيلبيك في رعاية أحد الأطباء بعد أن ألمت به علة منعته من مواصلة الترحال. ولم يتقابلا بعد ذلك إلا في الخرطوم قبيل موعد عودتهم جميعا إلى أرض الوطن عبر مصر.

لا شك أن سكيلبيك وداندي كانا قد لاحظا وبإعجاب كبير قدرة الموظفين البريطانيين على تحمل شظف العيش وصعوبة الحياة في «تلك الأرض القاسية الحارة»، ونوها بإنجازاتهم فيها. وأشادا كذلك في مذكراتهما بالمضمدين والممرضين في القرى، وبالأطباء السوريين، وبالخدمات الصحية على وجه العموم. وكانت تجربةسكيلبيك الشخصية إبان مرضه خير معين له لتقدير الخدمات الصحية بالبلاد. وكانا معجبان أيضا بالتجار الإغريق الذين جلبوا تجارتهم لأماكن قصية صعب على غيرهم الوصول إليها، وبدماثة خلق السودانيين وحسن معشرهم ولطفهم وكرمهم الزائد.

إن هذا الكتاب عمل ممتاز وبالغ الفائدة. فبالإضافة لما قامت به ماري كينان من جهد في تحرير مذكرات وإشارات الرجلين الحقلية، فقد قامت أيضا بكتابة سير للأعلام الذين قابلهما العالمين سكيلبيك وداندي خلال تجوالهما بالبلاد، والذين وردت أسمائهم متفرقة في ثنايا الكتاب.

ولعل الأهم من ذلك كله هو تضمين كتابها لكل الصور الفريدة التي التقطها داندي. ولو قدر لذلك الرجل أن يرى كتاب قريبته هذا، لملأ الفخر جوانحه.

عرض لكتاب «مقدمة للمهدية»

الزراع والتجار في منطقة شندي بين عامي ١٨٢١- ١٨٨٥م

Prelude to the Mahdiyya: Peasants and Traders in the Shendi Region, 1821 – 1885 (review)

جورج مايكل لا ريو George Michael La Rue

مقدمة: هذه ترجمة لعرض مختصر بقلم بروفيسور العلوم الاجتماعية جورج مايكل لا ريو، نشره في العدد الأول من مجلة «دراسات شمال شرق أفريقيا» الصادر في عام ١٩٩٤م، عن كتاب أندريس بيجور كيلو Anders Bjorkelo «المعنون: «مقدمة للمهدية: الزراع والتجار في منطقة شندي بين عامي ١٨٢١ – ١٨٨٥م»، والذي نشرته دار كمبردج للنشر عام ١٩٨٩م.

حصل كاتب العرض على دكتوراه في التاريخ الإفريقي عام ١٩٨٩م من جامعة بوسطون، ويعمل الآن أستاذا في جامعة كلاريونالأمريكية. أما مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده الآن فهو بروفيسور في مركز دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية بجامعة بيرجن بالنرويج.

المترجم

**** **** ****

تناول مؤلف هذا الكتاب، أندريس بيجور كيلو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة شندي وهي تحت حكم الإدارة المصرية – التركية منذ عام ١٨٢١م وحتى سقوطها في يد الجيش المهدوي في ١٨٨٥م، وتفادى في كتابه،

وبنجاح كبير، تكرار ما هو معروف بالضرورة عن السودان. وكانت منطقة شندي، ومع اضمحلال سلطنة سنار في نهايات القرن الثامن عشر، تحكم بواسطة مكوك/ ملوك محليين من قبيلة الجعليين (الذي يشكلون الغالبية العظمى من الأعراق التي تقطن المنطقة). وتعرض الجعليون، ومنذ عام ١٨٢١م، إلى استغلال اقتصادي بشع، لم يجد معه معظم رجالهم في المنطقة من بد سوى الهجرة إلى جنوب وغرب البلاد. وكان من نتائج تلك الهجرة هو تغير العلاقات الشمالية – الجنوبية، وتقوية الصلة بين كامل الأراضي السودانية والاقتصاد العالمي على وجه العموم. ومع تطوير ومد المصريين لنفوذهم الاقتصادي والسياسي إلى جنوب وغرب السودان، انضم سكان شندي إلى سكان شمال السودان الآخرين في توقع الإنقاذ/ الخلاص من الهيمنة الأجنبية والاستغلال الاقتصادي. وبذلك الفهم، وبتلك الروح انضم هؤلاء لقوات المهدية لطرد الأتراك والأوربيين من السودان.

وقد يستغرب غير المتخصصين من بعض جوانب الدراسة الاجتماعية والسياسية التي ركز عليها أندريس بيجور كيلو بتفصيل وتعمق شديدين، وإغفاله النسبي لجوانب أخرى. فالمؤلف يشير وبصورة مختصرة ومبتسرة للتحديات التي تواجه البحث في منطقة تعرضت إلى هجرة مكثفة في السنوات التي نحن بصددها، والتي لم تكن فيها احصائيات رسمية دقيقة وموثوقة، وشهدت أيضا تغييرات اجتماعية راديكالية ضخمة حطمت كثيرا من الإحصاءات والوثائق المهمة. فالإحصاءات نادرة هنا، والمعلومات عن الاقتصاد في هذه المنطقة غير متوفرة. ولم يحدث المؤلف القارئ (ربما بسبب تواضعه الجم) بالكم الهائل من الصعوبات الجمة التي صادفته في بحثه هذا، والذي يعد إنجازا ضخما بكل المقاييس.

وتصف هذه الدراسة المدققة المجودة تأثيرات الحكم الاستعماري على جزء

من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. وقام المؤلف في دراسته هذه – وبالضرورة – ببحث مستفيض للأحوال السائدة في المنطقة قبل دخول الاستعمار التركي – المصري كمقدمة لازمة لوضع أساس للمقارنات مع ما حدث لاحقا في غضون سنوات ذلك الحكم الاستعماري. وكان على المؤلف في بعض الحالات أن يقوي من النقاش في مجال تحليل أغراض ودوافع الاستعمار التركي – المصري في السودان.

ويقدم المؤلف في الفصلين الأولين من كتابه خلفية موسعة عن شندي في إطار التاريخ السياسي للسودان، وعن أحوال شندي الاقتصادية في الأعوام التي سبقت عام ١٨٢١م. ويحيل المؤلف – في حكمة - القارئ إلى كتاب «عصر البطولة في سنار» لمؤلفه قاي سبوليدنق للاطلاع على صلات منطقة شندي بالسلطنة الزرقاء. ويصف المؤلف بتفصيل شديد مراحل انتصار الغزو التركي – المصري، وطموحات محمد علي باشا، ومصير ابنه الأصغر إسماعيل باشا، والذي قدمه ضحية / قربانا في شندي لغزوه للبلاد بعد أن قدم مطالب تعجيزية للمك نمر. وكانت نتائج تلك المقاومة قاسية جدا وبالغة التأثير. فقد قام المستعمر التركي – المصري باكتساح ونهب وحرق شندي وضواحيها، وبمطاردة المك نمر وحاشيته حتى عبروا الحدود الشرقية ولجأوا إلى إثيوبيا.

وشرح المؤلف في الصفحتين الأخيرتين من الفصل الثاني منطقه في تناول مسائل الاقتصاد الريفي لشندي في مرحلة ما قبل الاستعمار عبر مناقشة عميقة لتاريخ وأدوار مدينة شندي. وتطرق للعلاقات التجارية في أسواق المدينة بين تجارها والقادمين للمدينة من ريفها، والتجارة التبادلية (التكاملية) بين الزراع والرعاة، والتجارة المتخصصة في المحاصيل النقدية مثل التبغ والتمر، ومبيعات الصناعات اليدوية للحرفيين والعمال المهرة والذين يأتون لسوق المدينة لعرض بضائعهم، والتجارة التبادلية مع رجال القوافل التجارية التي تمر بالمنطقة. ويهيئ

كل ما سبق ذكره المسرح للتطورات الدراماتيكية والمتسارعة لعمليات التسليع (commoditization) واستخدام النقود في الاقتصاد (monetarization) بعد عام ١٨٢١م.

ورغم أن المهدويين قد أتلفوا كثيرا من الوثائق الداخلية والتي كان من الممكن أن تثري المناقشة حول نظم الإدارةالاستعمارية في منطقة شندي، إلا أن المؤلف أفلح في استخلاص كثير من الوثائق المحلية، والتفاصيل العديدة التي سجلها الرحالة الذين مروا خلال تلك المنطقة، إضافة إلى ما سمعه من المخبرين المحليين.

وقام المؤلف في الفصل الثالث بتفصيل حدود المنطقة وتراتيبها الإدارية ومسمياتها ووظائفها. وتطرق لدور الجعليين في الحكومة المحلية بالمنطقة بعد إزالة الإدارة الأهلية بين عامي ١٨٢٢ - ١٨٢٣م. وذكر أن أغالب الإداريين والموظفين كانوا من أفراد قبيلة الشايقية والذين كانوا مقربين للسلطات التركية وأكثر تعاونا معها، بينما لم يشغل الجعليون إلا وظائف هامشية وقليلة العدد. ولعل الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة كان هو شيخ المشايخ بشير أحمد عقيد، والذي وجد حظوة عند الإدارة الجديدة مكنته من اقتناء الأراضي والإبل.

كانت منطقة شندي منطقة زراعية غنية. وكان سكانها معتادون على هبوط وارتفاع مستوى النيل ويستغلون المياه الوفيرة والأراضي الخصبة الغنية بالطمي خير استغلال في الزراعة، ولكنهم يهجرونها للتجارة عند شح المياه وقلة المحصول. وكانوا يستخدمون السواقي في الري لاستغلال أفضل لمياه النيل. غير أن قلة الفيضان كانت تؤدي لحدوث مجاعات، بينما كانت زيادته تؤدي لهدم المنازل والسواقي والمزارع، وتؤدي لظهور جزر وأراضي خصبة على الشواطئ. وكانت ملكية الأراضي في منطقة شندي تمثل هاجسا عظيما عند الجعليين لإدراكهم لأهميتها في الزراعة.

وفي الفصل الرابع يفصل المؤلف في أمر الزراعة في منطقة شندي ويذكر الأسماء المحلية لمنحدرات شاطئ النهر والأرض القريبة من النهر والتي تروى بالسواقي، والأراضي البعيدة عن وسائل الري، حيث تروى الأراضي بالأمطار والمجاري المائية الموسمية. وربما كان يحسن بالمؤلف أن يضيف في هذا الفصل بعض الرسومات التوضيحية لزيادة الشرح والتوضيح.

وكانت حيازة الأراضي في منطقة شندي تعكس مدى خصوبة الأرض. فقبل دخول المستعمر التركي – المصري كانت حيازة الأراضي الأقرب للنهر (والأكثر خصوبة) تتم عن طريق التملك الحر. وكان عدد من يتملكون تلك الأراضي قليلا جدا. أما الأراضي الأقل خصوبة فقد كانت ملكية مشاعة بين أفراد العائلات والقرى في المنطقة. ولم يمثل «نظام الساقية» مجرد الساقية والأراضي التي ترويها فحسب، بل كان ذلك النظام يمثل أيضا مجموعة الأشخاص الذين يعملون عليها والذين يملكونها، والذين كانوا يتقاسمون ثمار عملها بحسب أسهم كل واحد منهم فيها. ولما أتى المستعمر التركي – المصري ازداد الضغط على ملاك السواقي بسبب الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم، وبسبب نمو طبقة التجار الذين التي كانت تبحث عن استثمارات زراعية وبضائع رخيصة وضمانات (collateral) جيدة على الديونذات الأرباح العالية التي كانوا يقدمونها للمزارعين. وكانت أمور توريث السواقي بعد وفاة ملاكها من الأمور العسيرة، لأنها تتطلب توزيع الأرض التي ترويها تلك الساقية أيضا على الورثة، وقد يحصل كل منهم على قطعة أرض زراعية صغيرة تصعب الاستفادة منها. غير أن تلك الصعوبات قد حلت نفسها بنفسها بقتل المستعمر التركي – المصري لعدد كبير من رجال الجعليين (من ملاك السواقي) وبتوزيعه للأراضي والسواقي لغيرهم من المقربين لها، أو بهجرة الجعليين لمناطق أخرى.

وكان محمد علي باشا قد فرض سياسته الزراعية (والتي كان قد فرضها من قبل

علـى المصـريين) في منطقـة شـندي، فجعـل مـن السـكر والقطـن والنيلـة (indigo)محاصيل نقدية اجبارية يجب بيعها بأسعار محددة سلفا. وأقـام محمـد على باشا بعض المزارع، غير أنه ترك أمر الزراعة في غالب الأحوال بيد المزارعين. أما تجهيز المحاصيل وإنشاء مصانع السكر والنيلة فقد تـرك بيـد المصـريين بـين ١٨٢٨ و١٨٣٨م.

وفشلت كل تلك المشاريع الحكومية، وفشلت أيضـا كـل محـاولات الأفـراد والجماعات في مثل تلك المشاريع الزراعيـة. فقـد كانـت زراعـة قصـب السـكر تحتاج لمياه لم تكن متوفرة، وكانـت زراعـة بعـض تلـك المحاصـيل عـن طريـق الساقية أمرا غير اقتصادي بالنسبة للمزارعين. وكانـت زراعـة القطـن معروفـة في المنطقة، غيـر أن المـزارعين المحليـين لم يكونـوا متحمسـين لزراعتـه لأسـباب اقتصادية عديدة. وكانت الحكومة (التركية) قد أنشأت مزارع للقطن عـلى شـاطئ النيل وجلبت لها المسترقين ليزرعوها. وهنا أشار مؤلف الكتاب إلى تأثير الحرب الأهلية الأمريكية على سوق القطن العالمي وزيادة الطلب عـلى القطـن السـوداني، ولكنه، للغرابة، أغفل ذكر الازدهار الذي حدث في سوق القطن المصري، والذي كان يفوق بالتأكيد ذلك الازدهار الذي أصـاب القطـن في شـندي، وأغفـل أيضـا مرجعا مهما عن الموضوع بقلم أي . آر. اوينز.

أما أقوى أجزاء الكتاب فقـد أتـت في نهايـة الفصـل الرابـع وفي كامـل الفصـل الخامس، والذي تحول فيه المؤلف من المنهج المؤسسي ونظام ثنائيـة التوقيـت binarytimescheme إلى سرد مقسم إلى مراحل زمنية. وفيه أورد ما حدث مـن مجاعة بسبب انخفاض منسوب النيل وشح الأمطار في أعـوام ١٨٣٥ – ١٨٣٧م، وفشل إنتاج المحاصيل النقدية والتي كان لزاما على المزارعين بيعها بسعر محدد، وفتح طرق الملاحة عبر النيل الأبيض للجنوب. وكتب أيضـا عـن حاجـة مصـر لاستيراد الثيران (المهمة لمنطقة شندي لاستعمالها في السواقي) لاسـتخدامها في

الحركة والطاقة. ولم تكن ماشية قبائل الرحل تصلح لذلك الغرض، لذا فقام الجيش التركي – المصري في ثلاثينيات القرن التاسع عشر بمصادرة آلاف الثيران من سواقي منطقة شندي لترحيلها لمصر.

أما أوضاع الرقيق في شندي في تلك الفترة فليست معلومة تماما. فقد كانت الحكومة الاستعمارية ترعى حملات اصطياد الرقيق بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٠م، ونجحت في اصطياد أعداد كبيرة تم نقل معظمهم إلى مصر، واستبقت أعدادا أقل للعمل في المزارع بمناطق السافنا المروية بالأمطار. وعمل قليل من هؤلاء في مزارع الطبقتين الوسطى والعليا. وفي نفس الوقت، تم تجنيد المزارعين في المنطقة قسرا في خدمة الجيش الحكومي وذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وشكلت الضرائب الباهظة تهديدا خطيرا لنظام الساقية. ففي العهد الذي سبق الاستعمار التركي – المصري كانت الضرائب تفرض بنسبة محددة من المحصول المنتج. غير أن الأتراك فرضوا بعد غزوهم للسودان ضرائب نقدية بنسب ثابتة على كل ساقية ومسترق وحيوان وبيت، وعلى أي أرض زراعية تروى بالسواقي أو المطر. وتركت مسئولية جمع الضرائب على شيوخ المنطقة، ولكن لم تكن هنالك مراجعة سنوية لأحوال من تجمع منهم الضرائب. ولذا لم تمثل سنوات الجفاف والمجاعة وغيرها أي عوامل مخففة لنسب تلك الضرائب لمن بقي من رجال الجعليين في أماكنهم. وكانت الضرائب في البداية تطبق عن طريقة المصادرة، بينما كانت الضرائب على السواقي والمسترقين والإبل تساوي قيمتها الحقيقة، بينما كانت الضرائب على الماشية تفوق الـ ١٠٠٪ من قيمتها السوقية. وتحت تلك الظروف لم يجد ملاك الأراضي والسواقي من بد من بيعها أو استخدامها كضمان للحصول على نقد من التجار حتى يمكنهم دفع تلك الضرائب المفروضة عليهم. وغدت عملية جمع الضرائب عملية عسكرية، بل وكانت تكاليف تلك

العملية العسكرية (وما يعن لجامعي الضرائب فرضه من «مصاريف إدارية») تضاف إلى ما كان على الفرد دفعه من ضرائب متنوعة.

وحدثت في العقود الثلاثة الأخيرة من عمر حكم التركية بعض المحاولات لإصلاح نظم جمع الضرائب. ففي خمسينيات القرن التاسع عشر أصدر محمد سعيد باشا عدة إصلاحات ضريبية أهمها إعادة النظر في سجلات ضرائب من هاجروا من المنطقة، وتخفيض نسب الضرائب على السواقي والأراضي الزراعية، ومنع جمع الضرائب بالقوة العسكرية، ومنح الإدارة المحلية جزءا مما يجمعونه من ضرائب. ولم تلق تلك الإصلاحات نجاحا كبيرا. فقام حسين بيه خليفة العبادي، والذي كان منذ عام ١٨٦٩م، مديرا لبربر (والتي تتبع لها منطقة شندي)، ومديرا لدنقلا لاحقا، بمحاولة أخرى لإصلاح النظام الضرائبي.

وأحسب أن أكثر أجزاء الكتاب أصالة هو الفصل السادس، حيث قدم المؤلف فيضا غزيرا من المعلومات أزالت بلا ريب الكثير مما كان غامضا في معلوماتنا عن المنطقة، وعما كان معروفا تاريخيا عن تجار السودان في القرن التاسع عشر. فقدم الكاتب في هذا الفصل فرصا جديدة وممثلين جدد وقواعد جديدة. كذلك تطرق المؤلف للعملات المختلفة التي كانت يدفع بها السكان الضرائب، وبدائل العملات التي كانت تستخدم في حالات عدم وجود عملات، وعن التسليع واستخدام النقد في الاقتصاد المحلي. وذكر الكاتب أمثلة وجدها في بعض الوثائق لمشاكل عائلية عند تقسيم التركات بين الورثة. وكان من بين تلك الأمثلة قصة زوجة هجرها بعلها وهاجر خارج المنطقة، وذكر حكم القاضي لها بما يكفيها شهريا من مواد مختلفة بالأسعار السائدة في شندي حينها.

وقام الكاتب بجمع دور الجعليين في تمدين (urbanization) مناطق السودان المختلفة تحت بند «الجلابة» والذين نقلوا «النظام الحضري urbansetting» الذي كان في مناطقهم للمناطق التي هاجروا إليها. وكانت كلمة «الجلابة» في

الماضي تشير في عمومية إلى تجار المناطق الصحراوية، ثم صارت في القرن التاسع عشر تعنى المهاجرين من رجال القبائل النيلية السودانية. وكان هؤلاء جاهزون لكل المهمات اللازمة لتوسيع الإمبراطورية (السياسية والتجارية) المصرية. وغدوا تجارا صغارا يعملون بالدين من / مع مؤسسات أكبر ومن / مع الجنود والبحارة والأبالة ورجال الدين وصغار الموظفين. ومن أشهر هؤلاء الجلابة هو الزبير، والذي أفلح في بناء إمبراطورية تجارية كبيرة في زرائبه (معسكراته) في بحر الغزال، والياس باشا أم برير حاكم كردفان في غضون سنوات حكم غردون للسودان.

وقدم الكاتب عرضا جيدا للتجار الذين بقوا في شندي أو عادوا لها، من أمثال عبد الله بيه حمزة (١٨٢٤ – ١٩٣٧م) من واقع وثائق عائلة ذلك التاجر. وسجل أيضا عن قصص تجار امتدت تجارتهم من مركزها في المتمة عبر الصحراء من دارفور إلى مصر. وقد عمل حمزة والد عبد الله المذكور أعلاه تاجرا في مصر في عام ١٨٢١م. ولما آب إلى شندي استثمر في مجال الأراضي، ولم يصادف نجاحا كبيرا فيها، بعد أن كان قد أنشأ مصنعا للنيلة لم يكتب له النجاح أيضا. غير أن أبناء الرجل أفلحوا في بناء شراكات وشبكات تجارية في شراء وبيع الصمغ العربي وريش النعام واستيراد وتصدير المنسوجات. وذكر المؤلف ذلك الرجل كمثال يدلل على أن التاجر في السودان في القرن التاسع عشر كان يمكن له أن يصادف نجاحا كبير دون اللجوء لتجارة الرقيق.

وسيكون من المفيد في دراسات مقبلة معرفة المزيد عن دور الجعليين في الأنشطة الزراعية في السودان.

أعد هذا الكتاب مؤلفا ممتازا، ليس فقط للمعلومات التي قدمها، بل لمجمل الأسئلة التي قام بطرحها. ولا يملك المرء إلا أن يهنئ المؤلف ويتطلع لمؤلفات مماثلة.

ستة عشر يوماً في معسكر عثمان دقنة

Sixteen Days in Osman Digna's Camp

جودو ليفي Guido Levi

مقدمة: هذه ترجمة لما جاء في الصحيفة الأسترالية The Brisbane Courier في عددها الصادر يوم الجمعة ١٨/ ٤/ ١٨٨٤م من تقرير بعث به التاجر النمساوي جودو ليفي عن زيارته لمعسكر الأمير المهدوي عثمان دقنة (١٨٤٠م بالدقيناب – ١٩٢٦م بوادي حلفا). والمقال مليء – كما سيلاحظ القارئ- بخليط من الوقائع المحددة والخيال الشاطح، مثل كثير من كتابات الغربيين في تلك الأيام.

الشكر موصول للدكتور أبو محمد أبو آمنة هنيس لتكرمه بإرسال المقال بلغته الأصلية، ولاقتراحه لي بترجمته للعربية.

المترجم

**** **** ****

أرسل إلينا مراسلنا الخاص في سواكن هذا التقرير الذي أعده التاجر النمساوي السيد ليفي عن زيارته لمعسكر عثمان دقنة. ويؤكد مراسلنا أن السيد ليفي، وهو رجل جدير بالثقة، حل بسواكن قادما من معسكر عثمان دقنة في أثناء غياب مراسلنا في ترنكتات Trinkitat. والنص التالي هو ما ذكره السيد ليفي عن زيارته تلك:

«أعددت لزيارتي لعثمان دقنة عدتها، فقمت بتحميل جملي بزاد للطريق، وببعض

الهدايا للرجل. وأخذت معي مسدسي وقليل من الملابس. وبدأت رحلتي من سواكن عند السادسة ونصف من صباح يوم ٢٤ يناير متجها إلى تلال تقع شمال تماند Tamanid، والتي كنت على علم بمعسكر للثوار بها (لعل المقصود هي المكان المعروف بـ «تيبينب»Timinib، وهو نفس الموقع المشهور أكثر باسم تأماي، والذي عسكر فيه جيش الامير عثمان دقنة لمحاصرة سواكن.. وتوجد به آبار شرب. المترجم)، وحيث كان علي أن أنتظر مجموعة من هؤلاء الثوار لينقلوا لعثمان دقنة نبأ مقدمي إلى معسكره، وهذا مما من شأنه أن يضمن سلامتي عند دخولي لذلك المعسكر. وكنت قد حملت معي أيضا علما أبيضا صغيرا وخطابا مكتوبا باللغة العربية يفيد بأني ما قدمت لمعسكر زعيم الثوار إلا للقيام بزيارة ودية للزعيم، وأن أطلب منه السماح لي بالإقامة معه. ووصلت للتلال التي كان من المفترض أن أقابل فيها من يأخذني للمعسكر، غير أني لم أجد أحدا في انتظاري. فواصلت في سيري حتى وصلت لسهول منبسطة كانت ترعى فيها بعض الجمال. وكانت الساعة حينها قد بلغت الحادية عشر صباحا، وكان جملي متعبا وجوعانا فقررت أن أريحه وأن أستريح أنا أيضا، وأن أتناول غدائي ثم أبقى في انتظار حضور أصحاب الإبل. وما هي دقائق قليلة حتى لمحت في تل قريب رجلا يسير وحيدا. حاولت أن الفت انتباهه لوجودي، إلا أنه ما أن رآني حتى لاذ بالفرار. ثم عاد بعد دقائق قليلة ذات الرجل ولكن مع ثلة من رفاقه، فتقدمت نحوهم رافعا علمي الأبيض الصغير وأنا أصيح بأني رسول مسالم وصديق لعثمان. وتبين لي أن أحد الرجل كان شيخ الأمرار وكان مؤيدا للثوار، فأريته رسالتي فقرأها وطمأنني بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه سيضمن شخصيا وصولي لعثمان دقنة. ومضيت معهم نحو معسكر الثوار، إلا أننا قابلنا معارضة شديدة في الطريق، حيث أصر بعض من لقينا من الثوار على عدم السماح لـ «كافر» مثلي بالدخول للمعسكر حيا ومقابلة الزعيم. وبعد مشادة فقدت فيها قبعتي الهندية، والتيتمزقت تماما بحراب الثوار الرافضين لدخولي مسالما لمعسكرهم. وأخذني شيخ الأمرار إلى

قطيته الصغيرة وأمرني بالبقاء فيها حتى يضمن لي مقابلة الزعيم عندما تحين الفرصة.

وزارني قاضي سواكن (والذي كان قد فر من المدينة في اليوم السابق للقائي به في معسكر عثمان دقنة) وكان صديقا لي. عبر لي الرجل عن أسفه لرؤيتي هنا، وأسر إلى محذرا بأني سأقتل لا محالة إن لم أعلن إسلامي. فوافقت على الفور على إعلان دخولي للإسلام. حينها أجبرت على تبديل ملابسي وارتداء زي الأهالي المعتاد، والمكون من جلباب وسروال ومركوب. وسحب مني سلاحي الناري قبيل عرضي على عثمان دقنة. وكان الزعيم يتوسط مجلسا لرجال عرب جالسين على الأرض. ولم يكن يرتدي غير ثوب من القماش شديد الاتساخ وقبعة من السعف. بدا لي كرجل من عوام الناس، بل كان أقل الحاضرين تميزا. ألقيت إليه بالتحية والسلام المعهودين، ثم طلبت منه السماح لي بالبقاء في معسكره والعيش في وسط رجاله، مثلما فعل قاضي سواكن. أجابني بأن ذلك يسعده، وطمأنني علي حياتي، خاصة بعد دخولي في دين الإسلام. وتحدثت قليلا عقب تلك المقابلة الوجيزة مع اثنين من رجال سواكن كانت لي بهما سابق معرفة عن سبب مجيئي لمعسكر عثمان دقنة. وأفهمتهما بأني إنما أقبلت على معسكر القائد المهدوي لأثبت لرجال القبائل بأني أعلم أن سبب الثورة هو سخط الأهالي من فساد الحكومة المصرية. ونصحتهما بالتظلم مباشرة عند السير بيكر باشا، فهو رجل إنجليزي لا يُظلم عنده أحداً، والكتابة له عما يريدون تحقيقه من إصلاح. وأسررت لهما بأن سيكون أمْرا كارثيا إن ظلا يرددان بأنهما يقاتلان من أجل المهدي، إذ أن ذلك لن يغضب الحكومة المصرية فحسب، بل سيغضب أيضا الإنجليز والأتراك وشعوبا أخرى كثيرة. وقلت لهما أيضا أن كل هؤلاء لن يدعوكم وشأنكم، ولن تنعموا بالسلام أبدا. ورد الرجلان على نصيحتي لهما بالقول بأنهما لا يفكران حاليا في ما حاق بالبلاد والعباد من مظالم، بل هما يؤمنان إيمانا لا يتطرق إليه أدنى شك بأن المهدي قد ظهر بالفعل (في بلاد السودان) وأنه هو المهدي المنتظر الذي سيهزم سائر

حكام العالم، وسيقضي على أعدائه، ثم يحكم كل الدنيا بحسب مبادئه ومقتضى أفكاره. وكيف لا، وهو ذلك الرجل المغمور الذي غدا فجأة قائدا منصورا، هزم كل حملة جَرَدَتها الحكومة للقضاء عليه، ولا توجد أي قوة في الأرض يمكنها أن توقف مد انتصاراته. وأخبراني بأنهما تلقيا رسائل من المهدي تدعوهما للثورة والانضمام لقواته المحاربة، والتي سيكتب لمجاهديها النعيم المقيم في أعالي الجنان. وذكرا لي بأن المهدي كان قد توعد في رسائله لهما بأن كل من يرفض دعوته ويأبى الانضمام إليه والقتال في صفه سيدمر في الدنيا، ثم يتبوأ مقعده في النار في الدار الآخرة. وأكدا لي بأن الرجال الذين يحاربون مع عثمان دقنة لا يخشون بنادق الكفار ولا مدافعهم، ولا أي سلاح قد يستخدم ضدهم، فكل تلك الأسلحة ستغدو في نهاية المطاف غنائم لهم، وأنهم يؤمنون أيضا بأنهم إن قتلوا في حروبهم ضد الكفار فسوف يلقون خير الجزاء في جنات الخلد. وأكدا بأن رجال المهدي سيستولون على سنكات وطوكر بسيوفهم وحرابهم، وبعد ذلك سيسيطرون على سواكن، وسيدمرونها تدميرا ولن يتركوا فيها حجرا في مكانه، ومن ثم ينتقلون لجدة ومكة، وبعدهما يسيطرون على مصر بأكملها، ويقتلون السلطان في إسطنبول، وكل الإنجليز وغيرهم من المسيحيين، ثم يفرغوا من بعد كل ذلك للأحباش. وأكد الرجلان السواكنيان لي بأنهما وجدا أمر هذا المهدي (الحقيقي) في كتبهما، وتحققا من صدق دعوته التي ذكرها النبي، إذ أن صفات هذا المهدي تطابق تماما تلك الأوصاف التي ذكرت في حديث النبي. وإن لم يكن هذا الرجل هو بالفعل المهدي الحقيقي، فكيف تأتى له هزيمة الحكومة وجنودها في كل معركة يخوضها ضدهم؟ وقالا أيضا بأنهما لم يعودا يأبهان بالمال ولا بالمكانة الاجتماعية أو أي أمر دنيوي آخر بعد أن ذاقا حلاوة الانضمام للمهدي وجيشه المجاهد، إذ أنهما يثقان في أن الجنة ستكتب لهما في الحياة الآخرة، وإن لم يفعلا فسيلقان سوء المصير في النار. وكان من ضمن ما ذكراه لي أن لن يسمح لأحد بملكية خاصة، إذ أن الكل سيتساوى في الفقر، ولن يأكل أحدا غير الذرة، تماما

كما يفعل عثمان دقنة. وعندما تبلى الملابس التي يرتدونها فإنهم سيلبسون مما سيغنمونه من ملابس النصارى، وسيتخذون من حُصُرٌ الأرض ملابسا. وقالا بأن من انضم للمهدي من الأغنياء تصدق بغالب ماله وبهائمه ومحاصيله طوعا لعثمان دقنة، ليوزعها على فقراء جيشه. وأشادا بعثمان دقنة، وقالا بأنه كان بإمكانه اكتناز الأموال والعقارات إن أراد، إلا أنه لم يرغب في متاع العالم الزائل، وكذلك ينبغي لمن يرغب في الانضمام إليه أن يحذو حذوه. حينها سيجد كل الترحيب، وسيردد الجميع الشهادتين: «لا إله إلا الله ... محمد رسول الله». وهنا قاطعت حديثهما قائلا بأن كل من أعرف من المسلمين في سواكن وغيرها يرددون ذات الكلمات. أجاباني بأن هؤلاء يكذبون على أنفسهم وعلى الناس. ورأيت، بعد كل ما سمعت، أن لا فائدة من مواصلة الحديث مع الرجلين فودعتهما لحين لقاء آخر.

وعند الثامنة من صباح اليوم التالي أخذت إلى ميدان فسيح كان عثمان دقنة يجمع فيه كل جنوده ويتوسطهم ويتلو على مسامعهم شيئا مما كتب عن المهدي، ويقرأ عليهم رسائل يزعم أنها وصلته من المهدي شخصيا. وحوت تلك الرسائل المزعومة أخبارا مذهلة لا أشك في أن غرضه منها كان إثارة مشاعر أتباعه الدينية. وانصرف عثمان دقنة بعد انتهاء ما كان يود نقله لأتباعه. وهنا بدأ بعض الحاضرين في توجيه مختلف أنواع الاساءات والشتائم والأذى الجسدي لي لنحو ربع ساعة، فأخذني شيخ الأمرار، وبصعوبة بالغة جدا، إلى مسكني تحت حمايته الشخصية.

وفي صباح يوم ٢٦ وجدت نفسي مجبرا على تسليم كل ما أحضرت من أغراض وهدايا إلى الشيخ، إذ لم يكن قد سمح لي بحمل تلك الهدايا لعثمان دقنة في أول مقابلة لي معه. وسبق أن حذرني بعض من كانوا حولي بأن الزعيم يمج الهدايا، ويكتفي بملابسه المتسخة التي رأيته عليها ولا يأكل غير بَليلة الذرة.

وسمعت بأمر أصابني بالحزن والألم الشديد، ألا وهو ما تناقله بعض أتباع عثمان دقنة من أنني ما أتيت لمعسكر عثمان دقنة إلا لأغتاله. ولعل السبب في

ذلك هو أنهم سألوني عند دخولي للمعسكر إن كنت أحمل سلاحا ناريا، فأجبت بالنفي. غير أنهم وبعد تفتيشي عثروا على مسدس مخبوءاً في طيات ملابسي. غير أنه، ولحسن الحظ، لم يكن لديهم من سبب للشك في غير ذلك، ولذا سلمت منهم، ولو إلى حين.

وبقيت في معسكر عثمان دقنة لستة عشر يوما، ولم يسمح لي بمقابلته مرة أخرى غير تلك المرة الأولى. ولاحظت في أيامي في المعسكر أن العرب (وغالبهم من الهدندوة مع قلة من القبائل الأخرى) في ذلك المعسكر كانوا تحت تأثير إثارة دينية عالية النبرة. ولاحظت كذلك أن أولئك الرجال كانوا يخيطون أي رقعة ملونة يجدونها على ملابسهم ويصنعون منها تصاميم متعددة الألوان. ولاحظت أيضا أن كل قادتهم في المعسكر جاءوا أصلا من سواكن. ولزيادة تهييج مشاعرهم الدينية وتأجيجها، كان عثمان دقنة يلقي يوميا على مسامع جنده في فترات مختلفة في اليوم مقتطفات من كتب المهدي، وذلك بالطبع إضافة إلى جانب ما يقرأه عليهم كل صباح من كتابات المهدي ورسائله التي يزعم أنها قد وصلته من المهدي مباشرة.

وزارني في قطية الشيخ عدد من رجال سواكن، غير أني لم أعد أذكر اسمائهم الآن. ولم يفتني أن ألاحظ أنهم كانوا يحملون ذات الأفكار التي كان يحملها الرجلان المشار إليهما آنفا. وكانوا جميعا يعدون بمعاودة زيارتي، إلا أن أحدا منهم لم يف بما وعد. وافترضت أن عثمان دقنة منعهم من معاودة زيارتي. وكنت قد ذكرت لكل من زارني أني أرغب في مقابلة أخرى مع عثمان دقنة، إذ أن لدي الكثير من الأمور المهمة التي أود التحدث معه بشأنها. غير أنني فشلت تماما في الحصول على فرصة لمقابلة الزعيم. وسمح لي في اليوم العاشر لاعتقالي في معسكر عثمان دقنة بمقابلة علي طاهر. وشكوت للرجل من سوء معاملتي بالمعسكر، وذكرته بأنني قدمت للمعسكر بمحض إرادتي، ولا ينبغي أن أعد سجينا معزولا،

وأني أرغب في السماح لي بالسكن مع أصدقائي القادمين من سواكن الذين يتحدثون اللغة العربية، وليس مع الهدندوة، والذين أجهل لغتهم. وإن لم يكن ذلك مسموحا بي فينبغي أن يسمح بالعودة لأهلي من حيث أتيت. وطلبت منه أن يعطيني ملابس أخرى لأغير ملابسي التي صارت متسخة جدا. طمأنني شيخ طاهر بأنه سينقل رغباتي لعثمان دقنة، وستجاب كل طلباتي. ولا شك أنه قام بنقل مطالبي لعثمان دقنة، غير أن شيئا منها لم يتحقق. واقتنعت في نهاية المطاف بأن ما سبيل أمامي غير مقابلة عثمان دقنة شخصيا.

لعلي ذكرت أن عرب الهدندوة هم رجال في توحش الحيوانات المفترسة. لقد سمعت من قبل عن قصص قسوتهم المفرطة مع أعدائهم من الأحياء، والأموات أيضا. فقد شق بعض هؤلاء بطون واحدا وعشرين من جنود الحكومة في سنكات، فقط للتأكد مما في بطونهم من طعام! وحدث ذات مرة أن أروني يدا بشرية مقطوعة وطلبوا أن أخبرهم إن كانت تلك اليد لرجل تركي أم لإنجليزي. وذكروا لي عرضا أن جيوب الرجل كانت محشوة بالجنيهات.

وفي معركة خاضوها ضد قاسم أفندي وجنده ترك عرب الهدندوة جثث من قتلوهم من أعدائهم في العراء دون أن يقوموا بدفنها. وعندما أقبلت الفرقة ٢٧ مشاة نحو معسكر المهدويين دقت الطبول فرأيت رجال الهدندوة يهبون لحرابهم وسيوفهم وهو يصيحون بأعلى صوت في نشوة عارمة للقاء الأعداء القادمين. ولما عادوا للمعسكر بعد انقضاء المعركة أخبروني بأنهم غنموا من أعدائهم ٢٠٠ من الماشية، ولم يبدوا أي مشاعر للأسف على فقدان بعض رفاقهم في تلك المعركة. وكانوا قد قتلوا نحو عشرين من جنود العدو وطاردوا من بقي حيا من جنود المشاة حتى أبواب سواكن. وبعد يومين من تلك المعركة تلقى جنود عثمان دقنة نبأ قدم به واحد من عيونهم بالمدينة بأن جنود الحكومة سيقومون في ذلك الصباح بهجوم على معسكرهم، وأن عليهم اليقظة والحذر والاستعداد. ومرة أخرى بدأوا

الاستعداد للمعركة بصيحات عالية وجلجلة رهيبة ومضوا في طريقهم للقاء العدو. ثم عادوا عند العصر ليخبروني بأن جنود العدو أقاموا زريبة ثم رحلوا عنها. وكان من عادتهم أن يخبروني بالأنباء السارة لهم فحسب ويبالغون فيها، ويكتمون عني ما يسؤهم.

ويقع معسكر عثمان دقنة خلف التلال التي يوجد عند سفحها ماء التماند Tamanid (تيبينب). وتعيش بالمنطقة قبائل مختلفة لكل منها مساكنها الخاصة، إلا أنهم يتركون مساحة خالية، ويعدونها مكانا مقدسا لأنهم يؤدون فيها الصلوات الخمس جماعة كل يوم. ومنازل هؤلاء الناس مبنية من القش، والذي لا يحميهم إلا قليلا من البرد والرياح. وغالب السكان لا يضعون على أجسادهم إلا قليلا من الملابس، وهم في حالة صحية سيئة، فهم دائمي السعال. لقد رأيت صبية بالغي الهُزَالُ وعواجيز لا يكادون يقدرون على المشي يحملون الحراب والرماح وهم في طريقهم لقتال الأعداء. وكان معظم رجال المعسكر قد تركوا زوجاتهم وأطفالهم في مناطق بعيدة، وليس بالمعسكر غير قليل من النساء – معظمهن من الإماء المسترقات- يعملن في طحن الذرة.

ومن القصص التي أذكرها أنه في ذلك اليوم الذي هاجم فيه جند مشاة الحكومة جنود عثمان دقنة عاد للمعسكر رجل كبير ومعه ابنه الشاب الصغير وهما يرتدفان جملا. كان الشاب مصابا بجرح عميق وينزف بغزارة. وما أن رأيت ذلك حتى اندفعت نحو الشاب الجريح، وحملته لقطيتي حيث قمت بفحص جرحه وغسل موضعه، وقطعت قطعة من ملابسي لأضمد بها جرحه، وبقيت بجانبه لعدة أيام أرعاه حتى برأ جرحه. ولكني عجبت جدا لعدم سماعي كلمة شكر يتيمة أو إيماءة تقدير واحدة من ذلك الشاب أو من والده. لقد كان الشاب في حالة ضيق شديد ولم أفعل إلا ما رأيت أنه العمل الصائب. وأسوق هذا المثال لأدلل على قسوتهم الشديدة.

لم يكن معسكر عثمان دقنة يخلو أبدا من الذرة. وكنت أرى بين الحين والآخر جمالا محملة بها قادمة من طوكر. والذرة واللبن هي طعام الناس الأساس هنا. وكان اللبن يأتينا طازجا في سُعون يبعث بها أهالي جنود المعسكر كل يومين أو ثلاثة. وكنت أشربه دائما حامضا جريا على عادة العرب هنا. وكنت أراهم أحيانا يصبون اللبن الطازج في سعن به حليب مضى عليه ثلاثة أيام. ولا يفكر هؤلاء الناس في نظافة سعونهم أبدا. وكان طعامنا الأوحد تقريبا هو عصيدة الذرة باللبن. غير أنه في حالة عدم توفر دقيق الذرة، فقد كنا تناول الذرة المغلية في الماء (البليلة). ولم أذق اللحم في أيامي الستة عشر بالمعسكر سوى مرة أو مرتين، تناولت فيها لحم ضأن شهي. وكانوا أحيانا يجودون علي ببعض قطع من الجلد لا تصلح للأكل. وكان ذلك الشح في تناول اللحم لا يناسب طبع القادمين من سواكن بالمعسكر، والذين أكدوا لي أن عشرين ثورا وعشرين جملا تذبح كل يوم لإطعام فقراء المعسكر. ولا عجب فأسعار البهائم هنا رخيصة جدا، ولا يكلف شراء خروف يزن ٢٥ رطلا هنا غير نصف دولار، بينما يبلغ سعره في سواكن خمسة أمثال ذلك.

لاحظت أيضا أن الثوار لا تنقصهم الحراب والرماح، ولدى بعضهم سيوفا أيضا. غير أن أقل من ١٠٪ منهم كانوا يمتلكون بنادق ريمنقتون، والتي قدرت أنهم لا يجيدون استخدامها. ولما سألتهم عن عدم قيامهم بالتدريب على الرماية أجابوني بأن ما لديهم من ذخيرة لا يكفي للتدريب والقتال معا. وسألتهم أيضا عن فائدة تسللهم ليلا لمداخل لسواكن والقيام بإطلاق رصاصات قليلة في الهواء ثم الاسراع بالعودة للمعسكر أجابوني بأن كل غرضهم هو إزعاج منام حراس أسوار المدينة. وأضافوا بأنهم تعلموا بأن الانبطاح أرضا هو أفضل طريقة لتحاشي الإصابة برصاص العدو.

وفي اليوم الثالث عشر في معتقلي بالمعسكر سمعت بأن العرب قاموا بعمليات

استكشافية في سهول اتباي Etbai والتي يسكنها عرب محمود علي، والذي كان حليفا وصديقا للحكومة، وأسروا عشرين من رجال محمود علي، وأحضروهم معهم للمعسكر. غير أن هؤلاء المعتقلين تمكن من الهرب من المعسكر ليلا. وهنا خطرت لي فكرة الهرب أنا أيضا من قبضة هؤلاء الناس.

وفي ليلتي الأخيرة التي قررت أن أفر فيها من المعسكر تسللت حبوا وبهدوء شديد من قطيتي عند منتصف الليل والناس نيام، ومضيت هكذا لنحو نصف ساعة حتى بعدت عن المعسكر دون أن يلاحظ أحد منهم شيئا. وعدوت بعد ذلك بأسرع ما يمكنني في اتجاه الشرق نحو ساحل البحر لأربعة ساعات كاملة. ثم استرحت بعد ذلك لنصف ساعة أو نحوها، ثم واصلت العدو مجددا. وعند بزوغ الفجر وجدت أنني قد بعدت جدا عن سواكن التي كنت أقصدها، وقريبا من طوكر. ورغم ذلك ظللت أعدو وأعدو حتى لاحت لي من بعيد، وفي نحو التاسعة والنصف صباحا، قلاع المدينة القديمة. كنت في غاية النصب والإعياء والعطش، غير أني كنت سعيدا لأني لم أصادف في رحلة هروبي أحدا من البشر.

التوقيع

جودو ليفي

مواطن نمساوي وقبطان سابق لسفينة تجارية

قصة رحلتين

تتبع خُطى بعثة علمية أتت للسودان في ١٩٣٤ بعد نحو سبعين عاماً

Retracing Footsteps: Khartoum 1934 and 2007

ماري كينان Mary Keenan

مقدمة: هذه ترجمة لبعض ما جاء في مقال للسيدة البريطانية ماري كينان عن رحلة علمية قامت بها للسودان في عام ٢٠٠٧م تتبعا لخطى فريق بريطاني مكون من ثلاثة من العلماء البريطانيين (مع مرافقيهم) جاء إلى السودان في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤م لجمع عينات من التربة والنباتات وتصنيفها من مناطق في دارفور وجبال النوبة والجنوب. وبحسب ما أوردته الكاتبة في موقعها البديع (المذكور أدناه) فقد استغرق تأليف هذا الكتاب عقدا كاملا من الزمان.

https://thathardhotland.wordpress.com

وفي هذا الموقع حكت المؤلفة عن أن رحلتها للسودان كانت هي أول رحلة طويلة لها خارج الجزر البريطانية (باستثناء عشرة أيام بباريس). وكالت الثناء على كل من صادفته في الخرطوم، حيث أقامت في ذات المنزل الذي كان يسكن فيه خالها في ثلاثينيات القرن الماضي. وكانت تتجول وحيدة بالمدينة ممسكة بقارورة مياه بيد، وبخريطة للمدينة في اليد الأخرى، وبحقيبة صغيرة على ظهرها. وزارت دار الوثائق وكل متاحف الخرطوم، وصافحت مئات السودانيين المرحبين.

ونشر هذا المقال في العدد الخامس والثلاثين المجلة البريطانية «دراسات السودان SudanStudies»، والصادر عام ٢٠٠٧م».

المترجم

**** **** ****

بدأت في ٢٦ فبراير من عام ٢٠٠٧م في رحلة للخرطوم لتتبعخُطى رحلة قام بها أحد أقربائي (مع عالمين آخرين) للسودان. وبادِئَ ذِي بدْءٍ أسرد حكاية تلك الرحلة، والأسباب التي دعتني للقيام بتلك المغامرة، وعلاقتها بالماضي. وفي حقيقة الأمر فهذه حكاية رحلتين يفصل بينهما ثلاثة وسبعون عاما. غير أنهما ترتبطان بشخصين، لا يعلم الأول منهما شيئا عن الثانية، ولا تعرف هذه الثانية شيئا عن الأول إلا ما قرأته عنه في الوثائق ... غير أنهما يرتبطان بصلة الدم، وبرباط فكري معقد لا ينفصم مع مرور الأعوام.

لحظة اتخاذ القرار

بدأت الحكاية بموت عزيز لدي في عام ١٩٩٦م. حينها اتخذت قرارا شخصيا وواعيا بأن لا أقع فريسة للاكتئاب. وعوضا عن اليأس والقنوط قررت الالتحاق بدورة في التصوير الفوتوغرافي، وبعد مرور ثلاثة أعوام من ذلك قررت الاستمرار في الدراسة والحصول على درجة جامعية في ذلك الفن. غير أني أصبت في حادثة منعتني من مواصلة العمل في حقل التدريس، فتوفر لدي زمن فائض للتفكير والتأمل. حدثت نفسي بأن علي أن أوقظ في نفسي ما خمد من حب لعلوم النبات، إذ أن كل ما كنت أقوم به طوال حياتي كان يتعلق بالتصوير والتشكيل ورسم المناظر الطبيعية، والتعرف على النباتات. وكان كل ما أرسمه أو أصوره مستلهم من وحي الطبيعة. ولهذا السبب قمت بزيارة متحف التاريخ الطبيعي بلندن وبحثت في أرشيفه عن ابن خال لأمي (واسمه جيمس إدجار داندي) كان يعمل مسئولا في

قسم علم النبات بالمتحف البريطاني بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٦م. لم يسبق أن وقعت عيناي على قريبي هذا، غير أني عرفته أكثر كعالم نبات من خلال قراءتي لما تركه من وثائق ومذكرات وخرائط تتعلق برحلة علمية قام بها في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤م.

وقرأت في شغف ونهم بالغين كل ما له صلة بقريبي ذاك وبتلك الرحلة التي كان الغرض منها جمع عينات تربة ونباتات من مناطق مختلفة في السودان. ووجدت مذكرات الرجل مدهشة التفاصيل وبالغة الدقة، وبها خرائط متقنة للأماكن التي زارها مع مجموعته. ووجدت نفسي أقول لمسئول الأرشيف بالمتحف: «أوه... ألن يكون أمرا رائعا إن تمكنت من إعادة رحلة خالي بعد مرور سبعين عاما عليها!». ووجدت نفسي أجيب على سؤالي بالقول سرا: «نعم ... لم لا!؟ ولكني سأحتاج لدراسة البيولوجيا والحصول على درجة علمية فيها حتى يجد ما سأقوم به بعض التصديق والقبول! لقد بدأ الشغف (passion) - لحظة اتخاذ القرار الذي غير وجه حياتي وللأبد.

وعوضا عن درجة جامعية في فن التصوير الفوتوغرافي، غيرت اتجاه دراستي وحصلت في عام ٢٠٠٠م على منحة دراسية من مؤسسة BodyformCareer مكنتني من الالتحاق بجامعة تخرجت فيها بدرجة البكالوريوس في البيولوجيا متخصصة في فرع يتعلق بالحفاظ على بيولوجيا البيئة ConservationBiology وذلك في عام ٢٠٠٤م. وفور حصولي على تلك الدرجة استقلت من عملي وبدأت في تعلم اللغة العربية المنطوقة استعدادا للسير في خطى خالي، والقيام بذات ما قام به في رحلته في ثلاثينيات القرن الماضي.

البحث

كنت في غضون سنوات دراستي بالجامعة أواصل البحث والتنقيب في كل جوانب تلك الرحلة العلمية الفريدة، مستخدمة في البدء مذكرات داندي فحسب،

واكتشفت أنه كان في صحبة عالمين آخرين. وكان داندي يشير إليهما في مذكراته بالحرف الأول في اسم كل واحد منهما (وهما «م» و«س»). وبحثت في أمرهما وتبين لي أن «م» هو سيسيل جريهام تراكوار موريسون ، المحاضر بجامعة أكسفورد، والمتخصص في الكيمياء الزراعية والاقتصاد الريفي. وكان الرجل هو «قائد» تلك الحملة العلمية. أما الآخر المشار له بحرف «س» فقد كان هو دينستان سكيلبيك، وكان يعمل محاضرا في علم التربة بمدرسة الاقتصاد الزراعي بأكسفورد. أما قريبي جيمس إدجار داندي فقد كان عالم نبات بالمتحف البريطاني بلندن.

وبحثت عن عائلة خالي داندي حتى عثرت في عام ٢٠٠١م على ابنته، وتعرفت عليها وحصلت منها على مذكرات والدها. وبحثت كذلك عن ولده، وزرته في عام ٢٠٠٥م حين منحني أثمن هدية تلقيتها في حياتي وهي مجموعة من الصور التي التقطها والده في تلك الرحلة وعددها يفوق ثلاثمائة صورة فتوغرافية.

ويجد المرء في مذكرات الرجلين وصفا دقيقا لكل ساعة تقريبا من ساعات أيام تلك الرحلة العلمية. وتؤيد دوما المعلومات التي وردت في مذكرات أحدهما تلك التي وردت في مذكرات الآخر. واتسمت مذكرات داندي بالقصر، وبتركيزها على المعلومات المجردة، وخلوها من العاطفة والانفعال. بينما كان سكيلبيك يضيف لمذكراته العلمية الكثير من الألوان والعاطفة والتاريخ والأفكار وبواعث التفكير. وتم التأكيد من أبحاث مصادر أولية على صحة محتوى وتفاصيل كل المعلومات التي وردت في المذكرتين. وتغطي مذكرات داندي نحوا من عشرين أسبوعا (منذ تحركه من لندن ١/ ١٢/ ١٩٣٣م إلى تاريخ عودته لها في ٢١/ ٤/ ١٩٣٤م). بينما بدأت مذكرات سكيلبيك من يوم ٢١/ ١٢/ ١٩٣٣م في الأبيض، وانتهت يوم ١٦/ ٤/ ١٩٣٤م وهو على ظهر الباخرة «أرض الراجبوت Rajputana» وهو في طريقه إلى إنجلترا.

وعند نهاية تلك الرحلة العلمية تم تجميع كمية كبيرة من المعلومات والنتائج، وتقرر أن يقوم الباحثون بجمعها وتحريرها في كتاب. وجاء في نهاية سطور مذكرات سكيلبيك الآتي: «... سأعود مجددا لتلك الأرض القاسية الحارة ...»، ووجدت تلك الكلمات « الأرض القاسية الحارة» هي الأنسب لعنوان كتابي هذا.

وكما نعلم فلم يتمكن أي واحد رجال تلك البعثة العلمية من العودة مجددا لتلك الأرض... غير أني فعلت ذلك بالإنابة عنهم... بعد مرور ثلاثة وسبعين عاما تحديدا.

الحملة ١٩٣٣ – ١٩٣٤م

قام موريسون بتنظيم تلك الحملة العلمية بغرض بحث العلاقات بين التربة والنباتات التي تنمو عليها في مختلف أرجاء السودان (ذات الحرارة المتساوية تقريبا) والتي تتساقط عليها كميات متباينة من الأمطار سنويا. وكانت مهمة داندي المباشرة هي جمع مختلف أنواع النباتات للمتحف البريطاني. وأفلح الرجل في جمع ٧٤٧ عينة نباتية، شملت بعض أنواع الفطريات والحزاز / الأشنات lichens والطحالب. بينما قام موريسون وسكيلبيك بجمع عدد كبير من مختلف صنوف التربة، استخدمت فيما بعد لأغراض التدريس.

ولم أعثر على أي وثيقة عما أنفقه موريسون على تلك الحملة من مال. غير أني علمت أن سكيلبيك كان قد تحصل على منحة قدرها خمسة وعشرين جنيها من (جامعة) أكسفورد، بينما تحصل داندي على خمسين جنيها لتغطية نفقاته، شريطة أن تخصم خمسة عشر يوما من أيام الحملة من عطلته السنوية المعتادة!

وبدأ داندي رحلته على ظهر سفينة شحن هي SSMongolia من تيلبري في مقاطعة اسكس في ١/ ١٢/ ١٩٣٣م، بينما دبر موريسون وسكيلبيك برنامجا مختلفا فاعتليا ظهر تلك السفينة من مرسيليا بفرنسا. ووصل الرجال الثلاثة إلى

ميناء بورتسودان في الخامس عشر من ديسمبر، ومنها استقلوا القطار للخرطوم، والتي بلغوها في اليوم التالي. وأقام داندي في الخرطوم بمنزل جي ايلمر مفتش الغابات بحي المقرن، حيث تولى الرجل وزوجه تنظيم جولات لداندي في «غابة السنط» وحديقة الحيوان وبعض المناطق المختلفة في الخرطوم وأمدرمان وشمبات.

وفي الخرطوم قام أفراد الفريق بتحضير برنامج الحملة، وشراء المعدات اللازمة والملابس المناسبة من محل اس واس فانيان S&SVanian (وكان ذلك المتجر المتنوع البضائع المستوردة يقع في شارع البرلمان بالقرب من محل «مرهج» في«السوق الأفرنجي» ولعله ظل يعمل حتى بداية سبعينيات القرن الماضي. المترجم). وسافروا جميعا للأبيض بالقطار، والتي قاموا فيها بتدبير أمور الخدم والمواصلات. وفي تلك المدينة بقي الفريق بأكثر مما كان مخططا له بسبب صغر حجم اللوري الذي تم استئجاره. وأخير تقرر سفر الفريق إلى النهود بالسيارة وبلوري أكبر حجما. وفي الطريق توقف الفريق في ليلة عبد الفصح (الكريسماس) في استراحة «ود بندة»، حيث وجدوا فريقا من صائدي الحيوانات الوحشية يقيمون في تلك الاستراحة. ثم بدأت مسيرة الفريق العلمي نحو الفاشر، وبدأ في الطريق لتلك الحاضرة العمل في جمع عينات مختلف أنواع النباتات إلى أن بلغوا الفاشر في ٢٧ / ١٢/ ١٩٣٣م.

ومن الفاشر، وفي الطريق إلى زالنجي، تم تنظيم قافلة على ظهور الحمير في جلدو Guldu استعداد لمسيرة تبلغ عشرة أيام إلى جبل مرة. وهنا تخلف موريسون عن مرافقة الوفد، وحل محله البريطاني ماكسويل كين والذي كان يسكن زالنجي مرشدا للفريق. ومن جلدو بدأ الفريق في الصعود لجبل مرة إلى أن وصل أخيرا إلى Nyuringya مركز الفور، والذين قام سكيلبيك بالكتابة في مذكراتهعنهم وعن عاداتهم. وفي الطريق لأعلى الجبل مر الفريق العلمي بعدد من القرى القائمة في

أودية شديدة الخصوبة والخضرة وتكثر بها زراعة المدرجات (terracedcultivation) والأشجار. وأكمل داندي وسكيلبيك الصعود إلى قمة الجبل سيرا على الأقدام أو على ظهور البغال، وظلا يجمعان عينات مختلفة من أنواع التربة والنباتات قبل أن يعودا إلى نيرتتي، والتي قضيا فيها أياما إضافية. وكانت رحلة العودة من أعلى الجبل عسيرة وبطيئة، فكان على الشخص أن يهبط ببطء عبر ترسبات ملحية وشقوق عميقة في أحجار الخفان (pumicestones) كانت من الضيق بحيث لا تسمح إلا بمرور شخص (أو حيوان) واحد فقط. وقام سكيلبيك بجمع عينات من التربة في كورينجا حيث مناجم الملح الضخمة. ومضى الفريق في طريقه إلى بحيرات ديربا حيث أقاموا حولها معسكرهم. وطفقداندي في جمع عيناته حول البحيرة، بينما قضى سكيلبيك وكين معظم الوقت في السباحة في الجزء «الذكري» من البحيرات، فالأهالي يطلقون على البحيرة الأصغر والأعمق «البحيرة الذكر»، ويطلقون على الأخرى «البحيرة الأنثى»! (توجد على الشبكة العنكبوتية صورة بالغة الروعة لتلك البحيرة https://twitter.com/m1434g/status/340846359366209536 .لمترجم). وأظهرت صورة بالأقمار الصناعية أن حجم البحيرة «الأنثى» الحالي أصغر مما كانت عليه في عام ١٩٣٤م.

ثم هبط الجميع إلى كالوكيتنيق Kalokitting، حيث نقلهم لوري إلى الفاشر في خمسة أيام. وعند إحصاء ما تم جمعه من نباتات من دارفور تبين أن داندي كان قد جمع ٢٠٠ عينة نباتية من منطقة جبل مرة وحدها، وكان هذا رقما غير مسبوق في زمانه.

وعاد الفريق إلى كردفان مرة أخرى عن طريق النهود، وعبر منها إلى الدلنج، حيث قام بجمع عينات تربة ونباتات من جبل كرمتي وسرف كالندي وجبال مندال، ومنها ساروا إلى كادقلي والتي زاروا فيها مزرعة ومحلجا للقطن ومزرعة

تجريبية. وكتب داندي عن تلك المزرعة وقطنها «التجريبي» والـذي كـان يرحـل من كادقلي إلى الأبيض ليصـل في نهايـة المطـاف إلى مانشيسـتر. وأرتحـل الفريـق باللواري إلى بيرداب وجبال كاتشا وكافينا وبقية جبـال النوبـة، حيـث جمعـوا منهـا ١٥٠ عينة نباتية، وعددا مماثلا من مختلف أصناف التربة.

وفي الخامس من فبراير وصل الفريق إلى تلودي ووجد أن الحرارة فيهـا بلغـت ٤٣ درجة مئوية (والفصل هو فصل الشتاء!) وزاروا فيها محلجـا للقطـن وجمعـوا بعض العينات، قبل أن يتوجهوا إلى تونقـا حيـث قـابلوا قسيسـا (إيطاليـا؟) اسـمه أكورسي يجيد لغة الشلك. وبعد ذلك سافر الفريق ولمدة أسبوع كامل على ظهـر الباخرة «الرجاف» من ملكال إلى جوبا في مديرية منقلا. وكـان مـن ضـمن ركـاب تلك الباخرة أوربيون كثر منهم أميرة رومانية (كان يشك في أنهـا «أميـرة مزيفـة»)، وسيدة أعمال سويسرية تملك شركةCelanese ومصانع بيرة كارليسبيرج، كانت في رفقة ولدها (والذي كان يعتقد أن والدته ترتدي ملابس غيـر مناسـبة تمامـا!)، وأسقف كريـدون البريطـاني وعائلتـه، وهـم في طـريقهم ليوغنـدا، مـع عـدد مـن الأساقفة في طريقهم لجوبا حيث سيعقد مؤتمر للأساقفة هنالك.

(توسعت الكاتبة بعد ذلك في وصف ما قام به الفريق العلمي من جمع للنباتـات والتربـة (وبعـض الأسـماك أيضـا) في جوبـا ويـاي ويـامبيو ورمبيـك وشـامبي. ووصـفت أيضـا مجهـودات الأطبـاء في مكافحـة العمـى (الـذي أسـمته «عمـى السودان»)، وكيف أن سكيلبيك أصيب بالملاريا والتي جعلته يتخلف عـن بـاقي أفراد فريقه، والذين عادوا للخرطوم، حيث تقابلوا جميعا، ومنها سافروا بالقطار إلى وادي حلفا ومنها إلى مصر. المترجم).

وبعد قراءتي لمذكرات سكيلبيك وداندي ازداد إصراري عـلى تتبـع خطـواتهم، والقيام بذات الرحلة، وتحقيق ما عجزوا عنه من العـودة لتلـك «الأرض القاسـية الحارة».

التخطيط لزيارة الخرطوم في ٢٠٠٧م

استعنت في التخطيط لرحلتي المرتقبة للخرطوم بمذكرات داندي وسكيلبيك، وبقائمة اسماء النباتات وأنواع التربة التي جمعاها، والصور التي التقطها داندي (وكل ذلك مذكور في كتابي) إضافة إلى مصادر أولية منها وثائق وأوراق علمية ورسائل ومواد أرشيفية كان منها قائمة بأسماء زعماء قبائل وحكام وعلماء نبات ومفتشي مراكز وعلماء حشرات وقساوسة وأطباء وسواح وغيرهم.

ولم يكن من المتيسر لي تتبع كل خطى ذلك الفريق العلمي. غير أني كنت أعلم أنه من الضروري أن أبدأ رحلتي من الخرطوم، تلك المدينة التي بدأت منها رحلة الفريق العلمي وانتهت. وقررت أن تكون زيارتي للخرطوم بين ٢٦ فبراير و١٢ مارس ٢٠٠٧م. فقمت بحجز تذكرة الطائرة وغرفة في فندق الأكربول في أبريل ٢٠٠٦م. وبعد إكمال تلك الإجراءات سافرت لأكسفورد في مايو ٢٠٠٦م لمعرفة المزيد عن قائد تلك الفريق العلمي موريسون، وستلبيك، وقمت أيضا بتصوير أسماك الـ polypterus التي أصطادها رجال قبيلة الباريا من النيل الأبيض في «ديم سليمان» في ١٩٣٤م، وأحتفظ بها داندي في ثلاثة قوارير كبيرة بمتحف التاريخ الطبيعي في جامعة أكسفورد.

وكان الحصول على تأشيرة دخول السودان أعسر مما تصورت. وتلقيت كثيرا من النصائح المتناقضة من مختلف الجهات بخصوص التأشيرة قبا أن أتقدم بجوازي لسفارة السودان بلندن للحصول على التأشيرة. وبقي جوازي لثلاثة أشهر كاملة فيها قبل أن أستلمه. وعند استلامي لجوازي تبين لي أن صلاحية تأشيرتي كانت قد انتهت منذ فبراير ٢٠٠٧م. وأخبرت أيضا أن إصدار تأشيرة جديدة ليس ممكنا. وبعد تبادل عدة رسائل ومحادثات هاتفية قلقة تم السماح لي أخيرا بإعادة تقديم طلبي للحصول على التأشيرة. وكان مما زاد الطين بلة أن مصرفي لم يكن لديه أي معلومات عن السودان، وكذلك كان العاملون بوكالة السفر التي تعاملت معها

لا يعلمون عن أي شخص يرغب في زيارة السودان في تلك الأيام.

لقد كانت رحلة الخرطوم لمدة أسبوعين بالنسبة لي أمرا خطيرا وهما عظيما بالنظر إلى أنني لم أركب أي طائرة في حياتي سوى لمدة ١٠ دقائق في طائرة صغيرة بجناحين متوازيين (bi-plane) في عام ١٩٥٤م، ولم أغادر بريطانيا في حياتي إلا في رحلة (برية) مع مدرسة الفنون إلى باريس لمدة عشرة أيام في ١٩٦٢م. ومما زاد الأمر سوءا هو قلة مصادري المالية، فأنا متقاعدة عن العمل ولم أحصل على أي منحة من أي جهة لتمويل رحلتي هذه. ورغم اقتصادي (بل وتقتيري) الشديد على نفسي في الملبس والمأكل فقد كلفتني تلك الرحلة نحو ٤٠٪ من دخلي السنوي الكلي.

وقمت قبل السفر للخرطوم بالاتصال بالمعشبة بقسم النبات بكلية العلوم بجامعة الخرطوم، ورئيس الجمعية السودانية لأرشفة المعرفة The Sudanese Association for Archiving knowledge(لعله السيد إبراهيم منعم منصور. المترجم) والذي دلتني عليه سيدة بريطانية كان والدها قد قابل أفراد ذلك الفريق العلمي في النهود (حيث كان مساعدا لمفتش المركز) في يناير من عام ١٩٣٤م. كذلك حصلت من بروفيسور أنور عثمان أستاذ علم الآثار ببيرقين بالنرويج على دعوة لزيارة دار الوثائق بالخرطوم (في دارها الجديدة التي افتتحت في ٢٠٠٦م). ومن عجب فقد عجزت عن التواصل المباشر مع تلك الدار بالخرطوم وأنا في لندن، فقمت بالاتصال ببيرقن وتم لي ما أرد بعد أن تواصل بروفيسور أنور (والذي كان قد شهد حفل افتتاح مبنى تلك الدار الجديد قبل أسابيع من تواصلي معه) مع مدير الدار علي صالح كرار.

الخرطوم ٢٠٠٧م

كان الإجهاد والتوتر الذي قاسيته قبل بدء تلك الرحلة عظيما. غير أن الرحلة بالطائرة كانت ممتعة جدا، خاصة عندما قربنا من الخرطوم، ورأيت الصحراء –

لأول مرة في حياتي- من عل. وما أن هبطنا في الخرطوم وأخذتني سيارة أجرة لفندق الأكربول مع ثلاثة ضيوف آخرين حتى زال تماما ما كان بي من قلق وإجهاد. وكانت درجة الحرارة يومها ٣٦ درجة مئوية، وذلك ما كان يناسبني تماما. وأحببت الخرطوم من النظرة الأولى، وأحببت فندقي الصغير والذي أولاني – كما يفعل مع كل ضيوفه - كل عناية واهتمام حتى قبل وصولي للخرطوم، وزودني بكل المعلومات الضرورية وما ينبغي علي فعله وما علي تجنبه.

وكنت أتجول في الخرطوم في كل مكان وأنا أحمل قارورة ماء في يدي اليمنى وخريطة للمدينة في يدي اليسرى وأضع حقيبة صغيرة على كتفي. وكان المواطنون يرحبون بي ويمدون لي أيديهم مصافحين في ود حقيقي ظاهر حيثما ذهبت. ولم تفتني ملاحظة أن «التواصل بالعين eyecontact» عند السودانيين مختلف جدا عنما ألفته في بريطانيا (لعلها تقصد بصورة أكثر صراحة ممارسة التحديق / البَحْلَقَة في الآخرين! المترجم). لقد شعرت بالأمان وأنا أسير بمفردي في الخرطوم ليلا مثلما أشعر به وأنا أسير في أي مدينة صغيرة ببريطانيا نهارا.

وبحثت في الخرطوم عن المنزل الذي أقام به داندي في عام ١٩٣٤م، ودلني عليه رجل سوداني (هو أحمد عزيز مسئول العلاقات العامة بوزارة الزراعة) وأنا في زيارة غير مرتب لها سلفا لرئاسة تلك الوزارة. أخذني الرجل بسيارته عبر شارع الجامعة غربا إلى المشتل في منطقة المقرن. ووجدت أن المنزل المقصود قد تم تغييره قبل نحو خمسين عاما، وأن الشتول التي غرسها خالي عام ١٩٣٣م قد صارت الآن أشجارا ضخمة. وقمت - وأنا في غاية الانفعال العاطفي- بأخذ عدد من الصور الفتوغرافية لذلك المنزل، وقام أحمد مشكورا بتصويري وأنا واقفة بقرب تلك الشجرة التي غرسها قريبي قبل سبعين عاما، وذلك قبل أن يرجعني لمبنى الوزارة ويسرع بالذهاب من فوره لحضور اجتماع. وحزنت جدا عندما سألت عن حديقة الحيوان وأخبرت أنها قد أزيلت من مكانها. لقد كان داندي قد

التقط صورا فتوغرافية كثيرة لحيوانات تلك الحديقة، كانت من ضمنها صورة بديعة لطائر اللقلق «أبو سعن».

وكان داندي قد زار أيضا «غابة السنط» والتي كان قد تقرر في ١٩٣٩م أن تصبح ملاذا (حظيرة) للحيوانات البرية (خاصة الطيور). ووجدت تلك الغابة في ٢٠٠٧م وقد استحالت لسوق مفتوحة لباعة التحف الخشبية والأحواض والحمامات (sinksandbaths) أيضا!

وكان داندي قد التقط عددا كبيرا من الصور الفتوغرافية من الخرطوم في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤م. وكانت واحدة من أغراض زيارتي للخرطوم هي التقاط أكبر عدد من الصور لكل تلك الأماكن. وبالفعل أفلحت في فعل كل ذلك في أيامي بالخرطوم (ما عدا تمثال كتشنر والذي كان موجودا في الميدان الواقع أمام وزارة المالية، والذي تم ترحيله لثكنات كتشنر في جيثام بمقاطعة كنت). ومنعتني الشرطة من تصوير المكان الذي كان يقف عليه ذلك التمثال. غير أني تمكنت من تصوير الجامع الكبير (القريب من فندقي) ومحطة السكة حديد ومدرسة كتشنر الطبية (كلية الطب الآن) ومعمل استاك للأبحاث في الجهة المقابلة لكلية الطب.

لقد كان شعورا غامرا بالعاطفة الجياشة أن أجوب ذات الشوارع التي سار عليها خالي قبل نيف وسبعين عاما.

وقمت بزيارة بيت الخليفة في أمدرمان في الثالث من مارس ٢٠٠٧م ووجدته ذات البيت الذي قام بتصويره خالي داندي في الثامن أبريل ١٩٣٤م، غير أن مبان كثيرة قامت حوله الآن، وأن الأشجار المحيطة به قد غدت أضخم حجما. وعوضا عن حارسين كانا يرتديان ثيابا تقليدية (كما في صورة عام ١٩٣٤م) فقد وجدت في ٢٠٠٧م ثلاثة من رجال شرطة السياحة يرتدون زيا غربيا أزرق اللون يجلسون بالقرب من سيارتهم حراسا على ذلك البيت.

لطالما رغبت في التقاط صورة لمبنى المتحف القومي على النيل وإهدائها إلى ولد وبنت أنتوني آركيل، والذي أنشأ أول متحف بالخرطوم في عام ١٩٣٨م. وكان آركل قد خلف جي. دبليو. قرابام والذي تقاعد عن العمل في قسم الآثار وعمل بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٨م على إنشاء متحف الخرطوم. وأقيم المتحف أولا في مبنى كلية غردون التذكارية قبل نقله المنطقة أخرى بالخرطوم. وكان ولد وبنت آركل قد بعثا لي بمذكرات والدتهما، والتي جاء فيها أنها وزوجها كانا قد استضافتا ذات ليلة داندي وسكيلبيك وموريسون في الفاشر حيث كان آركل يعمل بها مفتشا للمركز.

وزرت المعشبة في قسم النبات بكلية العلوم في جامعة الخرطوم، وتأملت في ما تختزنه تلك المعشبة من نباتات. وأخبرتني الدكتور مها الكردفاني مسئولة المعشبة بأنهم يفتقدون لأي سجلات تاريخية عن النباتات بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٧م، وأن كتابي سيسد فجوة كبيرة في ذلك الجانب. وعند عودتي لبريطانيا علمت أن طالبتين سودانيتين قد حصلتا على درجة الماجستير في علم تصنيف النباتات، وان إحداهما قد اكتشفت نوعا جديد لم يسبق لأحد تسجيل تصنيفه من قبل. وعلمت من زيارتي للجامعة أن هنالك كثيرا من الامتحانات تجرى باللغة الانجليزية، رغم أن الكثيرين لا يفهمونها أو يتحدثون بها بطلاقة، إذ أن لغتهم الأولى هي العربية.

وقمت ذات يوم بزيارة لرئيس الجمعية السودانية لأرشفة المعرفة، السيد إبراهيم منعم منصور، وكان معه ابنه وجمع من الناس. واكتشفت من خلال الحديث معه أن والده، عبد السلام، كان هو الناظر القبلي الذي قابل داندي في الفاشر في عام١٩٣٤م . وكتب لي فيما بعد السيد إبراهيم منصور خطابا رقيقا جاء فيه «... إن للعمل الذي تقومين به قيمة تاريخية وأخلاقية وعاطفية عظيمة. إنه يحفظ للأجيال القادمة ما كان عليه الحال في تلك السنوات البعيدة في بلادنا. ...لك مني كل التقدير والاحترام... وارجو أن تستمر هذه المكاتبات بيننا».

لم يكن هنالك أي سواح في فندق الأكربول عند نزولي به. غير أني قابلت في ذلك الفندق رجلا استراليا اسمه ماكس رايلي، وتملكني العجب عندما أخبرني الرجل بأن أحد أعمامه كان قد قابل داندي وصحبه في فبراير من عام ١٩٣٤م وهم على ظهر باخرة نيلية اسمها«الرجاف». وتذكرت بالفعل أن قسيسا يحما اسم آرثر رايلي وزوجه كانا من ضمن من ذكرهم داندي في مذكراته عند ذكره لوفد الكنائس الذي كان يرافقهم في تلك الباخرة وهم في طريقهم لمؤتمر كنسي في جوبا كان سيعقد بين الخامس عشر والثامن عشر من فبراير، مع ثلة من القساوسة (وتأكدت من اسمائهم جميعا من مراجعة وقائع ذلك المؤتمر).

وعلى ذكر تلك الباخرة، فقد كان على ظهرها أيضا دكتور باركر، وهو شيخ كبير من كمبريا بإنجلترا. وكان الرجل – بحسب ما قرأت في مذكرات داندي- قد دفع شلنا كاملا (خمسة قروش) لشراء حذاء باتا أبيض اللون عندما كان في الخرطوم. وبحثت في أيامي بالخرطوم عن محل باتا هذا، ولكني علمت أنه كان بشارع الجمهورية ولكنه للأسف أغلق قبل سنوات قليلة.

وفي أثناء بحثي عن محل باتا صادفت مبنى السودان للأقطان. وطلبت مقابلة أحد المسئولين فيه، وأفلحت في الحصول على موعد مع المدير المالي للمؤسسة في اليوم التالي. وعند مقابلتي للرجل، والتي امتدت لساعتين، أخذني في جولة بشارع البرلمان وأطلعني على عينات من نباتات القطن البرية وزهورها الصفراء اللون، وبذورها الصغيرة. وأراني كذلك أشجار النيم والمسكيت في ذات المنطقة. وكان داندي قد غرس شتول المسكيت في منطقة بالخرطوم (أسمتها الكاتبة KhartoumFootFoxHounds المترجم) في أبريل من عام ١٩٣٤م. ولا أدري موقع تلك المنطقة بالتحديد ولكن ربما تكون بالقرب من منطقة المقرن. وذكر لي مدير الأبحاث بمؤسسة القطن أنه سيحضر مؤتمرا عالميا عن الأقطان بليفربول في أبريل من ٢٠٠٧م، واتفقنا على اللقاء هنالك.

وكنت قبل سفري للخرطوم قد أرسلت رسائل لمكتبة جامعة الخرطوم ولعدد من الكليات بالجامعة، غير أني لم أتلق من أي منهم ردا. وقمت بزيارة المكتبة في الخرطوم، غير أني دهشت من عدم قدرة أي ممن قابلتهم من الموظفين على التحدث باللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من أني تعلمت قبل حضوري للخرطوم قليلا من العربية، إلا أنني كنت أدرك أنها كانت قليلة النفع عند الحديث مع موظفي تلك المكتبة.

سأعود

أكملت بحثي في الخرطوم، أو كدت. وتبقى لي أن أبحث عن ناشر مناسب لكتابي (الضخم، والذي يزن قرابة الكيلوجرامين)، وكان همي أن يحافظ ذلك الناشر على النوعية الممتازة للصور الفتوغرافية التي التقطها داندي.

سأقوم من الآن فصاعدا بتعلم العربية (الدراجة السودانية)، وبعد نشر الكتاب سأبعث بنسخ منه للذين ساعدوني في أيام زيارتي للخرطوم. لقد كانت أيامي القليلة في الخرطوم عامرة بالإنتاج والسعادة والمتعة التي رفعت من روحي المعنوية .

لقد نشأت منذ مولدي في منطقة خضراء منبسطة وذات حدائق غناء...و هذا ما ألفته وأحببته طوال حياتي. والخرطوم مدينة حارة ومزدحمة وجرداء غبراء ومزعجة ومليئة بالحفر وركام النفايات. ورغم ذلك تعلق قلبي بها. قال لي أحدهم في الفندق: «إما أن تحبين الخرطوم أو تمقتينها ... لا توجد منطقة وسطى».

الحق يقال: ما يزال قلبي معلقا بالخرطوم. لا بد أن أعود لها يوما ما.

***

ملحوظة: بحسب ما علمت من موقع الكاتبة فإنها فشلت في العثور على ناشر لكتابها، فتولت أمر نشره وتوزيعه بنفسها. المترجم

مقتطفات من كتاب «قيود من حرير»

العامل الإنساني في الإدارة البريطانية بالسودان

Bonds of Silk: The human factor in the British Administration of the Sudan

Francis M. Deng and M. W. Daly فرانسيس م. دينق ومارتن وليام دالي

مقدمة: هذه ترجمة لبعض فقرات متفرقة وردت في كتاب لفرانسيس دينق ومارتن دالي عنوانه «قيود من حرير: العامل الإنساني في الإدارة البريطانية بالسودان» صدر بالولايات المتحدة عن دار نشر جامعة ميتشغان في عام ١٩٨٩م. ودكتور فرانسيس دينق (١٩٣٨م -) هو سياسي ودبلوماسي وكاتب من جنوب السودان، عمل في سبعينيات القرن الماضي وزيرا للدولة بالخارجية في عهد جعفر نميري، ثم دبلوماسيا بالأمم المتحدة. أما بروفيسور دالي (١٩٣٠م -) فهو أستاذ جامعي أمريكي متخصص في الشأن السوداني وله عدد كبير من المقالات والكتب عن السودان منها الكتاب العمدة «تاريخ السودان منذ دخول الإسلام حتى العصر الحالي» بالاشتراك مع المؤرخ البريطاني هولت، و«إمبراطورية على النيل» وأخيرا كتاب «أحزان دارفور»، والذي كنا قد ترجمنا عرضا له قبل سنوات.

والكتاب يرصد شهادات بريطانيين عملوا بالسودان في سنوات الحكم الثنائي في مجالات الإدارة أو التعليم، وسودانيين (من الشمال والجنوب) عاصروا تلك السنوات طلابا أو موظفين حكوميين أو زعماء قبائل.

المترجم

**** **** ****

تنبه الحكم البريطاني – المصري في السودان إلى الأخطاء التي ارتكبها الحكم التركي – المصري فلم يكررها، وألزم نفسه باحترام ديانة أهل الشمال وعاداتهم وتقاليدهم. غير أن ذلك الحكم عد سكان الجنوب شعبا وثنيا متخلفا لا يحتاج إلا إلى الحماية والوصاية. وبينما منع ذلك الحكم المبشرين المسيحين من العمل في شمال البلاد، فإنهم شجعهم على الدخول للجنوب وتمدين أهله، وحرص على تمثيل كل أطياف المذاهب المسيحية بالجنوب خوفا من إثارة منافسات وتسابق بين مبشري تلك المذاهب المختلفة. وجعل الحكم البريطاني – المصري اللغة الإنجليزية هي لغة التخاطب والتعليم في الجنوب في مراحل مبكرة، وقصر التعليم بالإنجليزية على المدارس الثانوية. وكان ذلك الحكم يؤثر التجار الأغاريق على التجار العرب في الجنوب، والذين كان يخشى من تأثيرهم المحتمل على السكان القابلين للتأثر السريع بالغير. وقنن سياسة عرفت بـ «سياسة الجنوب» تقضي بجعل منطقة الجنوب «منطقة مقفولة» لتنظم وتحد من دخول الشماليين له، ولتدع للجنوبيين فرصة لتطوير أنفسهم وفقا لعاداتهم وتقاليدهم، وحمايتهم من «تأثيرات الحداثة المفسدة» ومن «استغلال عديمي الضمير من عرب الشمال».

***

كان كل المسئولين البريطانيين في غالب فترات الحكم الاستعماري في رتب أعلى من الموظفين السودانيين، غير أن محدودية معرفة المسئولين البريطانيين باللغة والعادات المحلية، واضطرارهم للاعتماد على مرؤوسيهم من الموظفين السودانيين الأكثر معرفة عقدت من طبيعة العلاقات (الاجتماعية) بين الطرفين. وقال الإداري لورنس بوخانين إن المفتشين البريطانيين كانوا يخصون زعماء القبائل بمعاملة أكثر ندية من معاملتهم لغيرهم من الأهالي. وقد يكون هذا بسبب

سلطات ونفوذ هؤلاء على مواطنيهم، ولتعذر سير الأمور والحفاظ علي الأمن والاستقرار دون تعاون هؤلاء الزعماء. وهنا رسم موريس لش تفريقا واضحا بين «السلطة القانونية» التي كان يتمتع بها المفتش البريطاني، و«السلطة الحقيقية»، والتي كانت بيد زعماء القبائل. فهؤلاء الزعماء كما قال لش: «هم رؤسائي الحقيقين، فقد تعلمت منهم - وليس من غيرهم- كل ما ينبغي تعلمه عن الحياة السودانية. فالعلاقة بين المفتش وزعيم القبيلة وشيوخها لم تكن أبدا علاقة «رئيس» و«مرؤوس. فعند مروري أمام شيخ قبيلة فإنه ينزل من حماره كدلالة على التحية والاحترام، وأقوم أنا بفعل ذات الشيء، فهو يمثل «الناس» وأنا أمثل «الحكومة، وعلينا أن نتعامل مع بعضنا البعض بأخلاق طيبة«.

***

لقد فشل مؤتمر الخريجين في الحفاظ على جبهة موحدة، وأنقسم أعضائه على أنفسهم وتوزعوا على الطائفتين المهدية والميرغنية. ورعى السيد عبد الرحمن المهدي حزب الأمة، والذي كان غالب أعضائه من المهدويين، ورفع شعار «السودان للسودانيين». بينما نادى أتباع زعيم الختمية السيد علي الميرغني بشعار «وحدة وادي النيل»، والمقصود بالطبع هو الاتحاد مع مصر كوسيلة لطرد البريطانيين من السودان. وجلبت رغبة حزب الأمة في التعاون مع البريطانيين جملة من الفوائد والأضرار على الطرفين، بينما أكسب رفض الاتحاديين الاشتراك في عملية الإصلاحات التي نادت وعملت لها الحكومة سمعةً (وطنية) كحزب معارض للاستعمار. غير أن لورنس بوخانين يقول بأن الحزبين كان يعوزهما النضج، ولم تكن غالب جماهير الشعب السوداني تأخذهما على محمل الجد. وأضاف قائلا: «لم يكن أمر الاستقلال الوطني عند القادة القبليين أمرا ممكن عمليا. وعلى العكس من هؤلاء، كان كبار المسئولين ينادون بالوطنية، ربما تفاديا لحقائق الانتقال السياسي للسلطة. ولم تظهر أحزاب ذات برنامج اجتماعية للتنمية

والديمقراطية، حتى بداية الخمسينات حين لاح في الأفق الحكم الذاتي. وكانت الوطنية في المناطق خارج العاصمة صورية ومصطنعة نوعا ما. فقد ظلت كل ميول الناس قبلية في الأساس. وتركزت بؤرة السياسة في الزعماء الدينيين والولاء القبلي. وكان الصراع يدور في الأساس ين طائفتي الختمية والأنصار».

ونتيجة لتمدد النفوذ الطائفي بدأ الشباب المستاء في التكتل في أحزاب أيديولوجية. ولاحظ الأستاذ جيمس دونقي ظهور تغير في طلابه، إذ تحولوا عن الميرغنية والمهدوية، وضح التأثير الشيوعي (والمال) بعد الخمسينيات. وكان الحزب الشيوعي السوداني وحركة الإخوان المسلمين قد تكونتا فعلا في منتصف الأربعينيات. وقال وليام فارهارسون – رنج إنه كان يعرف زعيم الحزب الشيوعي (عبد الخالق محجوب) شخصيا، فقد كان أحد طلابه، وكان يعده أحد أذكى الطلاب الذين قام بتدريسهم، وكان يراه في ذلك الوقت من أكثرهم لطفا. وكان ذات الأستاذ، فارهارسون – رنج، وثيق الصلة أيضا بقادة الأشقاء وحزب الأمة، ولعب دورا صغيرا (وسريا أيضا) في عملية إنشاء حزب الأمة، وكان على علاقة جيدة أيضا بزعيم الأشقاء إسماعيل الأزهري حين كان يعمل مدرسا في مدرسة أم درمان الثانوية التي كان ناظرا لها. وشعر بالأسف لاضطراره لفصله من وظيفته الحكومية في هيئة التدريس بالمدرسة لتجاهله المستمر لواجباته التدريسية. غير أن الأزهري كان شهما كريما مع ناظره السابق، فدعاه، هو وزوجته، بعد أن أصبح رئيسا للوزراء في مساء اليوم الذي سبق يوم رحيله من البلاد في عام ١٩٥٥م إلى تناول المرطبات في داره، وتبادل معه النَّخْبُ قائلا: «عفا الله عما سلفletbygonesbebygones».

***

كان كينيث هندرسون يصر على أن الإذعان والاحترام المفرط الذي كان يبديه الرجل السوداني العادي للبريطانيين مرده هو تهذيبه الشديد، فقال: «يعد السوداني في المناطق الريفية الرجل البريطاني كيانا سماويا / الهيا... (divinebeing) هذا

بالطبع إن لم يغضب منك، فعندها قد تسمع منه كلاما مختلفا جدا! والعرب – على وجه العموم- أكثر شعوب الأرض مهارة في الإطراء والمداهنة والتملق. فقد وصفني أحد هؤلاء ذات مرة بأني خير من قدم لمنطقته في الثلاثين عاما الماضية من المفتشين. ويدرك المرء بالطبع الدوافع الدنيئة (basemotives) التي تملي عليهم مثل تلك الأقوال، غير أنه يجب الاعتراف بأن مثل تلك الأقوال قد ترفع من روح المرء المعنوية».

ويجب أيضا أن ندرك أن ذلك «الملق» قد يكون مرده إلى صحة تفسير / ترجمة ما يقال. فقد حدث ذات مرة أن نقل موريس لش للعمل مفتشا في المديرية الشمالية، فقال له أحد عمد المنطقة: «المفتش الذي سبقك في العمل بالمنطقة كان مجيدا للعربية، ولكننا لم نكن نفهم كلمة واحدة مما كان ينطق به. وأنت لغتك العربية رديئة ولكننا نفهم تماما كل كلمة تقولها». وأضاف موريس لش تقييما آخر للبريطانيين من وجهة نظر رجل جعلي سكير، ولكنه لطيف، صاح ذات يوم وهو يقتحم مكتب المفتش بالتالي: «والله أنا مبسوط لأني ممكن أجي مكتب الحكومة وأكلمك بدون خوف انو أنا مظلوم. أنا مظلوم وكايس العدل من الحكومة». وقال مفتش آخر أن «السودانيون يدركون بصدق أني أعمل من أجلهم ويقدرون ذلك. ويعلمون أنني رجل حامي الطبع، وقليل الصبر، ويضيق صدري أحيانا، ولكنهم يعلمون أيضا أني موظف مخلص أعمل في خدمة الحكومة من أجلهم. وقد قاسيت حتى أتعلم وأجيد العربية ليسهل التفاهم بيني وبينهم، وهذا دليل على رغبتي في خدمتهم.»

ولخص قاون بيل مدى تجاوز العامل الإنساني في الحكم البريطاني لانشقاقات وعدوات الهيمنة الأجنبية فقال: «عندما ذهبت لشمال نيجيريا حاكما لها بعد سنوات من مغادرتي للسودان، زارني عبد الله خليل رئيس وزراء السودان والذي كان في زيارة لشمال نيجريا لمقابلة الساسة هنالك. وبعد مغادرته لنيجيريا أخبرني

هؤلاء الساسة النيجيريين بأن عبد الله خليل قدم لهم نصيحة غير متوقعة. فقد قال لهم«: بحق الإله لا تستعجلوا في التخلص من المسئولين البريطانيين». ولما تعجبوا من قوله وسألوه منكرين عن السبب رد عليهم بالقول: «رغم أنهم كانوا سادتكم في الماضي، إلا أنهم سيكونون الآن خير خدم لكم. وإن تخلصتم منهم الآن، فقد تجدوا أنفسكم مضطرين لتعيين من يخلفهم من خارج بلادكم، غير أن هؤلاء الجدد لن يكونوا أبدا في ذات المستوى الرفيع الذي ترونه عند البريطانيين الآن».

***

كان لداؤود عبد اللطيف بعض التوجهات الاشتراكية والوطنية في سنوات الطلب بكلية غردون. وحكى الرجل أنه، وبعد تخرجه من كلية غردون، انضم لمدرسة مساعدي المآمير، وقام ذات يوم بإلقاء خطبة عصماء في حشد من الناس، فقد كان أول مساعد مأمور يعين سكرتيرا لنادي الخريجين. وكانت المناسبة هي زيارة السيد عبد الرحمن المهدي لدنقلا، معقل الطائفة / الطريقة الختمية، والتي يقودها منافسه وخصمه اللدود السيد علي الميرغني. وكان البريطانيون يحسون بالشك والانزعاج وعدم الرضا من «غزوة» ابن المهدي لمعقل الختمية. غير أن السيد عبد الرحمن هون من أمر الزيارة وقال لهم بأنه إنما يزور مسقط رأس والده. وذكر داؤود عبد اللطيف في خطبته ما يفيد بأن تلك الزيارة هي زيارة تاريخية، لأنها المرة الأولى التي يسمح فيها البريطانيون لأبناء البلاد بالعودة لجذورهم، وعد الزيارة بداية للحركة الوطنية. ونشرت صحيفة النيل (لسان حزب الأمة) نص تلك الخطبة. وسرعان ما تحصل مساعد السكرتير الإداري على ترجمة كاملة لتلك الخطبة فقرر من فوره عقد «مجلس تأديب» للموظف داؤود عبد اللطيف، وأمره بالاعتذار كتابة عما ذكره في خطبته، فرد عليه داؤود في حدة بأنه لن يكتب اعتذارا بل سيكتب استقالة من العمل. وبالفعل كتب الاستقالة وقدمها في الحال وغادر

مكتب مساعد السكرتير الإداري. ولما سمع السكرتير الإداري السير دوجلاس نيوبولد بالقصة فقال: «نادوا هذا الولد ليقابلني». ولما أقبل عليه داؤود نهض الرجل واستقبله عند الباب مثلما يفعل عند استقبال الشخصيات المهمة وقاده لمقعده وقدم له قهوة، وبدأ يتحدث معه في مختلف الشئون والموضوعات المختلفة التي شملت الأدب الإنجليزي والشعر وغير ذلك، وتحاشى تماما الحديث في أمر الخطبة والاعتذار والاستقالة. وعندما هم داؤود بالانصراف قال له نيوبولد وهو يودعه: «انس موضوع الاعتذار. ليس مهما». وعلم داؤود لاحقا أن نيوبولد كتب عنه مذكرة صغيرة جاء فيها التالي: «هذا الولد له عقل سياسي. سيكون إما معنا أو ضدنا. وأنا أفضل أن يكون معنا، لذا يجب ألا ينقل لأي مكان دون موافقتي. سأهتم بأمره شخصيا... وأرفق الآن مسودة قرار يمنع كل موظفي الحكومة من الاشتغال بالسياسة». وكان البريطانيون قبل ذلك لا يرون ضيرا في اشتغال الموظفين بالأمور السياسية، بل كانوا يشجعونهم على الاشتغال بها، وكانوا لا يخشون غير دخول الموظفين السودانيين الذين يتركون العمل بالخدمة المدنية في معترك السياسة الطائفية.

***

طالب السودانيون بالسماح لهم بلعب دور نشط في إدارة بلادهم فأقام البريطانيون في عام ١٩٤٤م مجلسا استشاريا في شمال السودان لـ «تحديد اتجاه وتطوير المشاعر الوطنية علي أسس بناءة». وعن هذا المجلس قال الناظر بابو نمر ما نصه:

«طالب المتعلمون السودانيون بالقيام بدور في إدارة البلاد، ولم يعطهم البريطانيون إلا القليل... دخلنا المجلس الاستشاري عن طريق انتخابات أجريت على مرحلتين. فقد انتخبنا أولا للمجلس الاستشاري في المديريات، وانتخبتنا تلك المجالس الإقليمية للمجلس الاستشاري في الخرطوم. وكنت ثالث ثلاثة

انتخبهم المجلس الاستشاري في كردفان. وفي ذلك المجلس كانت الأجندة معدة سلفا من قبل مكتب السكرتير الإداري، واقتصرت مناقشاتنا على بنود تلك الأجندة، ولم يكن مسموحا لنا بأن نحيد عنها قيد أنملة. وكان خط المناقشة مرسوما بدقة ووضوح. أتينا وانضممنا لتلك العملية وكنا نتحدث باسم المديريات. وكان الأشقاء والليبراليون وآخرون يعارضون تلك الجمعية... كانوا يتعاونون مع المصريين، وكانوا يتهموننا، نحن رجال السيد عبد الرحمن المهدي، بالتعاون مع البريطانيين. وكنا بالفعل نتعاون مع البريطانيين لأننا كنا ننادي بمبدأ «السودانيين للسودانيين»، وطالما وافق البريطانيون على هذا المبدأ، فإن السيد عبد الرحمن المهدي سيمضي معهم. لذا دخلنا المجلس الاستشاري على أساس أن الاستقلال قادم، ولكن على مراحل. ورفض الاتحاديون ذلك. عندها قال لهم السيد عبد الرحمن: «يا إخوان. إن كنت تطالب أحد الناس برد دين قدمته له قدره مائة جنيه، وليس بمقدورك أن تأخذه منه عنوة، وعرض عليك الرجل عشرة جنيهات. هل ترفض العشرة جنيهات وأنت لا تستطيع إجباره على أن يدفع ما عليه من باقي المبلغ في الحال؟ أليس من الأفضل أن تأخذ العشرة جنيهات، فهي أولا اعتراف منه بالدين الذي عليه. وثانيا فهي تقلل من الدين إلى تسعين جنيها. إن لم نستطع شيئا فلنجاوزه إلى ما نستطع. إن أخذنا القليل من ديننا سيقوى موقفنا لآن ذلك سيؤكد حقنا ويؤيد قضيتنا».

***

قامت الحكومة المصرية منفردة في عام ١٩٥١م بإلغاء اتفاقية الحكم الثنائي. ولاقى ذلك الموقف شجبا واستنكارا شديدين لأنه تم دون أن يستشار فيه أحد من السودانيين، ولأنه سلب حكومة السودان شرعيتها. وفي ذلك الجو المتوتر المشحون أرسل السيد عبد الرحمن المهدي وفدا إلى القاهرة مكونا من خمسة أشخاص كان أحدهم هو الناظر بابو نمر. قال نمر: «ذهبنا لمصر وقضينا فيها

خمسة عشر يوما في مفاوضات مضنية حاولوا فيها اقناعنا بالموافقة على القبول بتاج (مصري) رمزي. وفي المقابل أعطونا ورقة لنسجل عليها كل ما نرغب فيه، ووعدونا بالتوقيع على كل مطالبنا وأن يبعثوا بها للأمم المتحدة في أمريكا. قلنا لهم «لا». أخبرناهم بأننا لم نأت بتفويض من كل السودان، وإنما نحن نمثل حزب الأمة فحسب، ولسنا مفوضين بالموافقة على ما تطلبونه الآن. وأخبرناهم أيضا بأنه للأسف لا توجد ديمقراطية في بلادكم. فقد نجيبكم إلى ما طلبتم، ثم يأتي الملك غدا ويقول لنا: لقد قمت بحل مجلس الوزراء أو عينت وزارة جديدة قد لا توافق على ما عرضتموه علينا، فماذا سيكون موقفنا حينها؟ لا يمكننا القبول بذلك. وعلى كل حال سننقل موقفكم هذا للاستقلالين في السودان. تعرفون موقفنا الآن، وقد نلتقي مرة أخرى لمزيد من المفاوضات. بعد ذلك عدنا للسودان».

ولخص بابو نمر تجربته في السياسة، ووصف كيف أن الساسة المتمرسين (sophisticated) كانوا يستغلون سذاجة زعماء القبائل ويستخدمونهم من أجل مصالحهم السياسية الذاتية، وأضاف قائلا: «أما بالنسبة لنا، فقد دفعنا دفعا لسيد فلان أو سيد علان، ومضينا في ذلك الطريق. ولولا هؤلاء السادة لما انضممنا للأحزاب السياسية أصلا... لقد كانت طبقة التجار تتحدث عن أن السيد علي الميرغني فعل كذا، أو كون ذاك. أما نحن في البوادي فكنا نتحدث عن أن السيد عبد الرحمن المهدي انضم لكذا أو فعل كذا، وكنا نحن نقف من خلفه. الآن يقولون سيد بابو، وسيد إبراهيم، وسيد بوث ديو، وسيد ستانلي لاوس، وسيد «مش عارف منو»! تكاثرت أعداد «السادة» الآن، وشاع بين الناس الاستمتاع بذلك اللقب. في البدء كان هنالك السيد عبد الرحمن المهدي والسيد علي الميرغني، وليس هنالك معهما من سيد آخر».

***

عبر عدد من المسئولين البريطانيين عن مشاعر سالبة تجاه الحركة الوطنية،

رغم أن بعضهم أقر لاحقا ببعض التعاطف مع أهدافها. فقال الإداري البريطاني جورج بريدن: «أنا من أشد المؤمنين بأن الحكم البريطاني في السودان إنما كان يعمل لمصلحة أبناء السودان، والذين لم يصبحوا مؤهلين بعد لحكم أنفسهم. وأعد كل المحاولات لإنهاء هذا الحكم محض فتن وتحريض وليس وطنية». بينما ذكر إداري آخر (هو لورنس بوخانين) بأنه كان سيؤيد الوطنيين لو كانوا يعترفون بفضل بريطانيا في العمل من أجل نيلهم لاستقلالهم. وشبه آخر (هو جون فيليبس) مظاهر «الوطنية السودانية» من مظاهرات عنيفة في المدن بأنها غير ضرورية، تماما مثل محاولة كسر باب مفتوح عنوةً. ولعل من قادوا تلك المظاهرات العنيفة الصاخبة كانوا يظنون بأن نيل الاستقلال بهدوء وسلام هو أمر معيب يتنافى مع العظمة والجلال.

لقد كانت أقوى سبب لتحفظ البريطانيين على استقلال السودان هو خوفهم من وقوع السودان تحت سيطرة المصريين، والذين كانوا لا يكنون لهم غير الاحتقار. وزعم مدرس الأعمال اليدوية بمعهد بخت الرضا البريطاني جان بيير قرينلو، أن البريطانيين عملوا على رعاية وتعضيد الذين ينادون بـ «السودان للسودانيين» وبمعاداة مصر. وعد جيمس روبنسون النظم المصرية فاسدة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها في كل شيء تقريبا، وقال: «لقد كان البريطانيون يخشون من تسرب ذلك الفاسد الذي لا أمل في إصلاحه للسودان. لقد استشهدت في كتابي بما جاء في الإنجيل من أن «مصر تترنح في قيئها مثل رجل مخمور». نعم ... قد يكون ذلك اقتباسا خسيسا. غير أنه يجب التأكيد على أن المشاعر الكارهة للمصريين في أوساط البريطانيين في السودان كانت حادة جدا».

***

من الافتراضات الشعبية الشائعة عند كثير من السودانيين أن الشذوذ الجنسي كان سائدا في أوساط البريطانيين بالسودان. وربما كان مرد ذلك هو انعزال هؤلاء

الموظفين، وعدم وجود أي علاقات نسائية لهم مع السودانيات (أو غيرهن). بل ويؤمن كثير من السودانيين بأن الشذوذ الجنسي هو «بضاعة استعمارية مستوردة» لم تكن معروفة قبل قدوم المستعمرين. غير أن كل من سئل من البريطانيين (والسودانيين) عن شيوع تلك الممارسة في أوساط الموظفين البريطانيين أنكر ذلك في إجابات مقتضبة لا تخلو من فظاظة أحيانا. ويعزو ناظر المدرسة الثانوية فارهارسون – لانق غياب الشذوذ الجنسي عند الموظفين البريطانيين لدقة اختيار هؤلاء الموظفين البريطانيين للعمل بالسودان ابتداءً، وأكد أنه لم يكن من الممكن أن يعين أي موظف معلوم الشذوذ في خدمة حكومة السودان. وأضاف ديريك كاردن (الإداري البريطاني في كردفان والسفير البريطاني بالخرطوم لاحقا) أن الشذوذ الجنسي في ذلك العهد كان ممارسة مستهجنة مستحقرة، ويستحيل على من تحوم حوله أدنى شبهة بممارستها أن يعثر على وظيفة. وكانت تلك الممارسة ترتبط أيضا في أذهان الكثيرين ببعض دلالات التخنث، وهو أمر يتناقض مع طبيعة العمل في السودان، والتي تتطلب المتانة والقوة، والمرونة أيضا. ويعتقد الأستاذ الن ثيوبولد (من رواد التعليم الثانوي والجامعي في السودان) أن قسوة المناخ في السودان ومصاعب الحياة العملية الشاقة فيه تقلل من ضغوط الغرائز والشهوة الجنسية على الموظف البريطاني.

وصنفت كل القصص التي ظل الناس يتداولونها حول سلوك قليل الموظفين البريطانيين ممن حامت حولهم الشبهات والاتهامات بالشذوذ الجنسي على أنها محض إشاعات (معنعنة) مجهولة المصدر ولا أساس لها من الصحة. غير أنه علم أن مصدر حالة واحدة من تلك الحالات النادرة كان موظفا بريطانيا كان على خلاف حاد مع زميل له من بني جلدته، ولم يجد الرجل لذلك الخلاف حلا جذريا غير أن يطلق إشاعة «مدمرة» عن زميله ويشيع عنه أنه «شاذ جنسيا ويحتفظ في منزله بصبي محلي».

وأكد كينيث هندرسون (إداري بريطاني حكم دارفور في بداية الخمسينيات) بأنه يصعب على الجيل الحالي (وحتى على ابنه نفسه) أن يصدق بأن الموظفين البريطانيين كانوا بالفعل عُزَّابا بإرادتهم (celibate) وليسوا شواذا. غير أن الرجل نفسه عاد وقال إن بعض الموظفين البريطانيين كانت بهم «مسحة من شذوذmildlyhomosexual» بمعنى أنهم كانوا يفضلون صحبة الرجال (الشباب) على النساء، وكانوا يشعرون بالخوف نوعا ما من النساء. وكان هندرسون يعد دوجلاس نيوبولد (أحد أهم من حكموا كردفان في العهد الاستعماري، وتقلد أيضا منصب السكرتير الإداري) أحد هؤلاء. وأكد روبن هودكن (نائب مؤسس معهد بخت الرضا) ما زعمه هيندرسون عن نيوبولد، بل وأضاف أن أكثر ثلاثة بريطانيين (عزاب) يكن لهم فائق الاعجاب والاحترام كانوا بالفعل من الشواذ (ولكن ربمابطريقة غير نشطة nonactive). وبالإضافة إلى نيوبولد شملت قائمة الرجل أسماء معروفة أخرى مثل قريفث (مؤسس بخت الرضا) وكثبرت اسكوت (إداري ومعلم).

***

كانت العلاقات الرسمية والشخصية بين الموظفين البريطانيين والجنوبيين تشابه تلك بين البريطانيين والشماليين، رغم أنه كانت هنالك فروقات نوعية في بعض الحالات. وكان الجنوبيون والشماليون على حد سواء يبدون اعجابهم الشديد بالموظف البريطاني كشخص جاد وأمين وله إحساس عال بالمسئولية. ويقول بنجامين لانج جوك (زعيم فرع أكوار الدينكا على الحدود بين بحر الغزال وأعالي النيل وكردفان): «الشخص الوحيد الذي يحبه البريطانيون هو الذي يؤدي عمله على أكمل وجه». ووافقه في ذلك سانتيو دينق (وزير جنوبي من دينكا ملوال، عمل وزيرا في عدد من الأنظمة الحاكمة المتعاقبة) والذي قال: «البريطانيون يريدون أن يعمل الأهالي بكل طاقتهم. كل ما يخططون له يتم تنفيذه بدقة. إن لم

تنفذ ما يطلبونه له من عمل فإنهم سيعاقبونك بصرامة. لقد فقد الكثيرون وظائفهم بسبب كسلهم». ولاحظ زعيم قبلي آخر هو ريان إلى أن الموظف البريطاني لا يذهب في الصباح إلى مكتبه من دون المرور على موقع العمل الميداني أولا، فيوم الواحد منهم يبدأ في السادسة صباحا بشرب الشاي ثم التوجه مباشرة لمشاهدة عرض الشرطة اليومي ولمواقع العمل الأخرى مثل إسطبل الخيول، أو مواقع تشييد الطرق أو غيرها.

وفي البدء لم يكن البريطانيون يمنحون الزعماء القبليين مرتبات منتظمة، بل كانت مرتباتهم مرتبطة بما يؤدونه من عمل محدد، مثل جمع الضرائب وغيرها. وكان يدفع عادة للزعيم في الغابة. فإن نجح أفراد قبيلته مثلا في قتل فيل، واشترت الحكومة أو أي شركة سني الفيل فإن ممثل الحكومة يقوم بتقسيم العائد على زعيم القبيلة وأفراد قبيلته. غير أن ريان لاحظ أيضا أن الموظفين الجنوبيين كانوا لا يبدون كبير احترام للزعماء القبليين الجنوبيين ويعاملونهم كخدم لهم، بعكس ما لاحظه في تعامل الموظفين مع زعماء القبائل في كردفان مثلا. فكان الموظف الجنوبي مثلا لا يتورع عن صفع الزعيم القبلي الجنوبي عندما يخطئ في عمل ما. وكان بعض الإداريين البريطانيين أيضا يسيئون معاملة الأهالي والزعماء المحليين أيضا، مثل النقيب ريتشاردز، والذي كان يتعاطى الأفيون ويتصرف كرجل مجنون، والنقيب بوول (والذي تزوج فتاة دينكاوية لاحقا) ولكنه كان يضرب من يزعجه من الأهالي مهما كان وضعه. وذكر الزعيم بنجامين لانق أن الإداريين البريطانيين كانوا يعيرونهم دوما بفقرهم وتخلفهم. وإن طالب موظف جنوبي متعلم برفع مرتبه فعادة ما يلقى ردا مسيئا من مسئول بريطاني مفاده: «إننا نعمل من أجل بناء بلدكم، وبريطانيا ليس لها فائض أموال، وما تحصلون عليه الآن من مرتبات إنما يأتي من إخوانكم في الشمال». وعد لانق ذلك أمرا مهينا لأي رجل (جنوبي) يملك ثروة معتبرة من الأبقار.

وفيما يتعلق في أمر العلاقات بين الذكور والإناث في جنوب السودان ذكر الزعيم بنجامين لانق أن معظم البريطانيون كانوا «لا يغازلون الفتيات، ولا يشتهون نساء الرجال الآخرين. فهم رجال في غاية التهذيب ولهم قدرة عالية على التحكم في غرائزهم. ولا يمكن أن ترى أحدا منهم يتسكع ليلا في الشوارع. فالبريطاني يقبع في منزله ليلا بالقرب من مصباح يضيء مكانه، وعندما يشعر بالنعاس يذهب لفراشه وحيدا. لا أدري ما يفعله هؤلاء الناس لإشباع شهوتهم الجنسية؟!». ولم تكن الحكومة تشجع الإداريين البريطانيين على إحضار زوجاتهم (إن كانوا متزوجين) للسودان، (خاصة الجنوب) لأسباب كثيرة، ولعل السيدة وليامز زوجة ناظر مدرسة رومبيك الثانوية كانت استثناءً من تلك القاعدة. ولم يكن هنالك اختلاط اجتماعي كبير بين نساء ورجال البريطانيين ونظرائهم المحليين لاختلاف طريقة الحياة، والانشغال، وغير ذلك من الأسباب.

ولاحظ بنجامين لانق أن الموظف البريطاني في الجنوب قد يشيب شعر رأسه قبل أن يتزوج. وبسبب الحساسيات العنصرية والخوف من «الفضائح»قلما يقيم الموظف البريطاني علاقات مع نساء محليات بغرض الزواج أو غيره. وفي الحالات النادرة جدا التي يقترن فيها الموظف البريطاني بجنوبية، فإن احتفالات الزواج تتم بحسب الأعراف والعادات المحلية، وإن أثمر ذلك الزواج أطفالا، فإن عائلة وأقرباء الزوجة سيعترفون بالمولود كطفل شرعي، وكواحد منهم.

***

وعند السؤال عن مدى انتشار الشذوذ الجنسي بين هؤلاء الموظفين البريطانيين في الجنوب أجاب غردون مورتات (ضابط شرطة سابق، وسياسي من دينكا أقار برمبيك) بالنفي القاطع. بينما أصر مانوه ماجوك (محاسب وإداري ووزير في عهد نميري، من دينكا بور) أن الشذوذ الجنسي أمر غير معروف عند قومه. وأقر سانيتو دينق بأن حدوث الشذوذ أمر ممكن الحدوث ولكنه لم يلاحظ

شيئا من ذلك في منطقته. بينما تذكر أندرو ويو (سياسي من دينكا «الشمس المقدسة» بأعالي النيل) أن أحد مساعدي المفتش البريطاني كان قد عين لخدمته في بيته شابين شاذين جنسيا كانا يحبان السير عراة تماما في وسط الأهالي المحليين. وكان الأهالي يشكون في وجود علاقة شاذة بين ذلك الموظف وأحد رجال الشرطة، ويعتقدون أنهما كانا يعيشان معا. ورغم ذلك أصر أندرو وويو على أن الشذوذ الجنسي أمر نادر الحدوث في الجنوب.

***

يعتقد بعض الجنوبيين المتعلمين أن الإدارة البريطانية كانت مصدرا من مصادر المشاكل والصراع في السودان. فقال مانوه ماجوك: «لا نزال نعاني من آثار سياسات البريطانيين في جنوب السودان». وذكر غردون مورتات أن البريطانيين شجعوا الانقسامات اللغوية والثقافية والإدارية بين القبائل الجنوبية. وجعلت تلك السياسة كل قبيلة لا تقبل بأي تدخل في شئونها من القبائل الأخرى. وشهدت سنوات الحكم البريطاني عددا من الصراعات بين القبائل الجنوبية، مما منع حدوث أي تناغم أو انسجام سياسي بينها، وعطل التطور الوطني والنضوج السياسي عند قادة تلك القبائل. بينما أبدى آخرون اعجابهم ومحبتهم للإداريين البريطانيين. فقال أحد قادة القبائل: «إن سألت الآن جنوبيا كبيرا في السن عن أيهما يفضل: الإداري البريطاني أم الإداري السوداني الجنوبي؟ لا شك أنه سيختار الإداري البريطاني من واقع التجربة المباشرة.

غير أن أخطر ما أتهم به البريطانيون في جنوب السودان هو العنصرية. ويعتقد غردون مورتات أن العنصرية عند البريطانيين أشد من تلك التي توجد عند غيرهم من الغربيين.

وأضاف قائلا: «يعتقد البريطانيون أنهم أفضل الناس وأنهم أعظم من غيرهم، وأن سائر الشعوب الأخرى أقل منهم مكانة. إنهم يؤمنون بأن شعوب أفريقيا مثلا

لن تتقدم أبدا وتصل إلى ما وصلوا هم إليـه. يجـب ألا ننسـى تأييـدهم للأقليـة في روديسيا وناميبيا وجنوب أفريقيا. إن الصداقة بين بريطانيا والسودان المستقل هي صداقة بين بريطانيا وشمال السودان، وليس معنا في الجنوب». وفي المقابل يقـول الزعيم لانق جوك: «يجب أن نشعر بالشكر والامتنان للبريطانيين لأنهم فعلوا مـن أجلنا الكثير. وحتى إن قاموا ببعض الأفعال الخاطئة، فإن ما قدموه لنا يغفـر لهـم تلك الأخطاء».

نظرة عامة على الدراسات السودانية في إيطاليا

Sudanese Studies in Italy: a General Overview

Massimo Zaccaria ماسيمو زكريا

مقدمة: هذه ترجمة لمقال نشر في العدد الثاني والثلاثين لمجلة «الدراسات السودانية» والصادرة في عام ٢٠٠٤م للباحث الإيطالي ماسيمو زكريا. وبحسب ما جاء في سيرة الرجل الذاتية المبذولة في الشبكة العالمية فقد درس الكاتب اللغات الشرقية وآدابها (متخصصا في العربية) بجامعة البندقية، ثم نال درجة الدكتوراه في التاريخ الإفريقي في جامعة سيينا عام ١٩٩٤م. وحصل في عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩م على زمالة ما بعد الدكتوراه في جامعة بافيا. وحصل في عام ٢٠٠٠م على دبلوم في الأصول الثقافية، وعلى درجة في الأرشيف ومكتبة التراث من جامعة بولونيا. ويعمل منذ عام ٢٠٠٠م باحثا في التاريخ في كلية العلوم السياسية بجامعة بافيا متخصصا في تاريخ القرن الأفريقي في الفترة الاستعمارية، مع اهتمام خاص بدولتي السودان وأرتيريا.

المترجم

ينبغي أن نتطرق بإيجاز للعلاقات التاريخية بين السودان وإيطاليا من أجل فهم أفضل لإنجازات المؤرخين الإيطاليين في مجال الدراسات السودانية. وتتيح لنا نظرة سريعة على مؤلف المؤرخ البريطاني ريتشارد هيل الشهير «قاموس السير الذاتية في السودان» أن نعلم أنه ذكر في ذلك القاموس ٨٥ اسما لإيطاليين، رغم أنه من المتعذر نسبة هؤلاء جميعا لإيطاليا وذلك نسبة للتغييرات الجغرافية العديدة

التي مرت بإيطاليا وبحدودها في القرن التاسع عشر.

وبعض هذه الأسماء (الإيطالية) مشهورة جدا. فقد ذكر في ذلك القاموس، على سبيل المثال، اسم دانيال كمبوني (١٨٣١ – ١٨٨١م) وهو أول قس كاثوليكي في وسط أفريقيا، وأول من أنشأ معهدين تبشيريين للذكور والإناث في عامي ١٨٦٧ و١٨٧٢م، على التوالي، سميتا باسمه. وهنالك الأب جونيفاني بيلترامي والذي قضى أعواما بالسودان (بين ١٨٥٣ – ١٨٦٢م) وكتب كثيرا عن عادات قبائله ولغاته، خاصة لغة الدينكا. وهنالك الأب المبشر استانسيلاو كارسيريرو (١٨٤٠ – ١٨٩٩م)، والذي ترك لنا كثيرا من المذكرات عن جبال النوبة. وهنالك قائمة طويلة من القساوسة والمبشرين الإيطاليين، إلا أن هذا لا يعني أن كل من أتى للسودان من الإيطاليين كانوا كلهم من القساوسة والراهبات. فقد كان منهم الرحالة والمستكشفين والموظفين، والذين زاروا السودان أو عملوا فيه، وفي كثير من الحالات تركوا لنا مذكرات مفصلة تسجل مشاهداتهم وتجاربهم في هذا البلد. ومن بين هؤلاء اشتهر المستكشف الأثري جونوفاني باتيستا بيلزوني (١٧٧٨ – ١٨٢٣م)، وعالم الطبيعة جونوفاني باتيستا بروشي (١٧٧٢ – ١٨٢٦م)، والطبيب قوزيبي فريليني (١٨٠٠ – ١٨٧٠م) الذي كان مهتما بعلم الآثار، ولكن بنتائج مشكوك فيها ومدمرة.

(ويصدق على ذلك الطبيب الإيطالي بيت عبد الله الطيب الشهير «وأطبة تركوا العلاج وجاءوا يبغون من مرض النفوس...الخ». وأوردت موسوعة الويكيبيديا ما نصه: « قوزيبي فريليني هو طبيب إيطالي من بولونيا، تحول إلى مستكشفٍ وعالم آثار، واشتهر دولياً لقيامه بتحطيم ما يزيد عن أربعين هرماً في السودان ومصر. وفي حدود عام ١٨٢٠ م خدم كجراح مرافقٍ للجيش المصري إبَّان الغزو التركي للسودان، وفي حين استقرت القوات في الخرطوم وسنار شدَّ هو الرّحال إلى مروي والنقعةونوري بحثاً عن الكنوز، وقام بتفجير العديد من

الأهرامات حتى وجد مخبأً واحداً فقط من الذهب والمجوهرات الكوشية، التي اتضح لاحقاً أنها تخصُّ الملكة أماني شكتو، وسارع إلى عرضها على المتاحف الأوربية في ميونخ وبرلين، ولكن المتاحف رفضت اعتبار هذه المجوهرات آثاراً لدقَّة صنعها وجمالها الفائق ولعدم تصديقهم أنَّ هذه الجودة يمكن أن تكون صنعت في أفريقيا، وبعد فترةٍ تم شرائها منه. ولم يوثق السودانيون الجرائم التي قام بها جوزيبي فريليني، ولكن وفقاً للروائي الأمريكي بول ثيروكس فإنَّ فريليني قام بنسف الأهرامات بالديناميت من القمم، ممَّا شوَّهها وأفقدها لوحاتها الجمالية وطمس أسرارها. من أبرز الآثار التي تركها فريليني هو تجريف الهرم رقم ٦ هرما للملكة النوبية أماني شكتو» المترجم).

وقرب قيام الدولة المهدية ظهرت أسماء إيطالية أخرى مثل كارلاو بياجي ورمولو جيسي وميسيداجليا بيه وجيتانو كاتسي.

لاَ مُشَاحّةَ أن مؤلف المؤرخ هيل «قاموس السير الذاتية في السودان» هو عمل مرجعي ممتاز، ولكنه مثله مثل كل الأعمال المرجعية الأخرى فهو قابل للمراجعة. لذا كان أول عمل عزمت عليه في مجال الدراسات السودانية هو مراجعة ما ورد في ذلك القاموس عن الإيطاليين، وإدخال أسماء جديدة عند الضرورة. ولعل حقيقة أنني لم أكمل تلك المهمة تشير إلى العسر الذي يكتنف مثل تلك المحاولة، ويؤكد على مقدرات ريتشارد هيل الاستثنائية التي لا تقارن. ولكن قد يحسب لي تمكني من إضافة قائمة جديدة مكونة من ٣٥٠ اسما (إيطاليا) جديدا، جميعهم عملوا في السودان في القرن التاسع عشر وحده. وكان ذلك عملا مضنيا حصرت فيه نفسي على تلك الفترة إذ أنني أدركت أنني إن حاولت التعريف بشخصيات إيطالية في القرن العشرين فسأضاعف من عملي بما يفوق طاقتي.

وكان أحد أهم ما ميز الوجود الإيطالي في السودان هو عامل الاستمرارية، وهي خاصية لم تتوفر عند غالب الجاليات الأجنبية الأخرى. فقد ظل الإيطاليون في

السودان منذ بدايات العهد التركي – المصري وحتى الوقت الحالي. وانعكس الوجود الكثيف للإيطاليين المهاجرين بمصر (والذي كان يعد بالآلاف) على السودان، إلى الحد الذي غدت فيه اللغة الإيطالية هي لغة التخاطب الأولى بين الغربيين الموجودين بالبلاد في المراحل الأولى من العهد التركي – المصري.

وصارت بعض الخدمات التي كانت حكرا على الإيطاليين في مصر (مثل خدمات البريد والبرق) حكرا عليهم في السودان أيضا. فقد انتدبت الحكومة المصرية في ١٨٧٣م الإيطالي كاسميرو أدا لينقل الخدمات البريدية للسودان. ثم عين ليقورجو لانكوني مدير البريد في صعيد مصر والنوبة رجلا إيطاليا آخر هو جياكومو ليمبروسو كضابط بريد بالسودان في عام ١٨٧٨م. ونشر كاسميرو أدا في عام ١٩٠٥م كتابا لخص فيه تجربته عن العمل البريدي في مصر والسودان. ولاحظ سانتي وهيل في ١٩٨٠م أن مذكرات كاسميرو أدا الأصلية التي سجلها أول مرة كانت أكثر عفوية من كتابه المنشور فقررا نشر تلك المذكرات ضمن كتاب كان عنوانه هو «الأوربيون في السودان بين عامي ١٨٣٤ – ١٨٧٨م»

وبقيت بالبلاد مجبرة مجموعة صغيرة لا تتعدى الدرزينة من الإيطاليين في عهد المهدية، حيث انعزل السودان، بنهج مفرط الراديكالية، عن العالم الغربي. وينبغي أن تضاف أسماء هؤلاء الإيطاليين للقائمة الشهيرة من «سجناء المهدي». وبالمقارنة مع مساجين المهدي الغربيين الآخرين، فقد كان عدد الإيطاليين الأَسارَى لدى المهدويين كبيرا نسبيا، إلا أن ذلك لم يقابله اهتمام متناسب في الأدبيات المنشورة عن «سجناء المهدي». وتم تشجيع الكثير من أولئك الأَسارَى الغربيين لتسجيل مذكراتهم وتجاربهم في سنوات الأسر، غير أن الأسرى الإيطاليين لم يجدوا مثل ذلك التشجيع، فصمتوا عما حاق بهم علي يد آسريهم، عدا الأب باولو روسيقونولي والذي ألف كتابا عام ١٨٩٨م بعنوان «اثنا عشر عاما في أسر دراويش السودان I Miei dodicianni di prigionia in mezzo ai dervisci del Sudan»

وفي ذات السنوات التي سيطر فيها محمد أحمد بن عبد الله على الخرطوم كان الوجود الإيطالي في شمال – شرق أفريقيا يأخذ شكلا واضحا، بوصول القوات الإيطالية إلى مصوع في عام ١٨٨٥م. وبعد ذلك، ولستة وخمسين عاما قادمة تقاسم السودان وإيطاليا حدودا مشتركة وسلسلة من المصالح المشتركة، بيد أن العلاقات بين البلدين كان قد شابها كثير من الاضطراب والتوتر، خاصة في السنوات الباكرة من ذلك التجاور. وكان من أهم أسباب ذلك التوتر والصدام في العقد الأخير من القرن التاسع عشر هجوم الخليفة عبد الله على مصوع، وتخطيط الإيطاليين للاستيلاء على طرق التجارة في شرق السودان. وواجه الجيش الإيطالي هجوم جيش الخليفة عبد الله (والذي فاق عدد أفراده ١٠٠٠٠ فردا) وصده بنجاح، بل وأنزل به هزيمة ثقيلة في معركة أقوردات التي وقعت في ديسمبر من عام ١٨٩٣م.، حيث قتل الأمير أحمد علي وألفا من جنوده (وقعت معركة أقوردات الأولى في عام ١٨٩٠م، وبعدها بثلاث أعوام وقعت المعركة الثانية. وسار جيش الخليفة بقيادة الأمير أحمد علي، والمكون من ١٠ – ١٢ ألفا من كسلا، للقاء نحو ٢٤٠٠ من الجنود الإيطاليين، وعدد آخر من الإرتريين بقيادة العقيد أريموندي. المترجم). وبعد سبعة شهور من تلك المعركة استولى الإيطاليون على مدينة كسلا وظلوا فيها لثلاثة أعوام. غير أن هزيمة الجيش الإيطالي في معركة عدوة أجبرته على إعادة كسلا للبريطانيين، والذين قاموا بعد ذلك بإعطاء إشارة البدء للقوات المصرية المتركزة في دنقلا للتحرك جنوبا (كما ورد في مقال سابق مترجم عن دور السيد علي الميرغني في السياسة السودانية، فقد لعب ذلك السيد وزعماء قبائل الشرق دورا مهما في «التوسط» لدي جماهير كسلا للقبول بالسيطرة البريطانية والانضمام لجنود الحكومة المصرية. المترجم).

وكان لفترة الحكم الثنائي دورا مركزيا في تنشيط الجالية الإيطالية. فعاد في غضون سنواته قساوسة وراهبات فيرونا (وهم طائفة تبشيرية إيطالية مسيحية)

لممارسة نشاطهم بالبلاد، خاصة في الجنوب. ورغم ذلك فقد كان لهم نشاط تبشيري واسع في الخرطوم وبعض مدن الشمال أيضا. وفي تلك المرحلة أفلح معهد قساوسة وراهبات فيرونا في التغلب على الصعوبات والمشاكل التي أعقبت وفاة كمبوني، ووصول عدد كبير من المبشرين للسودان. وصاحب نمو عدد المبشرين الإيطاليين القادمين للسودان وصول أعداد متزايدة من الموظفين الإيطاليين والذين قاموا بشغل عدد كبير من الوظائف الحكومية. وفي تلك السنوات وصل إجمالي أعداد الإيطاليين بالسودان إلى عدة مئات من الأفراد.

وبعد نيل السودان لاستقلاله، وما تبع ذلك من ضعف في الاقتصاد، غادر معظم الإيطاليين – مثلهم مثل غيرهم من الأوربيين – البلاد. غير أن البعثات التبشيرية الإيطالية ظلت باقية، وقدر عدد بعثات كمبوني بالسودان في عام ٢٠٠٣م بـ ٢٠٣ بعثة تبشيرية. غير أنه كان من المفروض على تلك البعثات أن تعدل من طبيعة علاقتها بالدولة بعد نيل السودان لاستقلاله. فقد كانت الحكومات السودانية الوطنية بعد الاستقلال تفسر الوجود المسيحي في البلاد وكأنه من بقايا آثار الاستعمار الغربي، وتعده عقبة رئيسة أمام الوحدة الوطنية. ووفرت تلك الأفكار المفرطة التبسيط ذريعة فعالة و«كبش فداء» للساسة السودانيين لإلقاء اللوم على المبشرين الغربيين لإذكائهم (المزعوم) لعداوة الجنوبيين للنظام الحاكم. وتردت تلك العلاقة بين الحكومة والمبشرين للحضيض عندما أصدرت الحكومة (بقيادة الفريق إبراهيم عبود) قرارا في ٢٢/ ٢/ ١٩٦٤م بطرد المبشرين الأجانب من جنوب السودان. غير أن ذلك القرار لم يشمل البعثات التبشيرية بالشمال. ومنذ ذلك الحين ظلت البعثات التبشيرية بالسودان تساعد في عملية تكوين كنيسة سودانية مستقرة. وقامت تلك الكنيسة بالاحتفال بأول قديسة منها هي جوزفين/ غيوسبينا بخيتة (وهي أول سودانية يتم إعلان قداستها في الكنيسة الكاثوليكية في الأول من أكتوبر عام ٢٠٠٠م. وهي مولودة بحسب ما ورد في

موسوعة الويكيبيديا بدارفور في ١٨٦٨م، وتوفيت بإيطاليا في ٨/ ٢/ ١٩٤٧م. المترجم). وبعد ثلاثة سنوات من ذلك (في ١٠.١٢. ٢٠٠٣م) تم ترفيع رئيس أساقفة الخرطوم جبريل زبير واكو إلى مرتبة الكاردينال.

كان لا بد من تلك المقدمة التاريخية عن الوجود الإيطالي في السودان إذ أن الدراسات السودانية في إيطاليا كانت كلها مركزة بالكلية تقريبا، وعبر سنوات طويلة، على الوجود الإيطالي في السودان. ولا بد أن يعزى ذلك بالطبع للكم الهائل من الوثائق المهمة التي كانت ثمرة تلك الصلة. ويمكن إدراك حجم تلك الأدبيات الإيطالية من كتب ومقالات بالاطلاع على كتابين مهمين أحدهما هو «ببيليوغرافيا السودان الإنجليزي المصري من أقدم العصور إلى عام ١٩٣٧م» لريتشارد هيل، والمنشور بلندن عام ١٩٣٩م. أما المؤلف الثاني فهو كتاب للأب استفانو سانتاندريا صدر في ١٩٤٨م بعنوان: «ببيليوغرافيا الدراسات الإفريقية لبعثة وسط أفريقيا». ويمكننا بجمع المعلومات الواردة في المرجعين تكوين فكرة دقيقة عن نوع الكتب والمقالات التي قام بتأليفها الإيطاليون من غير المتخصصين ومن رجال الكنيسة حتى أربعينيات القرن العشرين. وهنالك كتابان آخران يساعدان على التعرف أكثر على الوجود الإيطالي في السودان، وهما «دليل المصادر لتاريخ جنوب الصحراء المتوفرة في إيطاليا» لكارلو جيجلو وايلو لودوليني والصادر عام ١٩٧٤م، وكتاب «مصادر كمبوني لتاريخ شمال شرق أفريقيا» لدي سيلفيا ليوساني وإيرما تاديا، والصادر في ١٩٨٦م .

واتصف رجال الجيل الأول من العلماء الإيطاليين الذين أهتموا بشئون السودان بخصلتين: الأولى هي - كما ذكرنا سابقا - تركيزهم بصورة شبه كاملة على الإيطاليين في السودان. وكان ذلك الخلط بين تاريخ أفريقيا وتاريخ الأوربيين في أفريقيا من أهم أوجه القصور الشائعة في أعمال علماء الجيل الأول من مؤرخي إيطاليا. غير أن إصرار الإيطاليين على التركيز على «أبطالهم» يحتاج لبعض الشرح

والتفسير. ولعل مرد ذلك التركيز هو الشعور بعقدة النقص الذي كان يشعر بها كثير من الإيطاليين تجاه الدول الأوربية الأخرى التي اقتحمت المجال الاستعماري. وفي السودان يفخر البريطانيون بانتصارات وانجازات بروس وبراون وبيكر وغردون، ويفاخر الألمان بنايتنقيل وجنكر وشفاينفورث، وحتى الفرنسيس يمكنهم التباهي بالضابط مارشان (الضابط الفرنسي الذي استولى على فشودة في ١٨٩٨م. المترجم). بينما اكتفى الإيطاليون بترديد مزاعمهم عن وجود مؤامرة دولية لتجاهل المساهمات الإيطالية، وظنوا أن أفضل إجابة على تجاهل بقية العالم الغربي لمساهماتهم هو نشر سيل من المؤلفات التي تمجد «المنجزات» الإيطالية الفائقة التميز في مجالات الاستكشاف والتبشير المسيحي والعون الإنساني وتحرير المسترقين.

وفي سنوات العهد الفاشي لعب ذلك الموقف الإيطالي دورا أكثر وضوحا، وأفرز لغة «وطنية» وجنسا أدبيا يركز على إصدار المؤلفات الكثيرة عن «رواد الإمبراطورية» وعن بيبليوغرافيا أشهر الأبطال منهم. وكان التركيز على تلك السياسة هو أحد أدوات البرنامج الفاشستي لبناء إمبراطورية في أفريقيا، ولتأكيد شرعية وأحقية مطالبة إيطاليا بأن تكون إثيوبيا لها وحدها. وكانت الدعوة الإيطالية لتمدين أفريقيا منذ بدء الحملات الاستعمارية لأفريقيا هو أقوى دليل لأهلية إيطاليا للعب ذلك الدور.

وأصابت «متلازمة الريادة» الإيطالية تلك العلماء والمبشرين على حد سواء، وظلت الدراسات الإيطالية، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لا تتعدى سلاسل من البيبليوغرافيا والقواميس البيبليوغرافية. ولم تفلح معظم تلك المؤلفات في تقديم أي إضافة حقيقية للتاريخ. ولكن يجدر بنا هنا استثناء كارلو زاقي لمساهماته الفكرية المتميزة، والتي شملت كتابة سيرة روملو قيسي، والتي صدرت في عام ١٩٣٩م بعنوان «حياة روملو قيسي»، وكتابه الذي حوى رسائل

قيسي لغردون في أثناء الحملة الموجهة ضد سليمان بن الزبير، والذي نشر في عام ١٩٤٧م (كارلو زاقي، ١٩١٠ – ٢٠٠٤م صحافي من أشهر مؤرخي الفترة الاستعمارية الإيطالية، والثورة الفرنسية. المترجم).

والتفت كارلو زاقي في مؤلفاته إلى الأحداث والملابسات التي اكتنفت احتلال كسلا، وكان ذلك من الموضوعات المثيرة للإيطاليين لأن الجيش الإيطالي كان قد أفلح في هزيمة الجيش (المهدوي) الذي سبق له أن أذاق الجيشين المصري والبريطاني هزائم مذلة. وقد كتب كثير من الإيطاليين عن الحملات العسكرية في مناطق الحدود الشرقية، غير أن أحدا لم يحاول بعد للتطرق للأسباب التي دفعت بأنصار المهدية للتقدم نحو مصوع. وبصورة عامة يمكن القول بأن علماء التاريخ الإيطاليين لم يظهروا كبير اهتمام بتاريخ السودانيين، بل لم يكونوا على استعداد أصلا للاعتراف بوجود منظور تاريخي سوداني. وكانوا يظهرون احتراما شديدا للحدود التي صنعها الاستعمار، ولم يضعوا في اعتبارهم إلا قليلا ضرورة تناول بعض المواضيع بنهج ومقاربة إقليمية وليس وطنية (أو قومية) ضيقة. وربما كان ذلك هو سبب صوم هؤلاء المؤرخين الإيطاليين عن ذكر كثير من المواضيع. وكان من تلك الموضوعات المسكوت عنها هو أمر الختمية في أرتيريا، وهو من الموضوعات التي تتطلب بالقطع مقاربة إقليمية. إلا أن العلماء الإيطاليين لم يجدوا في أنفسهم الجرأة على التطرق لأي موضوع أبعد من كسلا، وسلك ذات النهج كل من كتب عن السودان من الإيطاليين.

ومما يعاب أيضا على كتاب ومؤرخي تلك الفترة التزامهم بتخصصهم وحيزهم الضيق. فلم يكتب المبشرون إلا عن تاريخ البعثات التبشيرية، بينما تحاشى الكتاب والمؤرخون والعلماء الإيطاليون الكتابة عن البعثات التبشيرية في جميع مؤلفاتهم. وكانت النتيجة هي وجود عالمين من الكتابة التأريخية منفصلين تمام الانفصال. وكنت قد التقيت قبل أعوام قليلة بكارلو زاقي وأجريت معه حوارا

مطولا سألته فيه عن عدم تطرقه في كل كتاباته لأي أمر يخص البعثات التبشيرية الكاثوليكية الإيطالية. فرد بالقول بأنه يحمل كراهية شخصية لكل ما له صلة بالكنيسة، وأنه ظل طوال حياته يتحاشى عامدا متعمدا مخالطة هؤلاء «القساوسة اللعناء». وكان مما ذكره زاقي أيضا أنه، وحتى ثمانينات القرن الماضي، كان أرشيف كل البعثات التبشيرية محظورا على غير رجال الكنيسة، ولا يسمح البتة على الباحثين المستقلين بالاطلاع عليه.

وكاستثناء من القاعدة يجب ذكر أنه كان للإيطاليين مساهمات واضحة في مجال الآثار والتنقيب عنها في السودان. فقد كان منهم اومان جوفناني وفينسيزا قراسي وأقوستو ترومبيتا والذين ألفوا كتاب «أدلة كتابية على وجود مستوطنات عربية – إسلامية في أرض النوبة». وتوجد الآن في السودان بعثات تنقب عن الآثار من أربع جامعات إيطالية هي جامعات روما وكازينو وليسي ونابولي

ولعبت الحرب العالمية الثانية دورا مهما في تغيير تقاليد البحث التاريخي في إيطاليا، خاصة بحوث منطقة القرن الأفريقي والسودان. وخرج المؤرخون الإيطاليون بعد تلك الحرب من أسر الكتابة عن «أبطال» و«رواد» إيطاليا الاستعمارية. وشملت رياح التغيير أيضا كتاب الكنيسة، فتراجعوا، وبصورة جذرية، عن كثير من مواقفهم السابقة. بل تم نقل أرشيف الأبرشية من فيرونا إلى روما، حيث شيدت مكتبة جديدة تحت إشراف الأب استفانو سانتاندريا. وما هي إلا سنوات قليلة حتى وغدت تلك المكتبة هي أهم مكتبة لأبحاث السودان في إيطاليا.

إلا أن ما يعيب مجموعة السودان في تلك المكتبة هو خلوها من أي كتابات باللغة العربية أو ما نشره المؤرخون المسيحين البروتستانت. وهذا مؤشر بائن يدل على أن الكنيسة ورجالها لم يتغلبوا بعد على عقابيل التاريخ (والحاضر أيضا) والتي ظلت تقود مسيرة وتوجهات تاريخ البلاد منذ قرون.

وهنالك أيضا مكتبة كمبوني بروما، والتي تحتوي على مجموعات من أهم الوثائق عن السودان. أما ما كتب عن الشأن السياسي السوداني المعاصر فتجده في المكتبة الإفريقية بمدينة فيرونا.ا

وتصدر ومنذ عام ١٩٦١م دوريةArchivioCombnianoوهي مجلة نصف سنوية مخصصة للبحوث في مجال تاريخ الأبرشية، وتعد أفضل مصدر لمعرفة أسرار البعثات التبشيرية. وغالب مقالاتها تهم علماء الدراسات السودانية.

وهنالك جانب لا ينبغي أن نغفله، وهو جانب الدراسات الإيطالية التي أجراها مبشرون عن سكان السودان ولغاتهم. فبدأ جونيفاني فانتيني في عام ١٩٧٠م في نشر عدد من الدراسات باللغة الإنجليزية عن النوبة المسيحية (في فرص وغيرها). ونشرت ببولونيا في عام ١٩٧٣م ترجمة إيطالية ليوميات فرانسيسكو مورلانق (والذي ولد في دولميت بجبال الألب الإيطالية في ١٨٢٨م، ومات ببيرو من مرض التايفس عام ١٨٧٥م، وعمل مبشرا في مناطق الدينكا والباري في قوندوكورو نحو عقد من الزمان. المترجم). ونشر ببولونيا أيضا في عام ١٩٧٩م كتاب بعنوان «نصف قرن من التاريخ في السودان»، وهو يحوي سجلات الولادات والزواج والوفاة لرعايا الكنيسة الكاثوليكية بالسودان من عام ١٨٤٢ إلى ١٨٩٨م.

وقام بعض المؤرخين الإيطاليين من المجيدين للإنجليزية بالتعاون مع رصفائهم الأوربيين في نشر أعمال تاريخية مشتركة. فقام الأب الياس تونيلو في عام ١٩٧٤م بالاشتراك مع المؤرخ البريطاني ريتشارد هيل في نشر كتاب «افتتاح حوض النيل»، الحاوي لكتابات بعض المبشرين الكاثوليك عن جغرافية السودان وسكانه. وشارك ذات المؤرخ البريطاني إيطالي آخر هو بول سانتي في نشر كتابات مبشرين كاثوليك عن السودان بعنوان «السودان كأمة». وصدر في عام ١٩٨١م كتاب «اثنوجرافية بحر الغزال» للأب استفانو سانتاندريا.

ويمكن القول في الختام بأن عدم الثقة (بـل والقطيعـة الكاملـة) بـين الكنيسـة وعلماء التاريخ في إيطاليا قد ولت تماما أو كادت. وتبقى مهمة زيادة التعاون بـين الجانبين في إطار عالمي أوسع. وليس للدراسات السودانية في إيطاليا إلا أن تتقدم للأمام. ولن يتحقق ذلك في نظري إلا بمزيـد مـن التعـاون مـع الـزملاء في مراكـز البحث بالخرطوم وبيرجن ودرام ولندن، وفي غيرها من المراكز.

نمساويان في السودان

نقطة البداية في عمليات تمدين القارة السوداء

Austrians in the Sudan: the Starting Point for the Civilization of the Dark Continent

بروفيسور فلوريان كروب Florian Krobb

مقدمة: هذه ترجمة قصيرة لمقال طويل نشره البروفيسور فلوريان كروب أستاذ اللغة الألمانية بالجامعة الوطنية الايرلندية في مينوث Maynooth بإيرلندا عن الدور الذي قام به رجلان نمساويان هما أرنست مارنو ورودولف سلاطين في «إدخال المدنية والحضارة إلى القارة السوداء»، وتحديدا في السودان، وذلك في العدد العشرين من مجلة الدراسات النمساوية AustrianStudies، والصادرة في ٢٠١٢م.

وتشمل اهتمامات المؤلف البحثية كتابات الرحالة الألمان في أفريقيا، وتاريخ الآداب اليهودية الألمانية، والواقعية الألمانية. وسبق لي أن ترجمت العرض الذي نشره البروفيسور كروب عن كتاب إيرهارد أويسر «إمبراطورية المهدي: قيام وسقوط أول ثيوقراطية إسلامية»

المترجم

(١)

لقد محيت – ومنذ فترة ليست بالقصيرة – تلك الترهة التي تزعم عدم مشاركة النمسا في الجهود الأوربية الاستعمارية. فقد شارك النمساويون في استكشاف مجاهل أفريقيا، وساهموا أيضا في غزو أفريقيا وتوزيع أقطارها على

القوى الأوربية. وبما أن إمبراطورية هابيسبيرج (النمساوية) لم تحز فعلا على أي مستعمرات في أفريقيا، فقد صبت كل جهودها الاستكشافية والسياسية والتجارية والتبشيرية في مصلحة قوى أوربية استعمارية أخرى. ولعب كثير من النمساويين «الأفارقة» أدوارا بالغة الأهمية في مختلف مراحل التوسع الاستعماري الأوربي. ونخص بالذكر من هؤلاء أرنست مارنو (المولود بفيينا في ١٨٤٤م، والمتوفى بالخرطوم في ١٨٨٣م) ورودولف سلاطين (والمولود بالقرب من فيينا في ١٨٥٧م، والمتوفى فيينا في ١٩٣٢م)، واللذان كانا من أبرز النمساويين الذين شاركوا في عمليات استكشاف وفتح السودان، ذلك القطر الأفريقي الذي كان محط أنظار عدد من الدول الأوربية الاستعمارية، وكادت تحدث في جنوبه (في فشودة) مواجهات عسكرية بين بريطانيا وفرنسا في عام ١٨٩٨م.

وتوالت في القرن التاسع عشر، وخاصة في نصفه الأخير، غزوات الدول الأوربية الاستعمارية لأفريقيا بمعدلات سرعة متباينة في مختلف المناطق، وذلك بحسب ظروف مختلفة أهمها الطبيعة الجغرافية للمنطقة المراد فتحها، ومدى المقاومة التي يبديها السكان المحليون، ومدى خطورة العمليات العسكرية، وحدة الصراع بين القوى الأوربية المتنافسة، وبين قادتها أيضا، وغير ذلك من العوامل.

أما السودان (المصري)، فقد كان له وضع خاص في التاريخ الاستعماري، وذلك لسببين: أولهما أن ثورة العقيد عرابي، وما تلاها من احتلال بريطاني لمصر، كانت قد أشعلت فيما يبدو من أوار التسابق المحموم على أفريقيا (scrambleforAfrica)، وثانيهما انتفاضة المهدي، والتي توجت بقيام الدولة المهدية في السودان بين عامي ١٨٨١ – ١٨٩٨م، والتي عدت أعنف صور المقاومة المحلية ضد الهيمنة الأوربية، وأكثرها نجاحا.

وكانت مصر تحت قيادة الخديوي محمد علي باشا، واسماعيل باشا وتوفيق

باشا قد شرعت في عمليات تطوير وتحديث على النمط الغربي، كان من ضمن وسائله القيام بغزوات في العمق الأفريقي، وضم المناطق الجنوبية الواسعة (فيما عرف بالسودان). وما كان لبرنامج التطوير والتحديث والتوسع جنوبا والذي عزم عليه حكام مصر (والذين أعلنوا عمليا عن استقلالهم عن الإمبراطورية العثمانية في إسطنبول) ليتم لولا استعانتهم بخبراء اوربيين في مختلف المجالات العسكرية والمدنية. فأتى العون العسكري من بريطانيا، وأقامت فرنسا كونسورتيوم عالمي لإنشاء قناة السويس، وأقام النمساويون والإيطاليون والألمان وأوربيون آخرون بقية المشاريع الصغيرة الأخرى مثل التلغراف والطرق والسكك الحديدية. ولعب النمساويون على وجه خاص، ومنذ عام ١٨٤٠م، أدوارا بارزة في الغزو المصري للسودان. فقد قامت على سبيل المثال فرق تبشيرية نمساوية بتشييد محطات على النيل الأبيض في عام ١٨٥١م، وكانت الحكومة النمساوية أول دولة أجنبية تقيم لها قنصلية في الخرطوم تحت قيادة قسطنطين ريتز، وذلك من أجل حماية مصالح النمسا التجارية من الاحتكار المصري.

وتسارع مد التوسع في السودان تحت قيادة الجنرال غردون (والذي حكم المديرية الاستوائية منذ عام ١٨٧٤م، ثم كامل السودان منذ عام ١٨٧٦م)، إذ أن غردون كان قد عين عددا من الأوربيين للقيام بإدارة بعض المناطق الأكثر أهمية. فعين مثلا السويسري فيرنير مونزيقر مديرا لشرق السودان في عام ١٨٧٣م، والألماني أيزاك ادوارد اشنتزر (عرف بأمين باشا لاحقا) مديرا للاستوائية في عام ١٨٧٨م، ورودولف سلاطين مديرا لدارا (Dara) في جنوب غرب دارفور في عام ١٨٨١م.

وكان مما شجع مصر في عهدها التركي على غزو السودان هو سهولة النفاذ إليه. ففيما عدا وجود عدد من الشلالات على النيل، كان الطريق لكامل البلاد سالكا. وكان السودان (والذي يعد نقطة الالتقاء بين ثلاث دوائر ثقافية: أوربا المسيحية،

والشرق المسلم، وأفريقيا الزنجية) مصدر جذب للمستكشفين من كثير من الأقطار الأوربية، والذين تقاطروا على البلاد لاستكشاف منابع النيل، ولدراسة أصل الإنسان، ولمحاولة حل بعض المسائل الجغرافية التي كانت موضع خلاف بين علماء الجغرافيا منذ عقود طويلة، ولاكتشاف أنواع جديدة من النباتات والحيوانات، ولدراسة الأجناس المختلفة ولغاتها وغير ذلك. وكان أيضا قبلة لدعاة التوسع الثقافي الأوربي، وللمنادين بوقف تجارة الرقيق، وللمبشرين، وللمحسنين، وكذلك للساسة من دعاة التوسع الاستعماري، وبعضهم كان قد قدم لأفريقيا بدعوى «حماية الأهالي» من الأطراف الأوربية الأخرى. كذلك جذب السودان اهتمام الصيادين والمغامرين وهواة جمع الحيوانات النادرة، والذين أوفدتهم حدائق الحيوان في مدن أوربا وسيركاتها، وتجار العاج (ناب الفيل) والمواد المحلية الأخرى.

ومع إنشاء محطات على النيل الأبيض وزيادة الملاحة فيه غدت المنطقة جنوب خط العرض ١٢ درجة منطقة شديدة الجاذبية للمستعمر (والمستثمر) الأوربي. وتبارى الكتاب والصحفيون والمراسلون في المدن الأوربية في نقاشات ومقالات وسجالات حامية حول غزو السودان لفتت انتباه كثير من القراء.

وكانت كتابات (وأفعال) النمساويين مارنو وسلاطين جزءً من تلك الكتابات المثيرة. فقد قدم ماريو للسودان سائحا بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٦م، في غضون سنوات حكم الخديوي إسماعيل، صاحب المشاريع التوسعية. وتزامن قدومه مع حملات صمويل بيكر ضد تجارة الرقيق في سبعينيات القرن التاسع عشر الباكرة، عند تولي غردون باشا للحكم.

وكانت رحلات مارنو، والتي سجلها في كتابين، تصب في خانة تعضيد الحكم الاستعماري للسودان، رغم أنه كتب عن جغرافية السكان في السودان ومناخه، وما وجده فيه من نباتات وحيوانات. أما سلاطين فقد كانت مهمته الرئيسة هي

تطبيق نظام فعال لجمع الضرائب، وقمع التمرد والمقاومة في مديريته (دارفور)، والتي لم تفلح الحكومة المصرية –التركية في ضمها للسودان إلا في عام ١٨٧٤م.

أما أهم كتابات سلاطين فكانت عن أيامه وهو في أسر المهدي وخليفته عبد الله (١٨٨٣ – ١٨٩٥م). وجاء كتابه تشريحا لجثة (autopsy) ذلك النظام السياسي الوطني المحلي. وعد ذلك الكتاب (رغم وصف البعض له بأنه محشو بالإثارة) أقرب ما نشر عن تلك الفترة صدقا في المعلومات عن نظام لم يقف فقط متحديا التفوق الأوربي، بل تمادى في الاستبداد والظلم والتجارة في الرق. وساهم كتاب سلاطين، ودون ريب، في شحذ همم الأوربيين للقيام بـ «عبء الرجل الأبيض»، وحث البريطانيين على غزو السودان، وحضهم على استخدام القوة العسكرية لهزيمة المقاومة (الوطنية).

(II)

جمع ما سجله أرنست ماريو في كتابين صدرا بالألمانية، الأول تحت عنوان «رحلات في المناطق بين النيلين الأبيض والأزرق والمناطق الزنجية المجاورة بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٣م» والثاني بعنوان «رحلة في مديرية الاستوائية المصرية وكردفان بين عامي ١٨٧٤ و١٨٧٦م». ولم يكن كتابيه هذين في مستوى كتب الرحالة الآخرين من حيث الاكتشافات والمعلومات، ووصف البعض كتاباته بأنها عادية لا تلفت النظر، رغم أن ماريو كان من المغرمين باستكشاف مجاهل أفريقيا باعتبارها الدليل لمعرفة المزيد من تطور وارتقاء البشر. وركز ماريو في كتابه الثاني تحديدا علي وجود أقزام (pygmies) في مناطق نائية في بحر الغزال (مثل ما يوجد بين الأكا Aka في الكنغو والتكي تكي TikiTiki في نيوزلندا)، وعدهم من بقايا أجناس بشرية قديمة. وكان ماريو يفسر ما يشاهده من منظور سياسي – اجتماعي أكثر منه من ناحية أنثروبولوجية، وكان مفتونا أيضا بدراسة التركيب العرقي للمجتمعات البشرية المحلية. وبالفعل كان وجود أكثر من ستمائة مجموعة عرقية

ولغوية في السودان مصدر إشكالات عديدة أمام الحكم الاستعماري. غير أن المستعمر قام وبشكل عام بتقسيم هذه المجموعات إلى قسمين كبيرين: شعوب مسلمة من أصول عربية ونوبية وسوداء، وشعوب سودانية – نيلية غير مسلمة تسكن في العمق الأفريقي. وكان الأوربيون يولون المجموعة الثانية اهتماما خاصا بدعوى أن حاجة وإمكانية هؤلاء الناس للتطوير والتمدين كانت أكبر، وذلك كان أحد الأسباب المعلنة لتبرير التدخل الأوربي في أفريقيا على كل حال، خاصة وقد كان المستعمرون الأوربيون ينتقدون سكان السودان المسلمين ويتهمونهم بالولوغ في تجارة الرقيق، وكانوا يعدون الشعوب السودانية – النيلية غير المسلمة هي الضحية الأولى تلك التجارة.

وهدفت معظم كتابات ماريو إلى إعطاء معلومات وبيانات وحلول للعوائق الكبيرة التي كانت تواجه الحكم الاستعماري، خاصة في المناطق الجنوبية في السودان، ومن قِبَل تجار الرقيق الشماليين على وجه أخص. وكانت كتاباته تهدف لتقديم معلومات «موثقة» عن التركيبة العرقية المعقدة لشعوب السودان، وعن التداخل الثقافي والعنصري بين تلك الأعراق في غضون عقود من الهجرة والغزو وتغيرات الحدود وديناميكية هياكل السلطة في داخل تلك المجموعات العرقية، وفيما بينها أيضا.

وكان ماريو مدركا لأهمية الربط بين الأصل العرقي، والتوجه الثقافي، والرتب (التصنيفات) الاجتماعية بالنسبة لإدارة الحكم الاستعماري، والتي كانت تسعى لمعرفة أفضل السبل لتقسيم السلطات المحلية بين الأعراق المختلفة في البلاد المتساكنة مع بعضها في ذات المنطقة، ولتسهيل أمور الإدارات المحلية والحكومية، خاصة فيما يتعلق بجمع الضرائب. وبذا قدم علم الأثنوجرافيا (ذلك العلم الاستعماري المنشأ، والذي يصنف المجموعات السكانية بحسب لغاتها وثقافتها وتنظيمها الاجتماعي) والذي اشتغل به ماريو، جليل الخدمات للحكم

الاستعماري من أجل ترسيخ حكم مركزي فعال.

وكان المستعمر يخشى من فرط التنوع في العرقيات في البلاد وذلك لأن التنوع المفرط يجلب الريبة والشك (uncertainty)، والريبة والشك يجلبان بدورهما عدم الاستقرار، ويكونان مصدر قلق دائم للحكام. وكتب ماريو ذات مرة ما نصه: «ترى العديد من العرقيات ممن نسميهم جميعا سودانيين (في منطقة واحدة). غير أن ذلك لا يعني شيئا غير أنهم من سكان المنطقة المحليين». وحذر من تبني «المعايير الأوربية» في الأمور المتعلقة بتقييم السكان المحليين، ومن استخدام إداريين أوربيين لإدارة الشئون المحلية للأهالي. وكان يرى ضرورة تفريق الإدارة الاستعمارية بين المجموعات العرقية المختلفة بحسب مقدار تطورها (بحسب المعايير الأوربية بالطبع). فكان يرى مثلا، ولأسباب عديدة، أن المسلمين أقل رغبة وقدرة على التغيير، وعلى تقبل التوجيهات والارشادات من الأوربيين مقارنة مع المجموعة غير المسلمة في البلاد.

وكان لماريو آراء تختلف عن آراء وسياسيات صمويل بيكر العنيفة تجاه الرق وتجاره. فكان، وبحكم معايشته لواقع الحال، وبحكم أنه «عالم» وليس سياسيا يسعى لكسب إعجاب الآخرين، يعلن عن آراء وتوصيات بشأن قضية الرق تعد خلافية ومثيرة للجدل. فقد جاء في توصياته ما يلي: «لا يمكن لأحد أن يدافع عن تجارة الرقيق، ولا عن الانتهاكات التي يتعرض لها الرقيق. إلا أنه ليس بوسعي التوصية باتخاذ اجراءات صارمة وعنيفة ومفاجئة تغير تماما من أنماط العلاقة بين الأحرار والمسترقين. وأوصي في هذا الشأن بسياسة أقل عنفا وأكثر تقنينا وتدرجا وتنظيما لهذه العلاقة، وذلك قبل الوصول للهدف النهائي وهو منع الرق والتجارة فيه بحكم القانون». وظل ماريو يحذر الإدارة من المواجهة العسكرية العنيفة الحاسمة مع تجار الرقيق لما ذلك من نتائج سلبية على الأطراف المعنية كلها، والتي لن تفلح في محاربة الرق على أرض الواقع، بل ستقوض جهود الحكومة

الرامية لمنعه بحكم القانون. وكان يرى أن السكان المحليين لن يرضوا عن منع الأوربيين القسري لتجارة الرقيق وذلك لتأخر تطورهم في المدنية (delayed civilizatory development). وكتب ما نصه: «لقد أتت الحرية التي تنعم بها الشعوب المتحضرة بعد مرور وقت طويل وبصورة متدرجة. وهذه الحرية لا تناسب الزنوج، والذين لا يزالون يحتلون مكانا أقل من مكان الأوربيين قبل ألفين من الأعوام. ولذا فإن من الواجب الاستمرار في الوصاية والتبعية (tutelageanddependency) لهؤلاء الناس حتى تنمو مقدراتهم تدريجيا ويصلوا لمرحلة القدرة على اتخاذ قرار أخلاقي (moraldecision) بكامل إرادتهم، ومن بعد ذلك يمكنهم التخلص من الوصاية والتبعية لغيرهم». أي أن ماريو كان يرى ضرورة التدرج والتوسط والاعتدال في شأن التعامل مع ما هو سائد في السودان حتى يتمكن أهله من اللحاق بالمعايير الأوربية في الأمور كلها، خاصة في شأن الرق. غير أنه يجب القول أيضا بأن ماريو كان يقترح التزام الاعتدال والتوسط كإجراء مؤقت فقط، فالهدف النهائي كان هو بالطبع إحكام سيطرة المستعمر على كل المناطق، ومنع تجارة الرقيق بالكلية.

ومثلت مهنة ماريو حلقة وصل بين الاستكشاف العلمي وبين ممارسة السلطة. وتراوح مساره المهني بينهما. وكانت الحكومة تمول بعض رحلاته الاستكشافية. وكان له الفضل في إزالة نباتات السدود على النيل الأبيض، مما سهل الملاحة فيه والوصول لمناطق بعيدة. وفي ختام حياته المهنية قبل بعرض غردون له ليصبح حاكما لمديرية القلابات على الحدود الحبشية.

وبلغت شهرة ماريو في الاكتشافات والمعرفة بالمناطق المدارية مسامع وزير المالية في الحكومة النمساوية ليبولود فون هوفمان (والذي كان من المؤيدين لجهود ملك بلجيكا ليبولود الثاني لتطوير (واستعمار) حوض الكنغو) فعينه رئيسا لحملة استكشافية للدخول في حوض ذلك النهر عبر زنجبار. غير أن ذلك لم يتم

لاختلافات بين ماريو والمسئولين عن تلك الحملة المزمعة.

وكان المشاعر المضادة للرق هي ما دفع – جزئيا- الأوربيين لغزو أفريقيا. وعبر عن ذلك الموقف الإنساني ما قام به المستكشفون والرحالة مثل ريتشاردسون وليفنجستون وغيرهم من الداعين لحظر الرق وتجارته. وكان الأوربيون يشعرون بتفوقهم الأخلاقي، والذي كانوا يؤمنون بأنه يعطيهم «حق» التدخل في الشئون الإفريقية.

لقد كان ماريو جزءً من حركة أوربية كانت تؤمن بضرورة إيقاف تمدد منافسيهم من الشماليين المسلمين في أفريقيا الجنوبية. ثم تمت هزيمة غردون بعد قيام الثورة المهدية، وازدادت حدة الصراع والتنافس بين حركة الأوربيين ومسلمي الشمال. وفي واقع الأمر كان قيام الثورة المهدية قد أخر سيطرة الأوربيين والمصريين الكاملة على السودان بنحو عقدين من الزمان. وفي غضون هذين العقدين تغير توجه الأوربيين بالتدريج من مجرد المسح والاستكشاف والتمدد المتدرج إلى مرحلة التدخل العسكري المباشر.

وكان هنالك نمساوي آخر (هو رودولف سلاطين)، لم يكن فقط في وسط الأحداث، بل خدم كعميل للسلطات البريطانية وحثها على التدخل العسكري.

(III)

كان سلاطين، وفي كثير من الأوجه، نقيضا لماريو. فقد كان شخصية مشهورة عالمية، وذاع صيته في أوربا، خاصة بعد نشره لكتابه الشهير عن سنوات حبسه لدى المهدي والخليفة. فنال الأوسمة والنياشين من الملكة البريطانية فيكتوريا، وفرانس جوزيف إمبراطور النمسا، وعدد آخر من ملوك أوربا وقادتها.

وهنالك سببان لاهتمام الأوربيون بسلاطين، أولهما كونه أهم شاهد عيان أوربي للحركة المهدوية التي نجحت في هزيمة الحكم التركي – المصري

للسودان، وثانيهما هو مهنته اللاحقة كأحد أعمدة المجتمع ونجومه، والذي أتى من أصول متواضعة، ثم علا صيته حتى غدا من جلساء الملكات والملوك المفضلين، حتى قامت الحرب العالمية الأولى، فأنهت صيته وشهرته العالمية، وأجبرته على التقاعد.

وذاعت قصة سلاطين، وأسر القوات المهدوية له، ودخوله في الإسلام إنقاذا لنفسه من القتل (مما عده البعض خيانة لتراثه الأوربي). وكان ذلك في مقابل أمين باشا، والذي حوله العزل في أصقاع جنوب السودان لأيقونة للمدنية والحضارة، وتسابقت الحملات الأوربية لإنقاذ حياته.

ونجح سلاطين في الهرب من أمدرمان في ١٨٩٥م، ونشر كتابه الشهير في العام التالي، ونال من الذيوع ما لم تنله الكثير من كتب الرحالة والمستكشفين والصحافيين الآخرين. فقد وزعت من ذلك الكتاب آلاف النسخ وترجم لعدة لغات أوربية. ولا غرو، إذ جمعت قصة سلاطين بين الإثارة والأصالة (مقرونة بالشرعية «العلمية» لتشريح ذلك النظام). وأثارت رواية سلاطين عاصفة من الغضب الأخلاقي moraloutrage، وجددت وأكدت التخوف من «الآخر» الذي لا يمكن احتوائه، والذي كان يتحدى التفوق الأوربي، ويخرب مهمته الحضارية.

وكان مما زاد من شهرة سلاطين عمله بالقرب من غردون، وحمايته له، وعيشه بالقرب كذلك من الخليفة عبد الله. وكانت مهمته الأولى في دارفور هي خلق نظام عادل وفعال لجمع الضرائب وزيادة دخل الحكومة، وهذا ما جعله أحد «خبراء» شئون أحوال شمال – غرب السودان الاجتماعية والثقافية والسياسية قبل ظهور المهدي. وفي كتابه يصف سلاطين مديرية دارفور بأنها صارت موقعا للصراع بين الشمال والجنوب. وهذا هو ذات ما أشار إليه النمساوي ماريو من قبل.

وصور سلاطين أسباب غزو بريطانيا للسودان وكأنها حرب من أجل نشر المدنية والحضارة وإزالة البربرية، إذ جاء في نهاية كتابه الآتي:

«لقد أنتهى عهد العذاب الذي كابدته، وتم إنقاذي من براثن البرابرة المتعصبين، ووقعت عيني، وبعد طول سنين، وللمرة الأولى، على مستوطنات البشر المتحضرين في دولة يحكمها القانون والعدل».

ومن ناحية قانونية بحتة، فإن ما أورده سلاطين يعد دليلا حيا على عدم شرعية ذلك النظام المهدوي وفظاعة جرائمه، وبهذا ترتفع مذكرات سلاطين الشخصية وقصة مغامراته إلى مستوى السياسة. ومما عزز شهادة سلاطين حول الخليفة ونظامه ما أدلى به الألمانيان اور فالدر وكارل نيو فيلد، والأخير هذا كان قد نشر كتابا عن أيام حبسه في أمدرمان قبل سنوات قليلة من نشر سلاطين لكتابه. وأعتبر الأوربيون شهادات اولئك الرجل الأسرى شهادات رجال محايدين، وصدقوها.

وكان سلاطين في كتابه قد صور شخصية الخليفة كطاغية فاسد متجبر (بالمعايير الأوربية)، يمعن في الظلم والقتل العشوائي والمعاملة المفرطة القسوة لمعارضيه، في مقابل ما يعتقده هو في صفات شخصيات القادة الأوربيين (مثلما جاء بها المحامي والفيلسوف السياسي الفرنسي مونتسيك). وذكر في كتابه أن أحد مظاهر الظلم في عهد الخليفة كان سوء معاملة الرقيق. وكانت سلاطين ينتقد من قبل سلطان دارفور (قبل ضمها للحكم المصري – التركي في ١٨٧٤م) في استخدامه للرقيق المجلوبين من الجنوب كعملة يسير بها شئون دولته، ويأخذهم عنده كضرائب من السكان. غير أن سلاطين كان يحمل ذات الرأي العملي الذي أعلن عنه ماريو في ضرورة التدريج في تحريم الرق، خشية إحداث نقص مفاجئ في الأيدي العاملة.

وجاء في نهاية مقدمة الأب أور فلدر لكتاب سلاطين نص يحرض على غزو دولة المهدية جاء فيه: «أدعو الله أن يفلح هذا الكتاب في إيقاظ مشاعر الناس تجاه مصير السودان غير السعيد، وأن يساعد المهتمين بأمر ذلك البلد لاتخاذ القرار المناسب والقيام بالخطوات المطلوبة لإعادة المدنية لذلك البلد التعيس، والذي

كان في يوم من الأيام بلدا سعيدا ومزدهرا».

لم يقابل ماريو سلاطين كفاحا إلا مرة واحدة، وكان ذلك في سبتمبر من عام ١٨٧٥م، عند عودة ماريو من جنوب السودان. وكان سلاطين وقتها شابا صغيرا يعمل لدى أمين وغردون، وكان يتأهب للعودة للنمسا لأداء فترة العسكرية الالزامية، قبا أن يعود مجددا للسودان بناء على طلب غردون. ووصف ماريو سلاطين في تلك المقابلة الوحيدة بأنه «رفيق عزيز EinenliebenLandsmann».

وكانماريو وسلاطين وهما يعملان في السودان يحييان آمال النمسا في أن تصبح لاعبا استعماريا عن طريق التجارة والمشاريع التبشيرية.

مقتطفات من مقابلة مع الفنان التشكيلي السوداني محمد خليل

An Interview with Mohammed Khalil

كاميل بيلوبس Camille Billops

مقدمة: هذه ترجمة (بتصرف) لمقتطفات مختارة من مقابلة طويلة مع الفنان التشكيلي السوداني محمد عمر خليل أجرتها معه كاميل بيلوبس، ونشرت عام ١٩٨٨م بالعدد الثاني والعشرين من مجلة «منتدى الأدب الأمريكي الأسود BlackAmericanLiteratureForum»، والتي تصدر بالولايات المتحدة الآن تحت اسم آخر هو African American Review.

وكاميل بيلوبس (١٩٣٣م -) بحسب سيرتها المبذولة في موسوعة الويكيبيديا، هي فنانة أمريكية من أصل أفريقي تشتغل بالنحت والتوثيق وصناعة الأفلام. أما محمد عمر خليل (١٩٣٦م -)، بحسب ما ذكر عنه في عدد من المواقع الإسفيرية، هو فنان سوداني/ أمريكي تخرج في كلية الفنون بالخرطوم في عام ١٩٥٩م، ثم درس في أكاديمية الفنون بفلورنسا الإيطالية بين عامي ١٩٦٣ - ١٩٦٦م، ثم بمدينة رافينا الإيطالية. وعمل بعد ذلك في عدد من المعاهد والجامعات الأمريكية، ثم بعدد من الدول العربية.

المترجم

**** **** ****

بيلوبس: أين ولدت؟

خليل: في بري بالخرطوم، عاصمة السودان في الثامن من يناير عام ١٩٣٦م. وأمي هي سكينة عابدين، وأبي هو عمر خليل.

بيلوبس: هل كان لأحد والديك اهتمام بالفنون؟

خليل: لا. لقد كان والدي يعمل نجارا، بينما كانت أمي ربة منزل.

بيلوبس: متى بدأت ممارسة الفن؟

خليل: لقد بدأت الرسم وأنا في المرحلة الوسطى، عندما كانت سني أَحَدَ عَشَر عاما. بل قد مارست النحت في سن أصغر من ذلك. أذكر أني كنت في الخامسة أو السادسة من عمري عندما كنت أصنع من الطين كهيئة الحيوانات. وكنت أترك ما أصنعه يجف تحت أشعة الشمس.

بيلوبس: هل ترعرعت في بري؟

خليل: نعم. ولدت بها وقضيت بها كل حياتي حتى سافرت لإيطاليا عام ١٩٦٣م. وبري تقع في بلدية الخرطوم، وتبعد عن وسطها نحو أربعة كيلومترات.

بيلوبس: بماذا علق والداك عندما لاحظا ميولك الفنية؟

خليل: كان كل شخص يشتغل بالفن في تلك الأيام يعد شخصا بوهيميا bohemianأو منبوذا .outcast عندما كنت في الثامنة عشر من العمر اشترى مني أحدهم لوحة، فأخذتها لوالدي في ورشة النجارة ليصنع لها إطارا. سألني والدي إن كنت قد بعت تلك اللوحة. ولما رددت عليه بالإيجاب سألني عن الثمن الذي قبضته فقلت له: «أعطاني عشرين جنيها». كانت في تلك الأيام مبلغا ضخما. سألني عن الوقت الذي استغرقته في رسم اللوحة فقلت له: «نصف ساعة». أشار والدي إلى دولاب كان قد انتهى من صنعه للتو وقال لي: «هل ترى هذا الدولاب؟ لقد قمت بعمله في أسبوع كامل ونلت عليه خمسة عشر دولارا» (لعل المقصود جنيها. المترجم). رددت عليه بالقول إن اللوحات لا تباع بسرعة. وافقني على

ذلك.

بيلوبس: هل طلب منك الوالد المشاركة المالية في مصاريف البيت؟

خليل: لا. لم يطلب شيئا مني. عندما استلمت أول شيك في حياتي قدمته له، ولكنه رده إلي قائلا: «لا. هذا ملكك أنت. إن أردت أن تجلب للعائلة شيئا، فأفعل. الأمر يعود لك. ولكني لا تعطني شيكك».

بيلوبس: عندما تعود بذاكراتك إلى والديك عندما كنت صغيرا... من الذي كان أقربهما لك؟

خليل: في الحقيقة كان أقرب شخص لي هي جدتي مدينة. فهي التي قامت بتربيتي (توفيت والدتي وأنا في الحادية عشر) وسميت عليها ابنتي. كانوا ينادونني محمد ود مدينة. أعتقد أنها لا تزال في انتظاري لأعود ثم تموت. هي الآن في التسعينيات من العمر.

بيلوبس: ولماذا لا تذهب لزياتها؟

خليل: سأذهب إلى أصيلة بالمغرب في ديسمبر

بيلوبس: وهل كان والداك موافقا على دخولك كلية الفنون؟

خليل: لا، أنا الذي قررت الدخول لتلك الكلية. وتعمدت عدم بذل جهد كبير في المدرسة (الثانوية) حتى لا أقبل في الكليات الأفضل (مثل المعمار أو الطب) التي يدخلها الطلاب الذين يحرزون درجات عالية بصورة أتوماتيكية. في تلك الأيام كانت البلاد تحتاج لمثل تلك التخصصات.

بيلوبس: هل كانت الكلية التي دخلتها هي أول كلية فنون بالسودان؟

خليل: نعم. بدأت في الجامعة مع قرينلو (Greenlaw) وهو مدرس فنون إنجليزي.

بيلوبس: أكان الاستعمار قد خرج حينها؟

خليل: لا. الاستعمار لم يخرج حتى ١٩٥٩ – ١٩٦٠م.

بيلوبس: كيف استقبلت الثقافة (الوسط الثقافي) تلك الظاهرة الغربية المتمثلة في easelpainting (وهو كما أفادني فنان خبير، ذلك الفن الذي يمارسه الفنان التشكيلي الملون – بكسر الواو وتشديدها – الذي يرسم اللوحة التي توضع على حامل، وليس الفن الذي يستخدمه الفنان الطابع، الذي يستخدم آلة الطباعة لتنفيذ لوحاته بالحفر على الخشب أو قطع المعدن. المترجم)

خليل: لم يكن الأمر سهلا. لا يستطيع المرء أن يكسب عيشه من الفن. لقد كان أمرا جديدا. السودانيون لا يشترون أو يجمعون أعمال الفنانين. الأجانب والعاملين بالسفارات الأجنبية وحدهم هم الذين يقتنون اللوحات الفنية.

بيلوبس: تلك إذن هي بداية الفن الغربي في السودان؟

خليل: نعم. لقد بدأ ذلك الفن في الخمسينيات.

بيلوبس: هل تعلم عن أي طالب سافر للقاهرة لتعلم الفن، أم أنهم كانوا يتحاشون القاهرة ويذهبون مباشرة لأوروبا؟

خليل: كانوا يذهبون لأوروبا. لكننا زرنا ونحن طلاب في نهاية السنة الدراسية كليات الفنون بالقاهرة والإسكندرية وقابلنا بعض الفنانين فيها.

بيلوبس: هل أكملت دراستك في كلية الفنون بالخرطوم لتحصل على بكالوريوس؟

خليل: يقضي الطالب ستة أعوام بالكلية ويحصل في النهاية على دبلوم. ولو كنت من المتفوقين، قد تحصل على بعثة تمتد لسنوات قليلة إلى إنجلترا. لم تكن الكلية تمنح بكالوريوس. النظام الأمريكي يختلف عن النظام البريطاني. أنا ذهبت بعد التخرج لإيطاليا وليس لإنجلترا.

بيلوبس: وماذا كان رأي العائلة عندما علموا بأنك ستترك السودان وتسافر لأوروبا؟

خليل: وافق والدي على سفري وباركه. كان أخي وأختي قد تزوجا، وكنت الوحيد العزب في العائلة. حاول والدي تزويجي من بنت عمتي قبل السفر، غير أني رفضت. ولعمتي قصة طريفة عندما أتت زوجتي الحالية للزواج مني في السودان.

بيلوبس: هل تزوجت في السودان؟

خليل: نعم. حضرت كلير للسودان بعد تخرجها في الأكاديمية الإيطالية التي كنت أدرس بها. لقد أتت للأكاديمية في سنتي الأخيرة قبل التخرج. كنت قد أكملت دراستي في الأكاديمية في عامين، وبقيت لي سنة كاملة من بعثتي لم تكن لي فيها دراسة في الأكاديمية، فسافرت إلى رافينا لدراسة الفسيفساء mosaic بينما بقيت هي تدرس الرسم في الأكاديمية. ثم رجعت لفلورنسا ثم عدت للسودان، بينما عادت هي لأمريكا. وبعد شهرين لحقت بي في الخرطوم، حيث تزوجنا بعد ذلك بشهور. كان عمري حينها ٣١ عاما. أتت عمتي لتتفقد عروسي، وكانت قاسية عليها جدا. أخبرت عمتي أن كلارا هي زوجتي الآن وأن عليها أن تظهر لها بعض اللطف. لقد كانت عمتي تلك هي والدة البنت التي كان أهلي قد اقترحوا علي الزواج منها، وكان أخي الأكبر متزوجا من إحدى بناتها.

بيلوبس: وماذا كان رأي عائلتك في المرأة البيضاء التي تزوجتها؟

خليل: لقد أحبوها وعدوها واحدة من العائلة لأنها زوجتي. لم يترددوا في القبول بها.

بيلوبس: وماذا درست في إيطاليا؟

خليل: لقد درست عمل اللوحات الجصية (fresco) والنقش (etching)

والرسم. وفي عامي الأخير بإيطاليا درست الفسيفساء. كانت أيامي في إيطاليا تلك أفضل أيام حياتي، وأنا أجول بين كل تلك اللوحات البالغة الجمال. قضيت في فلورنسا معظم وقتي، ولكني طفت بكل أنحاء إيطاليا مستمتعا برؤية أعمال كبار فناني الحضارة من رسامين ونحاتين ومفكرين ومعماريين ... هنا كان مولد الإنسان.

بيلوبس: هل قابلت أفارقة آخرين في إيطاليا في تلك الأيام؟

خالد: نعم. كان هنالك كثير من رجال غرب أفريقيا. ولا زلت احتفظ بصلات حسنة مع بعضهم.

بيلوبس: إلى أين ذهبت بعد زواجك في السودان، ولماذا غادرت السودان؟

خالد: لقد غادرت السودان لسوء الحال في الكلية التي كنت أعمل بها.

بيلوبس: رجعت من إيطاليا وعملت مدرسا؟

خالد: كان لابد من أن أعود وأعمل لعامين متتاليين على الأقل، وبعدها كان يحق لي أن أترك العمل. حاولت زوجتي التقدم للعمل بالمدرسة الأمريكية في الخرطوم، ولكن تعذر عليها ذلك بسبب وجود عدد كبير من الأجانب بالخرطوم يبحثون عن وظائف تدريسية. لذا فقد بقيت تعمل من / في البيت.

بيلوبس: هل كنت تتقاضى ما يكفيك وزوجك؟

خالد: لا. عدت لأجد أني أتقاضى نفس الراتب الذي كنت أناله قبل سفري لإيطاليا. وكان ذلك أمرا خاطئا. طالبت بتفريغي لعام كامل لأفعل ما أريد، أو أن يسمح لي بالعمل في السعودية أو البحرين لأنهم يدفعون جيدا في الخليج. ورفضت جميع طلباتي مع أني وجدت طلابي يعملون في نفس كليتي بمرتبات تفوق مرتبي. وفي أيامي تلك بالكلية غادرها ١١ من الأساتذة كنت آخرهم. ولأنه لم يكن مسموحا للأساتذة بمغادرة السودان دون إذن، قمت بتغير مهنتي في جواز السفر

إلى «فنان».

بيلوبس: قمت إذن بإعادة تعريف نفسك؟

خليل: نعم. طلبت إصدار جواز جديد، وحصلت على تأشيرةتفيزا، وفي اليوم التالي ذهبت لرئيس قسمي وقدمت له استقالتي فضحك. قلت له: «إذا حضرت للمطار في الساعة السابعة والنصف من صباح الغد فستراني هنالك»، وهكذا غادرت.

بيلوبس: هل يرى السودانيون أنفسهم عربا أم أفارقة؟

خليل: أنا أرى نفسي رجلا سودانيا. أنا أفريقي يتحدث اللغة العربية، غير أني لا أحس البتة بأني عربي.

بيلوبس: ولكن من أين أتى ذلك الخلط؟

خليل: بعض السودانيين الراغبين في الحصول على بعض المال زعموا أن أصولهم تنحدر من العرب، ومن الأفارقة أيضا.

بيلوبس: مثل «الجمهورية العربية المتحدة»

خليل: نعم. لقد فوجئت وأنا في «أصيلة» بالمغرب برجل سوداني يقول لي أنه لا يحس في دواخله أبدا بأن له أي صلة بإفريقيا. لا أدري أين تعلم ذلك؟! لا يبدو من شكله أنه عربي، وكان لونه أدكن من لوني. قال لي إن أفريقيا ليست لها حضارة فسألته: «متى بدأ تاريخك؟»

بيلوبس: عندما أتيت للولايات المتحدة، كان تأهيلك الفني سوداني وإيطالي ... ماذا فعلت هنا؟

خليل: مارست في البداية عددا من المهن من أجل كسب العيش. لقد جئت لهذا البلد مرتين من قبل. كانت المرة الأولى عام ١٩٦٤م بقصد السياحة ورؤية

نيويورك. وكانت الزيارة الثانية بقصد التأكد من أني أكره نيويورك حقا.

بيلوبس: لماذا؟

خليل: لأني شعرت بخيبة الأمل من رائحة نيويورك ومن أعداد المتشردين المتبطحين على شوارعها. كانت فكرتي عن أمريكا مأخوذة من الأفلام. يقود المرء سيارة كاديلاك أو أي سيارة من تلك الأنواع الفخمة، ويذهب لمكتب البريد أو المصرف أو المطعم دون أن يترجل عن سيارته.

بيلوبس: والشوارع مرصوفة بالذهب؟

خليل: ليست مرصوفة بالذهب، ولكن على الأقل نظيفة. لذا عدت لها مرة أخرى لأرى إن كنت ما زلت أكرها. كانت تلك هي غلطتي. لقد أحببتها. فيها قابلت إبراهيم الصلحي وبوب بلاكبيرن، وذهبنا معا لمهرجانات الجاز في شوارع هارليم (كان ذلك في ١٩٦٥م).

بيلوبس: الولايات المتحدة بلد متفرد عنصريا.

خليل: لقد كانت تجربتي فيها واحدة من أجمل تجاربي في الحياة. لم أقض فيها أجمل أوقاتي، ولكن تجربتي فيها كانت قطعا واحدة من أجمل تجاربي. السبب هو أنه يلزمك أن تكون سريعا في إخراج أفكارك للعالم. إن لم تفعل سوف يقوم شخص آخر بفعل ذلك ويسبقك. إنه أمر محفز ويثير النشاط.

بيلوبس: هل كان شعرك حينها «أفرو» في ذلك الوقت أيضا؟

خليل: نعم. حتى عندما كنت في السودان، كان شعري «أفرو» فتلك كانت الموضة يومها، وكنا نستخدم المشط الأفرو، والذي كنا بالمناسبة نسميه في السودان «مشط الفزي الوظي fuzzywuzzycomb».

كنت أختلط بالأمريكيين السود وأشعر معهم بأني بين أهلي. غير أنه رغم ذلك

كنت أبدو بينهم رجلا أجنبيا. فلم أكن أتحرك أو أتحدث مثلهم أو أرقص على موسيقى الجاز (jive) مثلهم. أصحابي من غرب أفريقيا كانوا مثلي، ولكنهم كانوا أكثر قبولا من شخص اسمه «محمد». ولكن ربما كانوا أكثر قبولا عند الأمريكان السود لأنهم أبناء عمومة منذ أيام العبودية.

بيلوبس: اللوحة المطبوعة (print) التي أهديتني لها فيها كمامة / قناع غاز (gasmask).

خليل: كان ذلك تعبيرا عن الحياة في نيويورك بكل ما فيها من تلوث وتعرض للغازات. لقد أنجزت كثيرا من الأعمال عن نيويورك، وأسميت العمل الذي أهديته لك «تضحية sacrifice». أقول في اللوحة إني أضحي بنفسي. وأعمالي الأخرى كانت عن الإزعاج (التلوث السمعي) في نيويورك. وعملي الذي اسميته «صدى echo» لا يتحدث عما تسمعه من صدى من الجبال، بل من تبادل طلقات الرصاص. عندما أتيت في زيارتي الأولى لنيويورك، صادفت في كوينز حادثة في سوبرماركت قامت فيها عصابة بحجز رواد السوبرماركت عنوة تحت تهديد السلاح. ذكرني المشهد بالأفلام الأمريكية، ووقفت أشاهد ذلك المنظر وأنا في غاية الذهول والشَّدَه. وجرى رجال العصابة إلى سيارتهم وهم يحملون ما سرقوه من دولارات، والجميع ينظرون وقد تجمدوا في أماكنهم. كان من الممكن (نظريا) أن أصاب في ذلك الحادث. ذهبت من فوري وبدأت في عمل «صدى ١» و«صدى ٢». كنت سأقوم بمواصلة العمل في سلسلة «صدى»، غير أني توقفت.

نصان من كردفان

Two Texts from Kordofan

آردي و اس. اتش R. D. and S. H.

مقدمة: نشر هذا المقال في العدد الثالث عشر مجلة «السودان في رسائل ومدونات SudanNotesandRecords» الصادر في عام ١٩٣٠م. وأشار المؤلفان في مقالهما لإسميهما بالأحرف الأولى لسبب ما، وهذا أمر غير معهود في المجلات المحكمة.

وقد جئنا بالنص العربي في المقال كما أورده الكاتبان تماما دون تعديل.

المترجم

**** **** ****

تحصلنا على هذين النصين من أحد أعيان النهود، والذي كان يحفظهما عن ظهر قلب، وقام بإملائهما علينا. والنصان يعدان جزءا من التراث والتقاليد الشفاهية التي سجلت تاريخ الصراع بين قبيلتي الكبابيش والحمر، منذ ذلك الزمان الذي انتقلت فيه القبيلة الأخيرة من دارفور إلى كردفان في بداية القرن الماضي، وحتى ظهور المهدية، والتي أتت على ما عند القبيلتين معا من قوة ونفوذ، وبددت ثرواتهما. وحدثت المواجهة العلنية الأخيرة بين القبيلتين عقب سقوط الخليفة عندما استولى رجال الكبابيش على ما بقي عند الحمر من إبل. غير أن الحكومة الحالية أفلحت، منذ ذلك التاريخ، في كبح الصراع بين القبيلتين.

ويدور النص الأول حول الفخر والتباهي لشيخ من شيوخ الكبابيش هو شيخ فضل الله ود سالم، وعزمه على بسط سيطرته المطلقة على إحدى آبار الحمر المهمة. بينما يدور النص الثاني حول رد الحمر، في شكل رسالة مفتوحة من شيخ مكي ود منعم شيخ فرع العساكرة الحمر إلى شيخ فضل الله ود سالم. وقيل إن شيخ مكي عرض جائزة قيمة لمن يصوغ أبلغ وأقوى رد على ما أتى به شيخ الكبابيش. وكان النص الثاني في هذا المقال هو الرسالة التي أقرها شيخ مكي وظفر مؤلفها بالجائزة.

لا شك في أن النصين الواردان في هذا المقال كانا قد وضعا في حوالي عام ١٨٥٠م، حين كان الأشخاص المذكورين في النص الثاني في عز مجدهم.

ونحسب أن النص الثاني يتميز بشكل لغوي مثير للاهتمام، إذ قلما يرى المرء نصا مكتوبا باللغة العامية الدارجة. وصحيح أن النص الذي بين أيدينا الآن هو تراث شفاهي متوارث عبر نحو ثمانين عاما، إلا أنه ما من دليل على أنه قد تعرض لكثير تعديل أو تحريف. وعلى الرغم من أن النص قد صيغ على شكل رسالة، إلا أنه ربما كان معدا ليلقى على مسامع جمع من الناس في صورة سجعبالغ الزخرفة، وذلك ضرب معروف من الخطابة القبلية tribaloratory. ولهذا الضرب من الخطابة شبيه في كثير من مناطق السودان، وله نظير أيضا عند بدو الحجاز، حين يقوم المتخاصمان أمام القاضي في المحكمة القبلية بعرض دعوتيهما سجعا، ويعلن القاضي عن حكمه بذات الشكل اللغوي.

وفي ترجمتنا للنصين حاولنا الحفاظ بقدر الإمكان على الأسلوب البلاغي rhetoricalstyle ، حتى بالنسبة لمن ليست له كبير معرفة باللهجة المستخدمة.

النص الأول

في فوجا أم خباره

عاوز له دماره

كان حاوطوك حمر يدس فيهم حماره

أغر وبكداره

بشويشك لهم ناس العيش برد

لا يشيلوا كنجاره

النص الثاني

ابتدآء جواب الشيخ مكي ود منعم ردا لجواب الشيخ فضل الله ود سالم

وكاتب الجواب الفكي أحمد ود عيسى ابو اما جابت

قال فيه

أرسل جوابه. الى اليرضى واليابى. اللهم يا مسبب الاسباب. ويا مجري السحاب. من الشيخ جقجوق ساري الدواب. يا موصل الجواب.

سلم على الشيخ فضل الله ود سالمين. انت ولدنا وابيك اخينا. لا تسمع قول الخاربين. كسارين كتب المدين. جليداتن وهبانين لا عاشوا فيك ولا ربيو فينا

الشيخ مكي قوم لك الجيوش الحاشده. ما ناشده

من ورا شحت ومن وسط انفرزت ومن قدام مزنا مجرف قام.

وان سألت عن الفرسان. منهم سالم ابو ركوه فارس الرحمن. ومنهم دلم ود عشاي ابو قلبا حجر ملان. ومنهم قريب ود مروه النمر البطال الخمجان. ومنهم عيسى ود النشيو وبليلة درب التج والشيخ سالم ابو دقل ببندقو الرطان. والشيخ مكي ابو المليح الزي جبل لبنان. يتلحظ يمين وشمال يفقد الفرسان، ان كان واحد فيهم غاب يكون ندمان.

والجيوش من قبيلة حمر العساكر فيهم عيال طراد شايلين السيوف السلحت

الصحابة. وفيهم غشيمات مكربين الصعابة. وفيهم بني بدر مشددين في هذه الحرابة. وفيهم دقاقيما قدر الترابا.

عدد المطر ورطين العجام. جيوشا في جيوش ما ليهم قيام. زي دار قريس ودار سلام. والشيخ مكي العزيز بايده قام. سلا السيف وقبض اللجام. وفي الوقت الشيخ فضل الله ود سالم هرب زي النعام. خلا بمبم بعياله نام، وخلا بيت شقاق مستر باكمام. وفي بطنه عروس زي الحمام. وخلا نحاسه يبكي زام. وخلا الصفير يجري في برامه

(زي مشي حرابه)

إلا الشيخ مكي العزيز عاوز يعدل حد بلاده. إن سألت عن حد بلاده بالكايلو والو درق وريح كجمر وغريبة الحرازة عاوز منهم فطرة وزكوات وخشم ودم واسبار وعادة. وان مكذب في هذه الافادة. اسأل دار حامد ام سنعير قوم الفساده.

وانت ما تنظر في هذه الخسايل. نحن قتلنا ام بده يوم جانا صايل. وقتلنا بخيت ولد قيله بكينا أخته ام شوايل. وقتلنا كسارخاينا ربطه في سرواله سايل.

انت خاطي لا لقيت ابيا ارشدك ولا اخيا هداك. شن جاب للذيب وراك. بايده اللطمك رماك. لا كدمك ولا عضاك.

انت ما تقدر تلاطم الفيال إذا حاولت الفيال تبقى رمايهم. ولد سالم هرب خلا البيت مايمهم.

انتهى